يامين

إياد عبدالرحمن

إهانة غير ضرورية



منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

بالنسبة إليَّ، لم أكن في حاجة إلى الكثيرِ من الوقت حتى أستيقظ من خيالات طفولتي، وأجدني، وبمحض الصدفة، مخصـيًّا ومحشورًا داخل نسيج غليظ من الخيش تحمله أمي. كنتُ في التاسعة من عمري لما حملتني أمي على ظهرها المحدودب، بعيدًا عن كل الأحلام التي أعرفها، وسارت بي صوب السكَّة المسافرة شرق (الحبشة).

لم تشأ أمّي وقت ذاك أن تجعلني أصعد على ظهرها وأطوّق رقبتها بكلتا يديَّ مثلما يفعل الصِبية عادةً في لحظة طيش، إذ إنّ من شأن الأقدام المنفرجة، وكما أوضحتْ لي حينها، أن تزيد من تفتق جروحي؛ لذلك أرغمتني على التكوم داخل الخيشة ثم شدّتني إلى ظهرها كما يشدّ رجال القرية أكياس الشعير، وسلكت بي طريقًا ترابية غير مألوفة، يسبقها فيه فوجٌ من الرجال المسنين والنساء والأطفال.

*****

يتناول (إياد عبدالرحمن) في هذا العمل، موضوعاً لم تتطرّق إليه الرواية العربية من قبل، أو زاويةَ مُعالجةٍ مختلفةً على أقل تقديرٍ لموضوع التضحية بالذّكورة لأسبابٍ دينيةٍ. يحكي العملُ قصّة طفلٍ حبشيٍّ يُرغم على ترك قريته وفُقدان ذُكورته رغبةً من والدته بالتبرّك والتقرّب إلى الله بانضمامه إلى (الأغوات) في المدينة المنوّرة ومكة المكرّمة، وهم جماعة تُكرّس نفسها لخدمة المشاعر المقدّسة، شريطةَ أن يكون أفرادها مخصيّين. أُوقفَ العمل بهذا النظام أواخر سبعينات القرن الماضي بفتوىً دينيةٍ أنهتْ ألف عامٍ من هذه الممارسات.

الناشر





إياد عبدالرحمن

إهانة غير ضرورية





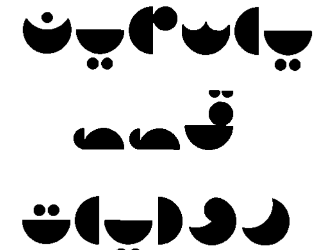
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

إهانة غير ضرورية

إياد عبدالرحمن

إهانة غير ضرورية

رواية





الكاتب: **إياد عبدالرحمن**

عنوان الكتاب: **إهانة غير ضرورية**

لوحة الغلاف: مؤمنة محمد

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-02-5

الطبعة الأولى - مايو/ أيّار - 2023

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

فـي أواخر السـبعينيات، أصدر الشـيخ عبـد العزيز ابن باز، مفتي عام المملكة العربية السعودية، فتوى بإيقاف العمـل بنظام الأغوات في المسـجد الحرام بمكة المكرمة والمسـجد النبوي بالمدينة المنورة، لتنتهـي بذلك ألفُ عامٍ تقريبًا من الممارسـات التي كانـت تحـث على تجنيـد الأفارقـة الفقـراء للعمل فـي الأماكن المقدسـة. اسـتنادًا إلى هـذه المفارقة التاريخية، تأتي الرواية التالية خيالاً لا توثيقًا.

٢٥ نوفمبر ٢٠٠٩

جدة - المملكة العربية السعودية

١

حسنًا، وقبل أن أبدأ، دعونا نفترض جدلًا أنّ جميع قصص حياتنا تبدأ على هذا النحو تقريبًا؛ طفلٌ يلهو في يوم العيد، حوله أقرباؤه البالغون، يقتربون منه واحدًا تلو الآخر، يلقون عليه التحيّة أولًا، ثم يستمعون إليه وهو يصف أحلامه التي يريد تحقيقها عندما يكبر.

«خيالاتٌ جامحة»، يُفكّر في ذلك خالٌ عابرٌ وهو يصغي إلى أمنيات الطفل التي تجيء على نحو ساذج وبريء، لكنّ الخال، وعوضًا عن قول الحقيقة، يكتفي بطمأنة الطفل بأن أمنياته سوف تتحقق في المستقبل القريب، ولربما يأتي أحد أبناء العمومة الذي لم يره الطفل منذ فترة طويلة؛ كي يؤكّد، وبجدّية تامّة، أنّ هذا الكون يتسع لأحلام الجميع، فيكبر الطفل، وتكبر بداخله كل الأمنيات الجامحة، تُزهر الأشجار بانتظار أن تقتلعها فأس الحطّاب الأخيرة. حتى إذا ما وصل الطفل إلى سن البلوغ بجدارة، توقّف أقرباؤه عن وصف الممكن فجأة، وتحوّلوا فورًا إلى الحديث عن المستحيل.

هكذا، دون تنويه مسبق، يخبرونه عن صعوبة تحقيق أحلامه، وعن ضرورة أن يتماشى مع ما سوف تأتي به الأيام، وعن خيبة الأمل التي سوف تطاله مثلما طالتْ الكثيرين من قبله.

لكن لا بأس لو جاء الأمر صادمًا بالنسبة إلى الطفل، لقد كان واجبًا عليه أن يعرف الحقيقة في نهاية المطاف، وأن يتفهَّم ضرورة العيش بواقعية داخل مسلسل كرتوني، إلا أن ثمة شيئًا ما يدفعني إلى الحيرة، وهو نفس الشيء الذي قد يحيركم أيضًا، ألم يكن من الأفضل أن يعرف الطفل نهاية العرض الهزلي هذا قبل أن يبدأ؟ لماذا يجب عليه أن يعيش طفولته مُغيَّبًا بالرغم من كونه شخصية محورية في مشاهد تتكرّر بشكل دوري؟ «أحدهم يعبث بنا»، سيفيق كل الأطفال على هذه الحقيقة المفزعة، وسيدركون جميعًا أن الدافع من وراء خَلقهم لا يعدو كونه مجرَّد أمر ترفيهي.

بالنسبة إليَّ، لم أكن في حاجة إلى الكثير من الوقت حتى أستيقظ من خيالات طفولتي، وأجدني، وبمحض الصدفة، مخصيًّا ومحشورًا داخل نسيج غليظ من الخيش تحمله أمي. كنتُ في التاسعة من عمري لما حملتني أمي على ظهرها المحدودب، بعيدًا عن كل الأحلام التي أعرفها، وسارت بي صوب السكَّة المسافرة شرق (الحبشة).

لم تشأ أمّي وقت ذاك أن تجعلني أصعد على ظهرها وأطوّق رقبتها بكلتا يديَّ مثلما يفعل الصِبية عادةً في لحظة طيش، إذ إنّ من شأن الأقدام المنفرجة، وكما أوضحتْ لي حينها، أن تزيد من تفتق

جروحي؛ لذلك أرغمتني على التكوم داخل الخيشة ثم شدّتني إلى ظهرها كما يشدّ رجال القرية أكياس الشعير، وسلكت بي طريقًا ترابية غير مألوفة، يسبقها فيه فوجٌ من الرجال المسنين والنساء والأطفال.

أذكر هذه التفاصيل بوضوح كما لو أنها حدثت مساء البارحة، وكما لو أنني لستُ الآن في أواخر الستين من عمري. لقد سارت بي أمّي آنذاك دون أن تبدي اهتمامًا بالخرق البالية التي تضغط بقوة على فرجي، ولا حتى بخيوط الدم والبول التي تسيل بين قدميَّ، وعبر الخيش؛ كي تصنع نهرًا على ظهرها. كانت تصب تركيزها على اللحاق برفاقها الذين تضجَّروا في بادئ الأمر من بكائي المتقطع، ثم أقسموا بعد ذلك على أن يتخلّوا عنها في حال إن لم تُعجِّل بالسير.

«كل هذا لأجلكَ يا الله»، كانت أمي تُصبّر نفسها، ولعلّها مع المناجاة تشيح ببصرها نحو الأعلى؛ كي تطمئن إلى قدرة الله على رؤيتها، فالسماء بعيدةٌ جدًّا، ومن المحتمل، أن تغيب هي عن أنظاره، أو أن يتخلّى هو عنها مثلما فعل أولئك المسافرون. نادته في كل لحظة باسم مختلف، بعض الأسماء لا صحّة لها، عرفتُ ذلك بعد أن كبرتُ طبعًا، لكنها لم تلجأ آنذاك إلى الله بدافع الخوف، أو رغبةً في الاحتماء به، وإنما كي تذكّرهُ بحجم التضحية التي كانت تقوم بها.

إنني متأكد من أن هذا الشعور بالتضحية هو وحده ما منح أمّي القدرة على قطع المسافة الممتدة بين قريتنا البعيدة في شرق (الحبشة)

وميناء (عَصَب)، وهو نفس السبب الذي جعلها تتجشّم أيضًا عبء حملي مسافة ثلاثة أسابيع كاملة دون أن تستسلم للتعب؛ إذ كانت تؤازر نفسها طوال مشوارنا باستحضار أهمّية القربان الذي تُقِلّه على ظهرها، أقصدني بالطبع، وتسوقني إلى ربها مثلما يُساق كَبش فداء إلى موته، دون أن يخفت في داخلها ألف يقين بأنها كانت تحاكي النبي الذي حمل ابنه إلى صخرة الذبح.

«كل هذا لأجلكَ يا الله»، تعود لتذكّر ربها، فأزداد يقينًا من مدى جدّية السفر الذي انطلقنا فيه دون استعداد مسبق؛ وذلك لأن أمّي ما كانت لتتباهى بأفضالها على أحدٍ إلا في حال إن كانت مقبلة على القيام بأمرٍ جِدي وحاسم، كأن تُذكّر أبي مثلًا بشبابها الذي أهدرته من أجله ثم تخرج بعد ذلك لتحرق العشَّة التي أقامها بمناسبة إقباله على الزواج بامرأة أخرى، أو أن تُذكّرني ذات يوم بحليب الشاة الذي تجلبه لي كل صباح ثم تدعو قابلة القرية كي تقوم بقطع خصيتيَّ بنصل سكّين مخادعة. أجل، لقد كُنّا مقبلين طوال سفرنا ذاك على منعطف حقيقي وحاسم، لكنّ أمي فضّلت التكتم على أيّة تفاصيل حتى نبلغ وجهتنا.

أنا في الحقيقة لا أذكر سوى القليل من الأساليب التي لجأت إليها أمي في تلك الرحلة كي تتغلّب على مخاوفها، لكنني، وبحدس طفل التاسعة الذي يرتدي جسدًا هزيلًا يليق بطفلٍ في الخامسة، فهمتُ أنّ لا شيء كان يقلقها آنذاك سوى حاجتها إلى شخص آخر يؤازرها طوال المشوار، لقد بدا لي في تلك الأثناء أنّ طريقنا كان

سيغدو أقلّ وعورةً في حال إن سافرنا برفقة شخصٍ آخر نعرفه، فيتناوب معها على حملي، ويساعدها أيضًا على تقفّي أثر رفاقها المسافرين، أولئك الذين ساروا بطريقة عشوائية كما لو أنهم كانوا بالفعل يقصدون التخلّص منها.

لم تلتفت أمي طوال مشوارنا إلى الخلف حيث قريتنا؛ فالخلف خيانة، بل جعلتْ تقوّي صلتها بالسماء، وتفتّش في الأفق أيضًا عن أثر رفقائها. لكأنّي أراها الآن وهي تشدّني بحزمٍ إلى ظهرها، ثم تدفع مؤخرتها نحو الخلف، وتزيد قليلًا من انحناء قامتها، فترتفع كومة الخيش الراغبة في السقوط، وأزداد بدوري قُربًا إلى عظام ظهرها الناتئة. وما إن يستقيم بنا ذاك الطريق الذي شهد انحدارات شديدة، حتى تنصرف أمي إلى تزجية الوقت باستذكار تفاصيل النبوءة التي جعلتني أتورّط في هذا السفر معها.

تقول لي بصوت عالٍ إنها رأتني أثناء نومها وأنا أقف بجوار بعض الفتيان الذين يرتدون ثيابًا برّاقة ولامعة، وأنَّ وجهي كان يتألق من شدة اللمعان، وأنَّ شعري كان يخلو كذلك من تراكمات الغبار والأتربة، فيطول حديثها عنّي كثيرًا، لكنها تعود في نهاية الأمر لتؤكد لي، وبعد القَسَم عدّة مرات، أنّ ثلاثة رجال أشداء ذوي بشرة بيضاء قد جاءوا إليها في نهاية الحُلم، وقالوا لها إنني ولدٌ مبارك. «إنها إشارة الله لنا»، هكذا راحتْ تهتف أمي وهي تواصل وصف حُلمها، ثم أخذتْ تبرّر لي أن سفرنا هذا هو امتثالٌ لأمرٍ إلهي صريح وليس مجرّد مغامرة جامحة.

أذكر أمي بشكل ضبابي وهي تستعين ببعض العبارات المطوّلة كي تقنعني بأهمية سفرنا، مع العلم بأنني لم أكن أملك وقتها خيار البقاء في قريتنا أو الرحيل، ولم أكن لأتصرّف، أو حتى لأفكّر، إلا حسب ما تفرضهُ عليَّ بنفسها، إلا أنّ الكلام، وحسبما أظن، كان يدفعها إلى الشعور بالطمأنينة، وكان يعينها على التهدئة من روعي، خصوصًا وأنني لم أعرف منذ ولادتي أي مكان آخر سوى قريتنا الصغيرة.

لربما توقفتْ أمي عن المشي أثناء سفرنا مرّة أو مرّتين؛ وهذا كي تمنحني نظرة مطوّلة وتتأكد من أنني كنتُ أفهم كلامها، إلا أنها، وبعد كل توقف، كانت تواصل السير وهي تسألني بجدية مطلقة، «أنت تفهم ما أقول، أليس ذلك؟»، فأطأطئ رأسي موافقًا، وتعاود بدورها قطع المسافة الممتدة أمامها وهي تؤرجحني على ظهرها كمن تشعر بالزهو لأن الله لم يختَر من بين صِبيَة القرية طفلًا مباركًا سوى ابنها.

كنتُ أتأرجح على ظهر أمّي بالتوافق مع طريقتها في المشي، فتتأرجح في رأسي، وبشكلٍ متوقَّع طبعًا، صورة شيخ القرية وهو ينعطف لزيارتنا قبل السفر. كان الشيخ قد استجاب يومًا لدعوة أمّي حين أخبرته عن الحلم الذي رأته في منامها، فجاءنا برفقة رجلٍ غريب لم يبدُ أنه من أهالي القرية. ألقى الرجلان علينا التحيّة ثم أخذني الشيخ بمهل إليه ورفع القميص الطويل الذي كنت أرتديه.

دون تبرير مسبق، وبلا أيّ استئذان، وجدتُ نفسي أقف عاريًا داخل دائرة صنعتها أمّي برفقة الشيخ والرجل الغريب. لقد وقفتُ بينهم مثل شجرة عارية تحاول التصدّي بمفردها لجنود من الريح، ولم يكن في وسعي آنذاك، وهذا بالاستناد إلى النظرات الصارمة التي راحت تسددها أمي نحوي، أن أبدي أيّ اعتراض على ما كان يجري.

كان الشيخ يقبض على كتفي كي يجبرني على الاستدارة حول نفسي، وحتى يمنح كافة الحاضرين فرصة تأملي بدقة، أما الرجل الغريب، فقد صبّ جُل تركيزه على (ذلك الشيء) الذي يبرز أسفل بطني، أخذ يقلّبه بسبّابته اليمنى قبل أن يتحوّل صوب أمي ليقول لها بما يشبه خيبة الأمل إن ذكوريتي واضحة، فكان تعليقه هذا كافيًا لأن تشدَّني أمي نحوها، ثم تهزّني بقوة مثلما لو أرادتْ توبيخي بسبب تصرّف غير لائق.

لقد اجتاحتها نوبة غضب عارمة لمَّا راحت تقلب (ذلك الشيء) بين يديها، وأخذت تكرّر باعتراض جملة واحدة ووحيدة، «ولكنّه صغير جدًّا»، إلا أنّ هذا لم يكن من شأنه أن يحمل الرجل الغريب على العدول عن رأيه أو أن يدفع أيًّا من الرجلين إلى البقاء في عشَّتنا فترة إضافية. لقد غادرا العشَّة على الفور ثم تبعتهم أمّي، فصرتُ وحدي عاريًا، لا شيء يرافقني سوى الهلع من تلك اللحظة التي تعود بها أمّي كي تعاقبني على (الشيء) الذي يتدلّى أسفل بطني.

تخيلتها تدلف إلى العشّة وهي تتّقد غضبًا، فتلومني في البداية بسبب سوء نظافتي، ثم تخبرني أن (ذلك الشيء) هو ثؤلول قد ظهر بسبب قلة الاغتسال، وتضيف إلى توبيخها سيلًا من الشتائم لأنني تسبّبت لها بالحرج الشديد أمام ضيوفها، ولا ينتهي هذا الطقس من التقريع إلا حين تنهال عليَّ بالضرب المبرح حتى أتذكر في المرة القادمة ضرورة أن أصغي جيدًا إلى تعليماتها. إنها ارتجالية بطبيعة الحال، لن تهدر وقتها كي تبحث عن شيء تعاقبني به، ستجلب معها سعف نخلٍ من مكان قريبٍ كي تهوي به على ظهري ومؤخرتي، وستهتف بالتزامن مع صياحي الذي سيخترق صمت الهواء أنها قد فطنت، وبطريقة كونية ما، إلى أنني كنتُ أرى (ذاك الشيء) يزداد طولًا كل يوم دون أن أحاول دعكه أو إزالته ولو لمرّة واحدة.

كم تمنيتُ في تلك اللحظة، وأنا أنتظر بكل هلع عودة أمّي إلى العشة، لو أمكنني نزع (ذلك الشيء) مثلما أقشّر الدماء المتخثّرة على ساعدي وساقيَّ، أنزعه كما أنزع طبقات الدم الجاف من ناحية الطرف، فينزف جلدي قليلًا، ويعاود النمو بحجم أقل، ثم أنزعه مرّة أخرى حتى يزول تمامًا بعد محاولات كثيرة من النزع، وبعد أن يترك خلفه بُقعًا بُنية وداكنة، لكنّ سيل الأمنيات هذا يتوقف فجأة حين يدلف أبي بشكل غير متوقع ثم يسألني ببلهٍ عجيب عن سبب وقوفي عاريًا بإزارٍ أثبّته فوق بطني وبجسد يرتعش من شدة الترقب والرهبة.

يعاونني أبي على معاودة ترتيب ملابسي، تنضمّ إلينا أمي بعد برهة بسيطة، فأفهم من الحديث القائم بينهما أنّ أبي قد استوقف كلا

t.me/yasmeenbook

الرجلين على أعتاب عشّتنا، وأنه قد سألهما عن الغاية من مجيئهما، فأخبراهُ بأنَّهما كانا يبحثان عن طفلٍ لا يملك أيّ (شيء) أسفل بطنه كي يذهب معهم للعمل في خدمة بيت الله. ونظرًا إلى أنني لم أستوفِ الشروط، لم يكن في وسعهم اختياري للخروج برفقتهم.

لقد غادرنا الشيخ ذلك اليوم بصحبة رفيقه الغريب، فغادرتْ معهما كل آمال أمّي بأن يكون لحُلمها ثمة معنى، لكنّ أمّي ظلّت بعد تلك الزيارة مؤمنة بأنّ ما رأته في المنام لا يحتمل سوى أن يكون نبوءة صرفة، وجعلت تجابه الأيام بقدرة عجيبة على التمسك برأيها، أنّ ابنها الأسمر الهزيل هو طفلٌ مبارك، وأن الأقدار سوف تُرغم شيخ القرية على العدول عن رأيه وستجعله يعود إليها مرّة أخرى.

والحق يقال، لم تشعر أمّي بالذهول لَمَّا عاد الرجل الغريب لزيارتنا بعد فترة وجيزة. أذكره لما جاء بمفرده دون شيخ القرية. كُنت ألهو خارج العشة لما طلب منّي أن أرشده إلى أمّي، فسرتُ به نحوها كي يتعهّد لها بتدبير أمور سفري وعملي في بيت الله، ولكن شريطة أن تزيل (ذلك الشيء)، فأبدت أمّي موافقتها على طلبه دون تردّد.

«اخصيه ولا تجُبّيه»، هكذا قال لها ثم انصرف دون أن يوضح لي، أو أن تقوم هي بشرح ما كان يرمي إليه. ولعلّ الأمر لم يكن ليشكّل أيّ فارقٍ بالنسبة إليَّ وقتها، أقصد أن أكون مخصيًّا أو مجبوبًا، إذ يصعب على طفلٍ في التاسعة من عمره استيعاب الفارق بين خسارة الخصيتين فقط أو خسارتهما مع العضو المتدلّي فوقهما،

ففقدان أيّ عضوٍ بالنسبة إليه يشبه خسارة سِنّ متورّمة تُدق بحجرٍ، لتسقط من فمه وتنمو مكانها سِنٌّ ثانية. لكن لن يصعب على هذا الطفل، أو على أيّ طفل آخر، أن يشعر بنصل السكّين حين ينفذ عميقًا في رقّة اللحم، وحين يُصب الزيت المغلي أسفل بطنه كي تتخثر جروحه الغائرة.

ذلك الإخصاء يفوق حُرقة رشّ الملح على سنٍ متورّمة، ويفوق شعور الحرمان من التسكُّع مع صِبيَة القرية المجاورة. إنّه صرخة تنطلق بعد ألف تعهّدٍ بأن «تكون ابنًا مُطيعًا»، بينما ثلاث نساء سوداوات يقبضن على ذراعيك وساقيك كي يُرددن: «لا شيء إلا ما شاء الله.. لا شيء إلا ما شاء الله». حتى وإن خفَّفت الحناء المسحوقة وطأة عذاباتك، حتى إن عَبَرتْ يد امرأة غريبة لتُجفّف دموعك، من سيمحو من ذاكرتكَ صورة جبين القابلة الذي ينضح بالعرق؟ ومن سيدفع عنك نظرات أطفال القرية وهم يعبرون أمامك كي يشاهدوا والدتك وهي تدفن النصف السفلي من جسدك بجوار عُشَّتكم؟

بعد أن قامت قابلة القرية بقطع خصيتيَّ، وضعتني أمي لثلاثة أيام في حفرة صغيرة بجوار عشتنا، وهذا حتى تلتئم جروحي سريعًا، ولم تأذن لي بالخروج من الحفرة إلا مرة أو مرتين؛ وذلك حين شعرتُ برغبة شديدة في قضاء حاجتي.

لقد تحتّم عليَّ البقاء في الحفرة ثلاثة أيام رفقة الكثير من نظرات العابرين المستنكرة. في البداية، كان المارة يعبرون من جوارنا كي

يراقبونني أنا وأمّي التي تحرسني من رغبتي الملحة في النهوض، فيستنكرون ما يجري ثم يمضون في حال سبيلهم، إلا أنهم، وبعد يومٍ واحد فقط، تحولوا إلى زيارتي للتبرّك وطلب الشفاعة. لقد فطنوا بطريقة ما إلى أنّ الله قد اختارني تحديدًا لخدمته، فطفقوا يحضرون لي اللّبن والفاكهة بينما أنا نصف مغروسٍ أمامهم، وغارق في وحل من التساؤلات، كيف تبدَّل حالي بهذه السرعة الفائقة؟

بطريقة غير متوقعة أصبحتُ محط اهتمام القرية، فجعلتْ أمّي تنهر المارقين كلما أطالوا التبرّك أمامي، وتتصرّف بغلظة مع من حاول ملامستي، لكنها لم تفطن مطلقًا، ورغم القرابين التي تحيط بي، إلى أنّ هؤلاء العابرين هم وحدهم من أطعموا وسقوا ابنها. لقد جعلتْ تصب اهتمامها بشكل حصري على محاولة تفريقهم وافتعال المناوشات معهم، دون أن تلتفتْ إلى حاجة ابنها إلى التواري عن نظرات الغرباء، فانقضت ثلاثة أيامٍ ونحن غارقون في نزاعات تتطوّر أحيانًا لتبلغ التشابك بالأيدي، بينما أقاوم أنا خجلي بمحاولة تصنّع النوم كلما عبر من جواري أحد الأطفال الذين اعتدتُ اللعب معهم.

لقد استلزمنا الأمر كثيرًا من الصبر حتى نجابه كل الذين جاءوا ليدينوا أمّي بمحاولة الانفراد بهبة الربّ. كانت أمي تستنكر ادعاءاتهم، بأن الله قد أذن لهم أن يتبركوا بي، وفي بعض الأحيان تُفضّل الالتزام بصمت مطوّل، لكن فتيل المناوشات بينها وبينهم

لم يخمد إلا حين مالتْ قابلة الحي لزيارتنا وأخرجتني من الحفرة بشكل نهائي.

بعد ثلاثة أيام من إخصائي، قادتني القابلة رفقة أمّي إلى عُشَّتنا؛ وذلك حتى تطبب المنطقة المكوية بين قدميَّ وتدهنها بعجينة من الطين والزيت، فوضعتني على أحد جنبيَّ، ثم أمرتني أن أرفع بكل مهلٍ ساقًا فوق أخرى، لتصبح تلك هي المرّة الأولى التي ترى فيها نتاج صنعها. أذكرها لما أخذتْ تُطالعني بما ظهر أنّه تعاطفٌ مصحوبٌ بندم أبدي، لكنّها عوضًا عن التحسّر راحتْ تعالج المساحة الصغيرة بين قدميَّ وهي تسأل الله أن يبارك عملها، وما إن فرغتْ من دهن الطين والزيت، حتى أخذتْ تلف خرقًا طويلة بين قدميَّ وتثبّتها على خصري، ثم أمرتني أن أواظب على الاستلقاء على جنبي الأيمن إلى أن يحين موعد سفرنا.

بعد بضعة أيام أفقتُ على صوت أمي وهي تحثني على التأهب للالتحاق بالفوج المسافر نحو الشرق، لكن أقدامي المرتجفة ما كانت تدل على أنني أستطيع السير بمفردي، لهذا لجأت أمّي إلى نسيج الخيش الذي كان يستخدمه أبي لنقل الشعير، وضعتني فيه، ثم شدّتني إلى ظهرها وغادرتْ عشتنا.

دون تردد سارت بنا أمّي وهي تختزل في ذاكرتها وعد الرجل الغريب بأن يتكفّل بترتيبات سفرنا فور وصولنا إلى ميناء (عَصَب). راحت تذرع المسافات دون أن تشعر بأي ندم على رفضها اقتراح القابلة بأن تطلب المساعدة من أبي. أعتقد أن أمّي فعلتْ ذلك لأنها

ما كانت ترغب في العودة بجناح مكسور إلى نفس الزوج الذي طلبتْ منه الرحيل حين استبدل بها امرأة أخرى، أو لعلها كانت تريد أن تبدو أكثر صلابة في نظر أهالي القرية الذين لطالما أشفقوا عليها بسبب كونها مجرّدة من الأهل والأقرباء، لستُ متأكدًا، لكن ما أعرفه هو أن أمّي لم تجد صعوبة في إقناع المسافرين الذين خرجتْ معهم بأنّني لن أتسبب لهم بالمتاعب، فأنا، وفي بادئ الأمر، طفلٌ مبارك، كما أنه سيصبح في وسعي السير على قدميّ بعد أيام قليلة.

«لولا أنّه طفلٌ مبارك لما قبلنا أن تجلبيه معنا»، هكذا اعتادتْ أن تقول المرأة التي قادت فوج المسافرين وهي تُعاتب أمّي كلما تأخرت في السير. تلومها بسبب تباطئها، لكنّها ورغم الحنق تمدّنا بالماء، أو ببعض القطع الصغيرة من اللحم المجفف الذي تخبئه في جلود عتيقة، ثم تهرع لتتلقفني حين تبدو على أمي آثار التعب.

(مونا) أو (خالة أمّونة) كما أُطلق عليها لاحقًا، وهو تصغير لاسم (آمنة)، هي واحدة من نساء كثيرات عقدن العزم على أن يمنحن (الحبشة) ظهورهن ويغادرنها هربًا من العوز والفاقة، فتخلّت عن زوجها العقيم والشاة الهزيلة التي تملكها؛ كي تنضمّ بمعيّة شقيقتها إلى فوج من المسافرين المُعدمين، والذين لا يملكون سوى أقدامهم وسيلة للنقل.

لقد حسمتْ (مونا) قرارها بالرحيل إلى (اليمن) وهي تتأبّط رغبة مُلحّة في العثور على زوج آخر تنجب منه بعض الأطفال، فلم تجد سوايَ وسيلة تقربها إلى بعض أحلامها، إذ وبمجرد أن انتصفنا

المسافة المؤدية إلى (عَصَب)، راحت تحملني على ظهرها نيابة عن أمّي، وذلك بعد أن عهدتْ إلى شقيقتها مهمة حمل أواني الفخّار التي تثبتها على خصرها المكتنز باللحم.

ربما كانت (مونا) تدّعي اهتمامها بالمرأة السوداء الهزيلة وابنها المبارك لأنها متديّنة وخيّرة، ولأنها كانت تريد حث الجماعة على المسارعة في السير، لكن احتياجها إلى الشعور بالأمومة كان سببًا آخر يدفعها إلى القيام بكل هذا. لقد دأبتْ تتعامل معي بحميمية تفوق تلك التي عهدتها في أمّي، ولأكثر من مرّة شعرتُ بأنها كانت تود الالتفات صوب شقيقتها كي تقول لها، «انظري.. لقد رزقني الله بطفلٍ أخيرًا»، لكنها آثرتْ أن تواري مشاعرها الموغلة في الأنانية خلف قلقها على الجماعة، واكتفتْ فقط بالاعتراف بأنها باتت تشعر بنهاية المسافة المؤدية إلى (اليمن).

ربطتني (مونا) في ملاءة قماشية عوضًا عن الخيش، وذلك بعد أن قامت بتنظيف المساحة المحروقة بين قدميَّ وتخفيف ضغط الخرق المربوطة، ثم سارتْ بي بثبات دون أن تخضخضني أو أن تزيد من أوجاعي، وعلاوة على هذا، كانت تبادر إلى سؤال أهالي القرى التي نعبر بها، نيابة عنّي وعن أمّي؛ كي يمنحونا القليل من الماء والطعام، ولا تتوانى عن إبعاد شبهة الملل عنّي بترديد الأهازيج القديمة، أو بتلقيني بعض الكلمات الأمهرية، بحكم أننا لا نتحدث سوى الأورومية في قريتنا. إنها فعلتْ كل ما في وسعها كي تخففّ عليَّ وطأة السفر، وكي تمنحني شعورًا، ولو مؤقتًا، بالألفة والمودة.

أنا أيضًا شعرتُ بالمودة إزاء (مونا)، وكنتُ أهنأ بحميمية الاستناد إلى ظهرها المكتنز باللحم، فهو لا يشبه شيئًا من ظهر أمي ذي العظام الناتئة. كانت تحملني أشواطًا طويلة دون أن يختلّ توازنها، ودون أن تتوقّف برهة كي تنقلني من كتف ضامرة إلى أخرى، فأغدو متيقنًا من أن ظهرها الرخو هو وحده ما جعل علاقتي بها تزداد حميمية، وهو الذي جعلني أزداد قربًا منها رغم أنها كانت المرأة التي اقترحتْ على أمي أن تجتزّ ما تبقى من ذكوريتي، وذلك لما تفحّصتني ذات مرّة لتستعلم عن السبب الذي يجعل الدماء تنزف من بين قدميَّ، فاكتشفتْ أن عملية إخصائي لم تكن كاملة.

«قابلة القرية قد خرجت في هذا السفر معنا». بهذه العبارة البسيطة استفتحت (مونا) حديثها مع أمّي. قالت لها إن مواصلة النزيف ستجعلني عرضةً للموت، وأن عليها أن تقطع (ذلك الشيء) المتدلي أسفل بطني مثلما قطعتْ خصيتيّ، ثم تكوي المنطقة التي بين قدميّ مجددًا حتى تلتئم جروحي بشكل نهائي، فما كان لأمّي إلا أن تُسلّمني دون تفكير للقابلة بمجرد بلوغنا (عَصَب)، ثم تطلب منها إحالتي إلى صبي يسير بلا عضو ذكري، ويتبول عبر فتحة أمامية.

«كل هذا لأجلك يا الله»، هتفتْ أمي وهي تراني أتمدد على الأرض مرّة أخرى.. راقبتني وأنا أتأهب للتحول من مخصي إلى مجبوب، ثم كررتْ هتافها حين ثبتتْ (مونا) كتفيَّ بيديها القويتين،

وحين ثبّتتْ شقيقة (مونا) ركبتيّ على الأرض كي تجتزّ القابلة كل ما تبقى من ذكوريتي.

ربما لم أخبركم بأنني كنتُ أفكر طوال سفرنا بأن الله لم يكن يستجيب لدعوات أمي لأنها كانت تدعوه بصوتٍ منخفض، لكنني أقسم لكم بأنَّ الله قد سمع صراخي حين غرستْ القابلة سكينها في جسدي للمرة الثانية، أقسم لكم إنه قد سمعني حين توسّلتُ إلى أمّي أن تطلب من القابلة إيقاف سكّينها، فالنصل لم يكن حادًّا، إذ، وبخلاف المرة السابقة، أخذ يروح ويجيء مرّات كثيرة قبل أن يتوقف عن الحركة، لكنّ توسلاتي ذهبت تِباعًا أدراج الريح، ولم يبقَ من بعدها سوى الوجع الذي بدَّد بعنفوانه كل الوعود التي قطعتُها لأمي، ولـ (مونا) أيضًا، بألا أتبرّم داخل نسيج الخيش مجددًا، وألا أرغم المسافرين على التباطؤ في السير، وألا أسأل أحدًا عن السبب الذي يجعلنا نتخلّى عن قريتنا الصغيرة كي نزور الله في بيته البعيد.

مجددًا، وجدتُ النصف السفلي من جسدي مدفونًا داخل حفرة تمتد عميقًا في جوف الأرض، وإلى جواري أكوامٌ من التُراب تنمّ عن حجم الفجوة التي حُشر فيها جسدي، لكنّ الأمر جاء أشدّ كارثية هذه المرّة، وأكثر إيلامًا، إذ وبخلاف وجع السكين، وحُرقة الزيت المغلي الذي صبوه بين قدميّ، لقد غرسوني في مواجهة البحر كي أراقب أطفال قريتنا وهم يلهون مع الموج الثائر قبالة سواحل (عَصَب).

كان في وسعي آنذاك ادّعاء القدرة على مغالبة عذابات البتر، لكنني لم أفلح في مراقبة أجساد الأطفال النحيلة السمراء وهي تنغمس بشغبٍ في زُرقة البحر دون أن تنتابني الحسرة لقاء سوء حظّي. ليت الكبار قد أدركوا وقتها أنّ لا شيء يفوق خسارة الرجولة سوى مجاورة البحر دون لمسه، وليتهم بدّلوا أيضًا مكان دفني قبل أن يتركوني أمانة في عهدة (مونا)، وقبل أن يقصدوا أزقة المدينة بغية التزود بمتاع السفر.

غابتْ أمّي طوال النهار بعد أن أسندتْ إلى (مونا) مهمّة رعايتي، فأولتني هذه الأخيرة قدرًا كبيرًا من العناية والاهتمام، أخذتْ تمشّط شعري، وتحرق عشبًا عطريًّا أتطيّب به، ثم غسلتْ آثار السفر العالقة بثوبي وثوبها. وما إن فرغتْ (مونا) من تهذيب مظهري، حتى جعلتْ تُبدّد أوجاعي باستحضار القصص والأغنيات الشعبية التي تعرفها، تحكي لي أساطيرًا عن شخصيات عاشت وراء البحار، وتغنّي أهازيجًا كانت تحفظها عن جدتها، لكنني سرعان ما غبتُ عن الوعي، ولم أستيقظ إلا حين جاء صوت أمّي مرّة أخرى.

أفقتُ في اليوم التالي على رغبة مُلحة في التبوّل، فوجَّهتُ سيلًا متواصلًا من التوسلات إلى أمّي كي تخرجني من مكاني، لكنها عارضتْ كل مطالبي بحجّة تخوفها من عدم التئام جروحي، ولولا تدخّل (مونا) التي كانت تتصنّع التسكّع على مقربة منّا لما خرجتُ من تلك الحفرة مطلقًا، ولما وجدتُ نفسي بجوار البحر،

أكشف عن جروح لم يسترها الإزار الذي جلبته (مونا) كي تواري به جسدي.

«لا تدفع ما بداخلك مرّة واحدة»، قالت لي (مونا) وهي تحفر حفرة صغيرة قرب شاطئ البحر كي أتبوّل فيها، ثم ألزمتني جلوس القرفصاء وقبضتْ على إحدى أليتَيَّ؛ ظنًّا منها أن ذلك سيمنحها السيطرة على منسوب البول الذي أخذ يُهدّد بالهرب من فتحتي الأمامية، لكنني أطلقتُ ما بداخلي دفعة واحدة، فعلتُ ذلك عنوة رغم كل الوجع، فارتدَّ قدرٌ كبيرٌ من الدم والبول على جسدي، وأصاب أيضًا طرف قميصها المغسول حديثًا.

لقد كان صنيعي ذاك كفيلًا بأن يحرّض (مونا) على التراجع قليلًا نحو الوراء، وضامنًا لأن تعود إليَّ مجددًا كي توبخني، لكنّها آثرتْ أن تكظم غيظها، وابتلعتْ الحنق كمن تبلع قيئًا مُرًّا، فأنا طفلٌ مبارك، كيف في وسعها أن توبّخني؟

قالتْ لي أن غياب (ذلك الشيء) يزيد من صعوبة تصويب البول، لكنها طالبتني بضرورة التأقلم مع الطبيعة الجديدة لجسدي، ولم تفطن مطلقًا إلى أنني كنتُ قد تصرَّفتُ على ذلك النحو عمدًا بهدف إغاظتها. نهضتُ من موضعي كي أراقبها وهي تردم الحفرة التي تبولت فيها ببطن قدمها، ثم حملتني وسارتْ بي صوب البحر كي أغتسل معها.

حين وضعتني (مونا) على أعتاب الموجة الأولى، أدركتُ أخيرًا ما معنى أن يثور الماء كي يجري سريعًا ويرتطم بساقيّ. مثل سكّين

القابلة، كان الأزرق الأشهب يغادرني حتى يعود إليَّ مجددًا، لكنه، وبخلاف السكين، لم يكن يترك أيّ عذابات من بعده، بل على العكس تمامًا، كان يطبب شيئًا ما بداخلي، ويدفعني إلى صرف النظر عن كل ما لحقني من محاولات أمي المستمرّة لاقتلاع أعضائي واحدًا تلو الآخر. أتحسّس برودته، فيخفف وطأة الموقف عليَّ، ويحملني على الجزم بأنه بات صديقًا مخلصًا لي، على الأقل في هذه المرحلة من رحلتي.

من مسافة قريبة، أرى (مونا) وهي تنشغل بغسل الطرف السفلي من قميصها، تزيل بقع البول الذي تقاسمناه مناصفةً، ولكنها لا تزيح أنظارها عنّي مطلقًا، فهي تخشى على جروحي أن يصيبها شيء من ملوحة البحر. كانت تنهرني بصوتٍ عالٍ كلما قطعتُ خطوة إضافية نحو الموج، ولم تشعر بالراحة إلا حين فرغتْ تمامًا من غسل قميصها، وحين جاءتْ تهرول صوبي لتشدّني بساعدي كي تعود بي إلى أمّي.

عدتُ إلى أمّي بعد غياب مقتضب لتخبرني بأنها تعتزم الخروج مجددًا للبحث عن الرجل الغريب، إذ إنّه تعهّد لها بالوفاء بأجرة ركوبنا البحر فور وصولنا مدينة (عَصَب)، فقادتني أمي إلى الحفرة بنفسها قبل أن تسند إلى (مونا)، ولمرّة ثانية، مهمّة حراستي من أيما رغبة طارئة بالخروج من الحفرة واللعب مع الموج. قفلتْ أمّي عائدة إلى ضواحي المدينة، ولا أعرف لماذا لم تعد من ذلك المشوار يومها، أو ما الذي قد جعلها تغيب إلى الأبد، إذ وجدتُ نفسي في اليوم التالي مضطرًّا إلى ركوب السنبوك دونها.

كنتُ لا أزال أناكف الركاب كي لا يشغلوا الفراغ الذي تركته من أجلها حين دفع ثلاثة شُبّان بالسنبوك كي يطفو على سطح البحر، فكان الوقت ملائمًا بالنسبة إلى (مونا) حتى تنزلق بجواري وتقول لي إنّ أمي لن تسافر معنا، وأنّ ما يحدث هو قَدَر الله، لقد خلقني لكي أكون مباركًا، وينبغي عليَّ أن أنطلق في هذا السفر بمفردي.

«إنه تشريفٌ يفوق كل شيء»، قالت لي (مونا) وهي تخبرني بأنّ كل إنسانٍ قد خُلق لسبب ما، أنا مثلًا خُلقتُ كي أذهب إلى (مكّة)، وأمي قد خُلقت حتى تعود مجددًا إلى قريتنا. ربما كانت (مونا) تتصرّف معي بلطف بليغ وقتها حتى تخفي حقيقة الأمر، أن دور أمّي، ومنذ البدء، كان يقتصر على إحضاري إلى مدينة (عَصَب) كي أركب البحر بمفردي، وأنّ أمّي قد تعمَّدتْ عدم توديعي حتى لا أصبح متعنتًا وأرفض ركوب البحر، لكنني عرفتُ هذه الحقيقة بعد سنوات طويلة، وعرفتُ أيضًا أنّ (مونا) هي من تطوعتْ لرعايتي لأن الرجل الذي جاء عشتنا قد تكفل بأجرة ركوبي السنبوك لكنه لم ينطلق في ذلك السفر معنا.

كان حجم السنبوك المخادع لا يعكس قدرته على حمل كل تلك الأجساد السوداء بمختلف أوزانها، إلا أن الربّان وضَّح لنا أن السنبوك آمنٌ وشديد التحمل، وأنّه كان يُستخدم سابقًا لنقل العبيد إلى السفن الكبيرة.

في ذلك السنبوك، اعتاد تجّار الرقيق أن يطوقوا أيادي الرجال والنساء إلى النواصِي الخشبية البارزة والتي تمتد عرضًا وتستند إلى

قواعد السنبوك الخشبية. أما مقاعد الخشب التي جلسنا عليها، والتي لم تكن مريحة بطبيعة الحال، فهي أشبه بمصاطب خشبية لا ترتفع كثيرًا عن باطن المركب، وأعتقد أنها قد صُنعت على ذاك النحو حتى تسمح لقائد السنبوك أن يرى كل الجالسين من فوق منصته بنظرة خاطفة.

لقد لزمني الأمر سنوات عديدة من بعد تلك الرحلة كي أكتشف أن أرض (الحبشة) قد قطعها الكثير من الأطفال المخصيين والخائفين مثلي. جميعهم كانوا يُشحنون وفق رغبات أهاليهم، بعيدًا عن الجوع والفقر والفاقة، كي يعبروا البحر إلى (اليمن)، ومن بعد ذلك إلى مكة، فيستيقظون من خيالات طفولتهم، وبفعل التهابات فروجهم؛ كي يتساءلوا ببله عجيب، ما الذي فعلناهُ كي نفقد أعضاءنا. ولعل بعض هؤلاء الأطفال، أو ربما أنا وحدي من رفع رأسه إلى الأعلى، بعيدًا عن دهشة البحر الأزرق، وبعيدًا عن وجع الإخصاء؛ كي أتساءل بسذاجة مفرطة: لماذا ينظر الكبار إلى السماء حين يخاطبون الله مع أنّ بيته يقع في (مكّة)؟

٢

ربما نكون قد اتفقنا على أن جميع قصص حياتنا تبدأ بنفس الطريقة، أو ربما لم نتفق، لستُ متأكدًا، لكن ما لن نختلف عليه أبدًا هو أنَّ جميع قصصنا تنتهي بطرق مختلفة، إذ، وعلى سبيل المثال، لا يمكن لأيٍّ منها أن تنتهي مثلما تنتهي قصتي:

ذاك الطفل الحالم، هل تذكرونه؟ إنه يتقدم في العمر، فيصبح شيخًا في أواخر الستين من عمره، مستلقيًا بكسلٍ في حجرة معيشته، على باطرمة عتيقة تَسَعُ ثلاثة أشخاص بالغين، يراقب تبدل الأحوال الجوية لمدينة (جدّة) من خلال نافذة قريبة، ويتعجّب من قدرة السماء على أن تسمح لهذا الكم الهائل من المطر بالهطول. لعله يشتم حالة الطقس وتساقط الأمطار بشكل مفاجئ، وقد يستغرب من فشل المناشف المتكدّسة أسفل باب شقته الصغيرة في منع القذارة والمياه من الدخول، فالطريقة التي وضع بها المناشف كانت تنم عن قدرتها على القيام بما فشلت فيه بلدية المدينة، وأقصد هنا إبقاء عتبة منزله جافّة ونظيفة، لكنه يستنتج متأخرًا أن المطر

يهطل غزيرًا هذه المرة، أكثر من كل المرات السابقة، وسيتعيّن عليه النهوض من موضعه كي يكنس الأوساخ ويجفف الأرض (مجددًا) ويبدِّل المناشف المتورّطة في القاذورات.

هذا الرجل الطاعن في السن لا يقوى على رؤية منزله إلا في حالة نظيفة، رغم أنّه قد اختار أقذر أحياء (جدّة) للعيش فيها، فإحساسه المفرط بالمسؤولية تجاه ممتلكاته يجعله في حالة استنفار دائم تجاه كل ما قد يفسدها، ولولا طبيعتهُ البشرية لأفلح في الدفاع عمّا يخصه بضراوة أكبر، كأن يفرض سطوته مثلًا على الهواء المنزلق خلسة من جهاز التكييف لأنه يحرّض ستائر النوافذ على الحركة بطريقة فوضوية، لكن جهل الرجل التام بقوانين الطبيعة، ومن قبل ذلك إخفاقهُ في إنعاش الضوء المتدلي من سقف المطبخ، يجعله راضخًا للحقيقة الصرفة، وهي أنّه لن يُفلح يومًا في فرض سطوته على كل ما يحيط به من أشياء!

يتصدى الرجل الستيني لاندفاع الأوساخ بتبديل المناشف وكنس عتبة الباب ورش الأرض بماء الورد، وما إن يفرغ من مهمة التنظيف التي أوكلها بنفسه إلى نفسه، حتى يسلك الممر الضيق والمؤدي إلى الحمام كي يغسل المناشف التي من المُرجَّح أن يستخدمها في وقت لاحق.

وصولهُ الروتيني إلى باب الحمام ينتهي بدخوله مساحة ضيقة، حيث حوض استحمامٍ ينكفئ على ذاته، ومبولة تبذل جهدًا إضافيًّا للابتعاد عن حوض الغسيل الذي يجاورها، فيحوم الرجل ببصره

ليتفقَّد الترتيب العام، كل شيء من حوله يبدو مألوفًا وفي مكانه الطبيعي، وحده لون الحائط الأخضر يتخلّف عن الحضور، لكن لا بأس في ذلك، فمصابيح الفلورسنت المطفأة قد أذنتْ له بالغياب.

يُبدي الرجل ارتياحًا واضحًا لأن كل شيء على حاله، إلا أنّ الارتياح يتحول سريعًا إلى استياء واضحٍ من ضوء النهار اللعين، هكذا يصفه في قرارة نفسه، وذلك لأنه يتسرّب من النافذة دون إذن مسبق. إن هذه هي المرّة الأولى التي يدلف فيها الرجل إلى الحمام في وقت مبكّر من الظهيرة، فهو، ومذ أن انتقل للعيش في مدينة (جدّة)، لم يألف قضاء حاجته في هذا الوقت. أجل، إن هذا الرجل شديد الانضباط حدَّ أنه يتبوّل ويتغوّط في أوقات مجدولة، بداية الفجر، قبل الغروب، وحين تشير عقارب الساعة إلى التاسعة مساءً، وبالتالي، لا يمكن لأي صدفة أن تجيء اليوم كي تفسد عليه روتينه، بما في ذلك ضوء النهار اللعين.

يمد يده ليشعل مصباح الفلورسنت، يُعيد للحمام كرامته الأولى، ثم يكدس المناشف المتّسخة في حوض الغسيل. ورغم معرفته التامة باحتمالية انسداد البالوعة جراء تكدس الأوساخ فيها، إلا أنّه لا يتوقف عن دلق مسحوق الغسيل وفرك القماش. يفعل ذلك بإصرارٍ شديد، ولا يتوقف عن الدعك إلا حين يعود لون المناشف الأبيض إلى سابق عهده، لكن هذه المبالغة في التنظيف تكّلف الرجل انسداد مجرى التصريف البلاستيكي.

يجب عليه الآن تنظيف المجرى من الحصى وورق الشجر وذرق الطيور والحشرات النافقة. سيفعل هذا خارج جدول النظافة المعتاد، وهذا الخروج السافر عن جدول أعماله اليومية سوف يدفعه إلى اتخاذ قرار ارتجالي آخر، كأن يقوم بحلاقة شعيرات ذقنه القليلة والزغب على صدره أيضًا كي تنتفي الحاجة إلى تنظيف الحمام حتى موعد لاحق.

«اللعنة»، يشتم الرجل حالة الطقس وسوء الطالع وكل مياه الأمطار التي قادتْ الأوساخ إلى شقته، ثم يشرع في إزالة ثيابه بامتعاض، وهو الذي كان يخصص أيامًا محددةً للحلاقة والعناية الشخصية. دون تخطيط مسبق، يكتشف الرجل وقوفه عاريًا في مواجهة مرآة يؤطّرها خشب أبنوسي. هناك، على الانعكاس الذي يمتد طوليًّا بارتفاع متر ونصف، ينتصب للمرّة الألف، أراه، يراني، كلانا يتأمّل الآخر، وكلانا يتمرّس جيدًا على هذا التموضع، لقد صرنا نألف بعضنا بعضًا بشكل أكبر يومًا بعد يوم، ويبدو أنه قد صار في وسعنا أن نقف هكذا لساعات طويلة دون أن أبرر موقفي، أو أن يبرر موقفه، أو حتى أن يتصنّع أحدنا الجهل بكل التغيرات التي طرأت على هيئتنا الخارجية.

أراقبني على المرآة، لا أسأل نفسي عمّا جرى طوال السنين الماضية، إذ إن الأمر سيبدو غاية في الغرابة لو تصنَّعتُ عدم معرفتي بالشيب الذي غزا رأسي، أو بالهالات السوداء أسفل عينيَّ، أو بالترهلات التي أفسدتْ ساعديّ. لقد كبرتُ كثيرًا، كبرتُ طوعًا

أو ربما كرهًا، ما عدتُ أدري، لكنني أعرف جيدًا أن الحياة قد دفعت بي عنوة كي أتخطى حاجز الستين بجدارة، فلماذا لا أستيقظ إذًا من خيالات طفولتي؟ لماذا لا أتوقف عن خوض الأحلام؟ وما الذي يجعلني أجلس الآن على طرف حوض الاستحمام كي أفرك الفراغ الذي بين قدميّ؟ لعلي أحلم بعضو ذكري ينبت فجأة، فأستمني به على عجلٍ، ثم أشتم الحياة لأنها لم تؤمّن لي زوجةً ترضاني وأرضاها، أو ربما أتخيّل بزوغ خصيتين أفركهما على عجل في مكان عام؛ لأنهما تتكدسان بطريقة لا يسمح بها سروالي القطني، كل الخيالات ممكنة، ولا أعتقد أنَّ هنالك ثمة أمنية أن تغيب عن عقل رجلٍ يحلم بعودة ذكوريته المنهوبة إليه.

أنا، ومذ أن غزتْ شعرة البلوغ الأولى براءة وجهي، لم أتوقف يومًا عن التفكير في المنطقة التي بين قدميَّ، أو حتى عن تحسسها. لطالما مررتُ أطراف أصابعي على عانتي بشكل دوري، وسألتُ نفسي، لماذا لا يبزغ الشعر فوق الجزء الذي حرقته قابلة القرية؟ أو ما المانع في أن تعشوشب المنطقة التي شهدت في السابق نمو عضوي الذكري؟ إلا أنني أفقد القدرة على إجابة هذا النوع من الأسئلة، وأذهب إلى اختبار طول الشعر المتناثر أسفل السُرَّة، كي أفطن إلى حاجتي -أو ربما عدم احتياجي- إلى شراء المزيد من شفرات حلاقة.

أفكاري السخيفة تتوالى، كم من العمر قد تبقى كي تترهَّل عانتي أيضًا؟ أمرّر شفرة حلاقة قديمة على الفراغ الأسمر أسفل

بطني، أجزّ الشعر بطريقة أفقية، ثم أكرر الأمر نفسه بطريقة عمودية، فتغدو عانتي شديدة النظافة، لكن الأجزاء الحليقة منها لا تشبه في نعومتها شيئًا من تلك المنطقة المحترقة تحتها. هذا الانقسام الواضح لمنطقة واحدة، هاتان الضفّتان المتجاورتان، إنهما ليستا أغرب شيء في جسدي الذي تتدرّج سُمرته الفاتحة من منطقة الصدر حتى تصبح مائلة إلى السواد فوق الركبتين. ورغم هذا التضاد الذي أتّصف به، فإنّ جميع تفاصيلي تبدو اعتيادية بالمقارنة بفتحة التبول الأمامية، أو فرجي إن صح وصفه على هذا النحو، فهو عبارة عن فجوة صغيرة تشبه فتحة الشرج، ولكنها تندفع عكسيًّا نحو الخارج.

هناك، على طرف حوض الاستحمام، أجلس لأتناول عانتي بقوة، كما لو أنّي أقبض على حُلمٍ عابر، فتبرز فتحة فرجي المخروطية مثل فوهة بركان. إنها تبدو كما لو كانت على وشك أن تثور وتقذف الحِممِ، أطيل النظر إليها، لعلها على وشك الانفجار، لكنني متأكدٌ من أنَّ لا شيء مما يخرج منها يشبه اللهب، هي بالكاد قادرة على تمرير خيوط البول التي تتفرّق أحيانًا وتسيل على الفخذين. أشدّها نحو الأسفل، تنكشف منابت الشعر، وتبدو الرؤوس السوداء أكثر وضوحًا ضمن هذا الاختبار الذي أجريه للتأكد من اجتيازي معايير النظافة التي أعتدّ بها، فأبادر بتمرير أطراف أصابعي على المنطقة بأكملها، ثم أستخدم شفرة حلاقة أخرى كي أقتصَّ هذه المرّة من شاربي وذقني وشعيرات صدري.

أفكر، «ربما من الأفضل حلاقة نصف جسدي العلوي أولًا ثم تنظيف عانتي بشفرة الحلاقة نفسها»، لكني أطرد هذه الفكرة من بالي على الفور؛ ذلك لأن تعاقب المهام على هذا الترتيب سوف يجعلني أقع تحت طائل التفكير المطوّل في كل ما يتعلّق بذكوريتي والمساحة بين قدميَّ. إنني شخصٌ يستبق الأحداث الحالية دومًا بالتفكير فيما يليها، وحينها، كيف لي أن أنجو من السؤال الذي يجيء كلما سرحتُ بأفكاري نحو البعيد، لماذا لم تجتهد قابلة القرية كي تمنحني فرج امرأة على أقل تقدير؟!

علامات التقدّم في السن تبدو أكثر وضوحًا حين أنهض من فوق طرف حوض الاستحمام كي أتأمّل جسدي على المرآة الطويلة. أعود لأستنكر تفاصيل الشيخوخة الدخيلة، وأبدي استياءً من تقدمي في العمر، ومن الخطوط التي نمت فجأة في منتصف جبهتي. متى سأتصالح مع علامات الشيخوخة والتحذيرات التي تنبهني إلى أنني أصبحت أتقدّم كثيرًا في العمر؟

يرتعش المصباح كما لو أنه يشير إلى انتهاء طقس التأمل الحميمي هذا، فأفطن إلى ضرورة المسارعة في تنظيف مجرى التصريف المختنق حتى أهنأ بشوط استحمام طويل، وهو ما يُلهمني المبادرة بجلب طَسْت من المطبخ كي أفرغ فيه محتويات البالوعة.

أتهادى صوب المطبخ بعد أن أتلحّف منشفة زرقاء. إنني أعتقد أنَّ من الواجب على المرء ألا يعيش حياته بحيوانية، وألا يسير في أرجاء منزله عاريًا، حتى وإن كان وحيدًا. أجلب الطَّسْت، أعود

إلى الحمام، أغلق الباب خلفي، لكنّي أكتشف أن رعشة مصباح الفلورسنت قد زادت توترًا. أمد يدي نحو مفتاح الكهرباء كي أطفئه وأعاود تشغيله، لكنّ المصباح ينطفئ من تلقاء نفسه قبل أن أصل إلى المفتاح. «اللعنة»، أشتم ما يحدث ثم أتساءل، لماذا ينتابني الشعور بأن المصباح أراد مغادرة الحياة دون أن يسمح لي بفرض سطوتي عليه؟

أتحسس الجدار في شبهة ظلام يغزوها ضوء النهار. أصل سريعًا إلى مفتاح الكهرباء، إلا أنّ التبديل المتكرر بين حالتيِّ الإيقاف والتشغيل لا يعيد الحياة إلى المصباح المتوفَّى. أُخرج رأسي من شق الباب، أتأمّل الممر وحجرة المعيشة الغارقة في الظلام، فأدرك أنّ تيار الكهرباء قد انقطع عن الشقة بأكملها.

في وسعي أن أخرج إلى المطبخ مجددًا حتى أتفقد قاطع التيار، لكن الرؤية لم تنعدم بشكل كُلي في أرجاء الحمام، وهذا لن يمنعني من تنظيف مجرى التصريف أو الاستحمام، كما أنّ العبث بالقاطع لن يعيد الكهرباء إلى منزلي، فأنا متيقن جدًّا، واستنادًا إلى تجارب سابقة، من أن حالة الطقس قد تسببتْ في إعطاب كهرباء الحيّ بأكمله.

أدنو من نافذة الحمام الوحيدة كي أشرّعها، وأسمح بمرور المزيد من الضوء، لكن، وما إن أضع يدي على ذراع الألمنيوم حتى يدوي بالخارج صوت ارتطام قوي، يتلوه ارتطام آخر، ومن بعد ذلك ينهار النصف العلوي للجدار الذي يحتضن النافذة. يرغمني

انهيار الجدار على التراجع إلى الخلف، أسقط رغمًا عنّي، ثم أفتح عينيَّ، فأجد نفسي بين الأنقاض داخل حوض الاستحمام.

بقايا طوب.. حطام نافذة.. أسياخ حديد تبزغ من قطع أسمنتية كبيرة.. كل هذا يتكدس حولي أو عليَّ؛ حتى يرغمني على البقاء تحت وطأة الركام. وكما لو أن كل هذه المعمعة ليست بالأمر الكافي، يبادر ماء الأزقة الطافح بالتدفّق من فجوة سفلية في الجدار المنهار.

«إنها مجرد دقائق وتصبح شقتي الصغيرة مستنقعًا يفيض بالماء»، أفكّر في هذا، ثم أحاول انتزاع نفسي من أسفل الأنقاض، لكنني أفيق على ألم هائل عندما تقع عيناي على قطعة الأسمنت التي ترقد بكل وقاحة فوق ساقي. أصرخ بشدة، أنادي مستغيثًا، لكن لا أحد يسمعني، وقد أقول في نفسي، «لعل أحد الجيران سوف يتنبه إلى ما حصل ثم يأتي لإنقاذي»، لكن هذا لا يحصل، لذلك أتمدَّد في مكاني منتظراً، وأتحوّل للبحث عن منشفتي الزرقاء كي أواري بها جسدي، إذ إنّني لن أكون مستعدًّا لمواجهة الغرباء بجسد عارٍ في حال إن توافدوا لانتشالي.

سيأتي شخص ما وسينتشلني من تحت الأنقاض، سأطلب منه أن يحضر لي ثوبًا من حجرة نومي، ثم سيصحبني إلى مشفى حكومي قريب، وبعد تماثلي للشفاء سوف أتقدَّم بشكوى ضد البلدية كي أحصل على تعويض مادي ضخم، وخطاب اعتذار ممهور بختم المجلس البلدي، لكن حتى تحين تلك اللحظة، من سينقذ سجاد

حجرة المعيشة التبريزي من الماء المتسخ؟ لا شيء قادرٌ على أن يحل بديلًا لهذه القطعة التي تجعل مدينة (جدّة) بأكملها جميلةً في عينيَّ.

يزداد تدفق الماء من الفجوة التي يخلفها الحائط المنهار، ويزداد خوفي من عدم قدوم أيّ شخص كي ينتشلني من تحت الأنقاض، أصرخ مستغيثًا، لا أحد يجيب، فيطرق الخوف باب السؤال بداخلي، تُرى هل سأموت اليوم؟ ها أنا ذا، وللمرّة الأولى منذ أن اكتشفتُ بلوغي مرحلة عمرية حرجة، أرى الأمور على حقيقتها، وأفهمها جيدًا دون الحاجة إلى توضيح. لقد بات مؤكدًا أنّ ذكوريتي المنهوبة لن تعود إليَّ يومًا، ولا أصدقاء طفولتي، إنّهم لن ينعطفوا لزيارتي في وقت قريب. حتى أحلامي العاطفية، والتي كان من المقدّر لها أن تضمن شخصًا آخر يقاسمني العيش في هذه الشقة الصغيرة، إنها لن تأتي، وهذا هو أيضًا هو حال الضيوف الذين تخلفوا عن الحضور عندما دعوتهم إلى زيارتي أكثر من مرّة كي أتباهى أمامهم بسجاد حجرة معيشتي التبريزي.

من أسفل الأنقاض، لا يعود في مقدوري سوى التنهد بحرقة، وإغلاق عينيَّ، لذلك أقرر نفض كل الأمنيات من رأسي، بأن تكون (جدّة) موطنًا لأحلام طفولتي الجامحة، وأنصرف إلى التفكير في أنه، وبغض النظر عن حالة الطقس، والأجواء الماطرة، ومياه السيول، وانهيار الجدران، وتمرّد الجمادات، وتضرر مفروشات شقتي، واحتماليّة الموت أيضًا، هكذا تتشوه المدن الجميلة حين تسمح بموت الأحلام فيها.

٣

يمكنني الآن، ومن تحت جدار الحمام المنهار، أن أتذكّر نقطة البداية الحقيقية في قصتي، أقصد تلك اللحظة التي تواترتْ فيها الأمور على عجل وصار كل شيء من بعدها حاسمًا ومصيريًّا. الصور القديمة تهطل على رأسي الآن مثلما تفعل أكياس البلاستيك ومغلفات رقائق البطاطس وصفائح العصائر القادمة من أزقة الحارة حتى تتكوم في شقتي، فأتذكّر ميناء (عَصَب) وأتذكّر السنبوك وأتذكّر (مونا) التي أحاطتني أثناء السفر برعايتها.

في حقيقة الأمر، إن الفيضان الذي يغزو مدينة (جدّة)، ورغم فظاعته، لا يشبه في ضراوته شيئًا من بحر (الحبشة) الذي التقيته أول مرّة قرب ميناء (عَصَب)، لا الرائحة نفسها، لا التمرّد نفسه، ولا الصبغة اللونية عينها، فلماذا يستيقظ في داخلي ذلك الخوف القديم من احتمالية الموت إذًا؟ وكيف لكمية قليلة من مياه (جدّة) العصيّة على بلاعات التصريف أن تجعلني أبحث عن الخلاص، مع أنّي لستُ مقبلًا على صعود أيّ سنبوك، ولا أنوي ركوب البحر؟

أراقب الماء وهو يجيء مندفعًا من ناحية الشارع العام، وذلك بعد أن ينهار الجدار إلى ما دون النصف، فأراه يجلب حاويات النفايات الكبيرة والأشجار والسيارات صوب حارتنا من دون أن يعير أيَّ انتباه إلى اللوحة الإرشادية التي نصبها عمدة الحيّ، «قف أمامك تقاطع».

لقد وضع العمدة هذه اللوحة دون موافقة البلدية كي يمنع الغرباء من دخول الحارة وفق أهوائهم أو التسبب في إزعاج أهلها، لكن هل أفلحتْ اللوحة حقًّا في إيقاف تدفّق الغرباء أو حتى في تنظيم السير؟ لا أظن ذلك، وإلا كيف سوف يفسّر العمدة طريقة دخول هذا الفيضان إلى حيِّنا؟ أكاد أجزم بأن الغاية من اللافتة، كل الغاية، هي تذكير المارّة بأنّ هنالك شخصًا في هذه الحارة يملك صلاحية الأمر والنهي.

تقع حارتنا في حيٍّ شعبي يشكو شُحَّ المرافق والإصلاحات بسبب تململ الأجهزة الحكومية من البلاغات التي يقدمها السكان جراء طفح البلاعات وانقطاع التيار الكهربائي، وهو حيّ قديم لا يختلف كثيرًا عن أحياء شرق المدينة التي استوطنها مجهولو الهوية ومخالفو أنظمة الإقامة والعمل، إلا أنّ هذا الحي، وبخلاف أغلب أحياء (جدّة) كان يتميز بقدرته على الصمود في وجه كافة محاولات التطوير.

لطالما تعامل معنا هذا الحيّ بجفاء، عكس ما كنا نظهر له من مودّة، فكان يُصر على مقاومة النهضة العمرانية التي شهدتها المدينة،

ولم يفسح لنا يومًا فرصة سبر أغواره دون أن نتقاطع مع حواجز الترميم الخرسانية، والتي هجرها وكلاء المقاولات منذ زمن بعيد.

لأكثر من مرّة حاولنا التصالح مع هذا الحي الذي نسكنه، فغضضنا البصر عن الشقوق التي غزت ملامحه، وقلنا لأنفسنا: «لا بأس ببعض التصدعات التي تجيء على الأسفلت والطرقات ما دام أنه يحتضننا»، لكنّه، وحسبما أرى الآن، لم يكن يومًا راغبًا في عقد أي صلح معنا، ها هو يضع حدًّا لحياته المضطربة، إنه يفتح أزرار قميصه، ويسمح لفجوات طرقاته بأن تنهار بشكل جماعي؛ كي يموت، فتداهمنا السيول وتقتلنا أيضًا.

جهلنا الجزئي بحالة حيّنا، ومن قبل ذلك رفض موظفي البلدية الكشف عن تقارير بنيته التحتية، لم يمنحانا يومًا حق التملّص من دفع ضريبة العيش في مكان نحبه ويكرهنا، لقد ارتضينا استيطان هذا الحي رغم إصراره المتكرّر على تهجيرنا، وبالتالي، يجب علينا الآن سداد ضريبة النزاع القائم بين مكاتب المسح الميداني وشركات الهندسة متعددة الجنسيات، وفي حالتي أنا، يجب عليَّ دفع ضريبة إضافية، وهي ضريبة الإقامة في شقة يملكها عمدة الحي عند رأس الحارة؛ إذ إنّ العمدة قد أوكل إليَّ مهمة أن أنقل إليه كافة الأخبار التي تجول في حارتنا مقابل تخفيض الإيجار السنوي إلى ما دون النصف، وهذا يتضمّن الإبلاغ المبكّر عن حملات التفتيش التي تقيمها الحكومة لتصيد مخالفي أنظمة الإقامة والعمل، بالإضافة إلى الوشاية عن قصص مشاجرات العمال، ورصد السيارات التي

يجول بها أصحابها بغية ترويج الحبوب المخدرة والمُسكرات المصنَّعة محليًّا. ماذا سيفعل بي حين يتنبه إلى فشلي في إخباره بأن السيول قد جاءت إلى حيّنا؟

أنا لا أعلم حقيقةً فيما لو كان التكهن بالأنواء الجويّة هو واحدٌ من مجموعة المهام التي أوكلها إليَّ العمدة، إذ إنه لم يشرح لي طبيعة عملي على نحو دقيق حين قبلت عرضه، لكنني متيقن الآن من أنه لن يغفر لي ذنب التقاعس عن إبلاغه عن هذا الفيضان لو عرف أنني كنتُ الشاهد الأول على قدومه. إنه سوف يؤنبني دون شك حين ينهار حائط حمام منزله عليه مثلًا، ولعله سوف يلتقي بي، بعد أن ينتشلني أحد المارّة من أسفل هذه الأنقاض، فيأتي لزيارتي في المشفى، ثم يصب كامل تقريعه عليّ أو يعمد إلى تهجيري من الحارة بصورة أبدية.

أمدَ رقبتي قليلًا. أحرّك رأسي وما أستطيع من جسدي، فأرى من خلال الفراغ الهائل الذي تركه جدار الحمام أن سيارة دفع رباعي قد ارتطمت بجدار الحمام، وهذا هو سبب انهياره. «لن يصمد الأمر طويلًا»، أفكّر مليًّا وأنا أتأمل طريقة اعتراض سيارة الدفع الرباعي للجدادات التي أرادت أن تشق طريقها إلى شقتي كي تهدم بقية الحيطان وكي تدفنني أسفلها، ثم أفيق على إمكانية أن يحدث الأمر عينه لبقية أهالي الحي، لكنني لا أقوى على النهوض من موضعي كي أشيع بينهم هذا الخبر الصادم، سيتعيّن على سكان الحي انتظار وصول الماء إلى أبواب منازلهم، وجدرانها، حسب ترتيب مواقعهم

في ذلك التسلسل السكني. حتى العمدة، والذي يسكن في نهاية الحي، ينبغي عليه انتظار دوره حتى يداهمه جماد آخر، عربة نقل، جذع شجرة، حاوية نفايات، أو أي شيء كهذا.

«وليذهب ابن الكلب إلى الجحيم»، أنفض صورة العمدة عن ذهني تمامًا قبل مواصلة التمدد في موضعي منتظرًا شخصًا يزيل عنّي كل هذه الأنقاض، وبينما أفعل ذلك، أواصل طرح نفس السؤال الغبي الذي أفكّر فيه كلما حلّت عليَّ مصيبة ما، ترى هل كان المفروض على الكوارث في حياتنا أن تبدأ بنفس الطريقة الفجّة؟ لماذا لا تغير إحداهنّ هذه العادة البغيضة، فتأتي وفق ترتيب مسبق مثلًا، تطرق الباب أولًا، ثم تدلف على استحياء، وتتخبّط في المشي، فتخالها لوهلة غير راغبة في القدوم أصلًا، وحين تجلس إلى جوارك، تفهم من طريقتها في ترك مسافة بسيطة بينكما أنّ القَدر وحده هو ما أرغمها على الحضور، وأنها ما كانت لتختار زيارتك على الإطلاق في حال إن تُرك الخيار لها. سيبدو الأمر لطيفًا، وأكثر تقبلًا، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يحدث على الإطلاق، فكل الكوارث والمشكلات المُقدَّرة لنا سوف تهطل بشكل مفاجئ، وستجلب معها افتراضها المتكرر نفسه، بأننا معتادون على الصدمات أصلًا، وأننا لا نملك حتى حقّ التصنّع بالإصابة بالدهشة، إذ إننا، وبكل بساطة، قد مررنا بتجارب سابقة جعلتنا أكثر جاهزية، لا شيء جديد هنا، شعور الوجع مألوف جدًّا، وبالتالي، ينبغي علينا أن نعتبر كل كارثة جديدة مجرّد امتداد طبيعي ومتوقَّع لأول وجع قد أصابنا.

الوجع الأول، حسنًا، بالنسبة إليَّ، كل شيء بدأ حين خرجتُ للبحث عن الله، الله الذي لم أجد له طريقًا على الإطلاق، ولا أعتقد أنّه في حقيقة الأمر كان ينتظرني. لربما قد خرج من أجلهِ أشخاصٌ كثيرون على غراري، استدلوا بسماسرة البحر نحو الطريق إلى (مكّة)، ركبوا قوارب العبيد بلا أصفاد، بل وتحوّلوا كذلك من دين إلى دين، لكنّ أحدًا منهم لم يُقدّم ذكوريته من أجل الله مثلما فعلت أنا وبقية (الأغوات) أمثالي، نحن الذين أخلصنا القرابين، كل هذا التيه كان حكرًا علينا وحدنا.

لقد سافرنا نحن (الأغوات) في مقتبل العمر، بلا آباء ولا أمهات، فلم يتعهد أيّ راشد برعايتنا حين تقرر الزج بنا في عباب البحر، جميعنا ركبنا القوارب رغم صغر سننا. وإن كانت الصدفة قد تعهدت لي بـ(مونا) كي تحشرني بين ساقيها كلما ارتفع الموج، فهي لم تضمن لبقية الأطفال المخصيين فرصة العثور على شخص آخر مثلها يحيطهم بالعناية كلما اشتدّت وتيرة الخطر.

لقد تعوّد بحر (الحبشة) الذي ركبناه على هدهدة القوارب بلطف، لكنّه، وحسب تنويه ربّان السنبوك، كان يلطمها بقسوة حين يطمئن إلى أن ركّابها قد التزموا بقطع نصف المشوار على الأقل، ولم يتبيّن لنا صدق كلام الربّان إلا حين سقطت أولى سيدات القرية من ظهر السنبوك، وتمنّع بقيّة الركاب عن مد يد العون إليها. «ستجذبكم معها نحو الموج»، هتف الربّان محذرًا بصفته قائدنا، فمضينا دون المرأة كي نشق عباب البحار، وكي تشقّنا صرخة

ابنتها، وربما رغبت واحدةٌ من أولئك النسوة المسافرات معنا في أن تغامر بروحها وتلتقط المرأة لولا أنّ تحذيرات الربّان المستمرة جعلتنا نتسمَّر في أماكننا، ونحكم التشبث بقضبان الحديد حتى لا نؤول إلى نفس مصيرها.

«سكتوها»، قال الربّان حانقًا، حتى نُسكِت ابنة المرأة الغريقة التي أخذت تبكي بصوتْ عالٍ، وأجزم بأنّ حنق الربّان لم يأتِ إلا بدافع رغبته في مقاومة شعوره بالذنب لقاء فشله في انتشال المرأة الغريقة التي أعطته قلادة ذهبية متوارثة كي تركب السنبوك رفقة ابنتها.

لما استوى البحر بعد المرأة الغريقة، تحوّل الربّان من مجرّد النظر صوبي بعطف مصطنع إلى تسديد نظرات الحنق والكراهية؛ ذلك لأن النساء اللواتي على القارب قد اكتشفن فجأة أنهن في حاجة إلى من يبارك لهنّ طريق سفرهنّ، ويروّض البحر العنيد الذي راح يهددهنّ. لا سواعد الربّان المفخخة بالعضلات، ولا خبرته في توجيه الشراع، ولا حتى ذكوريته التي برزت بوضوح شديد جراء تبلل سرواله الطويل بماء البحر، كانت كافية بالنسبة إلى النساء كي يضمنَّ وصولهنّ إلى سواحل اليمن بأمان. وحدي أنا، وبتكوينٍ جسماني لا يوائم الصورة النمطيّة للبطل الشجاع القوي، جلستُ بينهنّ كي أقودهنّ جميعًا صوب الخلاص. بلا قامة فارعة، ومن غير دراية باتجاهات الريح، أوجّه السنبوك دون أن أبرح موضعي، أو هكذا يبدو لهنّ، فيتفادى السنبوك موجات كثيرة كادت أن تغرّر

بنا. نقطع مسافة طويلة نحو (اليمن) كما لو أنَّ كل حركة صائبة يوحي بها الربّان للشراع تجيء بسبب بركة وجودي، وما إن تهدأ ثورة الموج حتى ينصرف الربان إلى مداعبة قلادته الذهبية، والتي علقها على صدره ليس رغبةً في ارتدائها، وإنما كي يحفظها قريبة منه إلى أن تتيسر له فرصة بيعها.

لقد دأب المسافرون يتبركون بيَّ بينما واصل الربّان مداعبة قلادته وهو يسدّد نظراته الحانقة إليَّ. كان يستنكر ببعض الهمهمة تصرفاتنا المثقلة باليأس، لكنه لا يتدخل لفض أيّ شيء منها، حتى عندما تلقمني امرأة غريبة ثديها كي أسد شيئًا من جوعي. لا يُبدي الربان اعتراضًا إزاء أي تصرف غريب، بل يكتفي بإغماض عينيه ورفع حاجبيه ونفض رأسه، ثم يشيح بوجهه على مضض صوب البحر البعيد.

كنتُ في ذلك الوقت أكبر سنًّا من أن تنطبق عليَّ شروط الإرضاع، ولم أعرف السبب الذي جعل (مونا) تسمح بهذا التجاوز على مرأى منها، فهي ما كانت لتمنح النساء الأخريات فرصة مجاورتي أكثر من دقائق معدودة، ناهيك عن الترخيص لامرأة بأن تتلقفني وتحشرني بين ثدييها، لماذا تبدَّل حال (مونا) إذًا حين رأت الموت بأمّ عينيها؟

مثل مدّ أو ربما جزرٍ يجيء بلا تنبيه، تسرَّبت يد المرأة الجالسة بجوار (مونا) كي تحملني صوب الأعلى، وكي ترغمني على التمدّد في كَنفها، فضمّتني (مونا) من ناحية قدميَّ فقط، بصفتها وصيّة

عليَّ، أو ربما رغبة في الاحتماء بي، في حين شدَّتني مُرضعتي حتى ألتصق بثدييها، ولن أدّعي القدرة على تذكّر طعم الحليب الذي تقاطر شحيحًا في فمي وقتذاك، لكنَّ ذاكرتي الخوّانة لا تخطئ ملوحة المذاق، لا سيما وحين تَرطَّب صدر المرأة بالعرق وماء البحر. رحتُ أتجرع السائل الأبيض بينما انشغلتْ مُرضعتي بترطيب شفتيها جراء الشعور بالعطش، وأذكر أننا لم نسافر وقتئذٍ من دون التزوّد بالماء العذب، لكنّه في حقيقة الأمر كان شحيحًا، إذ توجّب على كل الراكبين -ما عداي- أن يقتصدوا في الارتواء منه، بينما أُتيحت لي فرصة الوصول إليه، أو إلى صدر مُرضعتي، كلما رغبتُ في ذلك.

ولعل من الصعب جدًّا تحديد المدة التي أمضيناها في عرض البحر، أو حصر المرّات التي تكرّر فيها استنكار الربّان لتصرفاتنا، فأنا لم أملك القدرة اللازمة على العدّ وقتها، لكن يمكنني الجزم بأنَّ أربعة أيام على الأقل قد تعاقبتْ علينا. كنا نعقد خلال تلك الفترة شيئًا أشبه بالصلح مع البحر وتقلّبات حالته المزاجية، فيثور علينا تارة، ثم يعاود الانسحاب إلى هدوئه تارة أخرى، ولا تهدأ مناوشاته معنا إلا حين يتضرّر شراع سنبوكنا بشكل بليغ، وذلك قبل أن نبلغ وجهتنا بفترة وجيزة.

كان الربّان قد فرغ فورًا من إعلان خبر مجاورتنا سواحل (الحُدَيدَة) حين قرّر البحر أن يستعين بعاصفة عابرة كي يفضّ النزاع الذي امتدّ بينه وبيننا. أراد البحر أن يفتعل مناكفة عابرة كي

ينتصر علينا في نزال أخير، فوجدنا أنفسنا أمام ريح قوية وأمواج عالية. حاولنا التمسك بقضبان الحديد حتى ندافع بشراسة عن حق التزامنا بالسير في خط سفرنا، ورحنا نحتمي بالدعاء حتى نصل بسلام إلى وجهتنا، «لا شيء إلا ما شاء الله.. لا شيء إلا ما شاء الله»، لكن قائمة الصاري تحطَّمتْ بشكل نهائي، وتحطَّمتْ معها كل أمنية في أن يصبح هذا السفر قصة طريفة نتداولها رفقة الكثير من الضحك حين نبلغ اليابسة.

حين سقط شراعنا، ذهب البحر فورًا إلى صمتٍ أخير، لقد سارع بالسكوت، وربما شهق أيضًا، مثلما يفعل الطفل المشاكس حين يدرك فداحة شقاوته، فصار في وسع الربان أن يستنتج خلال ذاك الهدوء المفرط أنه ما عاد قادرًا على إيصالنا إلى غايتنا. ربما لو تبرَّك بي وقتها لما نزل غضب الله عليه، وعلى سنبوكه المتهالك أيضًا، لكنّه لم يعمد إلى الاقتراب منّي، حتى بعد أن تحطم الشراع وبعد أن جعلنا نطفو كيفما شاءت الريح. لقد اكتفى فقط بتمسيد قلادته الذهبية كما لو أنّ ما يحصل هو جزءٌ من خطته المحكمة.

أبحرنا تحت رحمة الرياح الموسمية التي هبّت كيفما اتّفق، وجعلتْ تدفعنا ببطء كي نمضي حسب رغبتها، ونظرًا إلى أننا ما كنا نملك القدرة على توجيه السنبوك، رضخنا لمشيئتها في أن ترشدنا إلى أية يابسة قريبة. كان هاجس (مونا) الوحيد هو ألا ينقص ذاك القدر القليل من طعامها الذي جاءت به من (الحبشة) فيتمكَّن منا داء (الإسقربوط)، أو (البَثع) كما كنا نسميه، أو أن يقبض علينا

لصوص البحر مثلما تقول الحكايات القديمة، فينتهي بنا الحال عبيدًا يُتاجَر بهم (العرب). أما بقية الركاب، فكان هاجسهم، وكما بدا من صلواتهم المتواصلة، هو إقناع الربّ بانتشالنا من ذاك التدرج اللوني، إذ راح لون البحر الأزرق يمتد طويلًا أمام أعيننا.

لقد زاد تودد الركاب إليَّ في تلك الأثناء أكثر من أي وقت مضى. طلبوا منّي أن أحيل دعاءهم إلى الله، دون أن يسألوني فيما لو كنتُ أعرفه أصلًا، أما أنا، فكنتُ أقل عمرًا من مكابدة أيّ هواجس تتعلق بحتمية النجاة أو الموت، إذ إنّي، وباستثناء حذري الشديد من احتمالية السقوط عن ظهر السنبوك، لم أكن أشعر سوى بالوجع الذي لا يخبو بين ساقيَّ النحيلتين.

جلستُ في موضعي ذاك أراقب الربّان عن كثب، وبداخلي ألف يقين من أنّ شخصًا آخر سوف يوبخه على الأضرار التي لحقت بالسنبوك فور وصولنا إلى اليابسة. لعلّه رب عمله، سيتهادى نحوه من بعيد، ثم يتوعد بطرده إن فعلها مرّة ثانية، أو ربما هي أمّي، سوف تظهر من العدم فجأة، فتلجأ دون تفكير إلى سعف نخل كي تنهال به ضربًا على ظهر الربّان ومؤخرته وهي تسأله بحنق بليغ، «ماذا فعلت بالسنبوك؟ ولماذا خرجتم في هذا السفر من دوني؟ ألا ترى أنني تجشّمت عناء المشي من قريتي كي أسافر إلى مكة»؟ فيحاول الربّان بدوره تبرير موقفه، أنَّ لا شأن له بحصر أعداد الركّاب، وأنّ ترتيبات السفر يشرف عليها أحد تجّار نقل المهاجرين من (الحبشة) وإليها، لكنّ الربان سيخفق كثيرًا في فهم الغاية من

سؤال أمي، إذ إنها، وكما هو الحال دومًا، لا تقصد تعنيفه بقدر ما إنها ترغب في الإعراب عن قلقها على ابنها.

ستكون أمّي راغبةً في احتضاني، ومن ثم الكشف على المنطقة الملتهبة بين قدميَّ قبل أن تلتفتَ صوب الربّان كي تسأله دون أن تنتظر جوابًا، «لماذا فعلت بابني كل هذا؟» لكن صلابتها المعهودة لا تسمح لها بالانكسار على هذا النحو، وهذا ما سيحملها على الاكتفاء بعتابه قبل أن تنصرف نحو (مونا) وتعاتبها هي الأخرى لقاء تقصيرها في العناية بي. أما بالنسبة إليَّ، فهي ستقبض على أذني الصمّاء، كما لو كنتُ طفلًا شقيًّا، ثم ستحاسبني على اتّساخ ملابسي والنغاف العالق بأنفي؛ حتى تقول لي بطريقتها الخاصة، «وأنا أيضًا قد اشتقتُ لك يا ولدي».

على أيّة حال، تلاعب بنا الموج يومان أو أقل، فوجدنا أنفسنا بالمصادفة أمام سواحل (اللُّحيَة)، وهي قرية صغيرة تبعد قليلًا ناحية الشمال عن (الحُدَيدَة). كان وصولنا إلى هذه اليابسة التي لا نعرفها أشبه بالبعث إلى الحياة بعد موت مقتضب، إذ لا أحد منّا تصوّر لنفسه مصيرًا يختلف عن مصائر كل الذين غرقوا من ركاب هذا السنبوك قبلنا، حتى الأطفال منّا، والذين جهلوا في بداية الأمر حقيقة ضياعهم، كانوا قد استنبطوا بعد فترة وجيزة وجود كارثة تجلس بيننا، فلجؤوا إلى الصمت عوضًا عن التذمّر والبكاء، ولم تتوافد شكواهم المتعلّقة بالجوع والعطش إلا حين أفشى الربّان أخيرًا خبر نجاتنا.

على المدى البعيد، لَمَحَنا صيّادون محلّيون قد ارتابوا في طريقة قدومنا، لأننا، وكما أظن، كُنّا نتهادى في الأفق كمن يدنو ويبتعد في اللحظة نفسها. لم يعلموا أن الماء كان يؤرجحنا بين خيار الانسحاب أو المجيء، وأننا لا نملك القدرة على المضي قدمًا أو العودة أدراجنا؛ فخرجوا بشكل جماعي كي يستقصوا المسألة، ولم يهدأ لهم بالٌ حتى تبيّنت لهم حقيقتنا، أننا مجردّ نسوة وأطفال تائهين في عرض البحر، ومن بيننا ربّان شاب، يبدو أنّه لم يُحسن مطلقًا تدبّر أمرنا.

انتشلنا الصيادون صوب اليابسة بقوارب بدائية الصنع، وعوضًا عن ركوب البحر رفقة القلق والخوف وجدنا أنفسنا نقطع المسافة الزرقاء بصحبة رائحة السمك النفّاذة. كنا نزاحم الصيّادين في مجموعات قواربهم الصغيرة دون أن نبادر إلى الاحتفاء بخلاصنا، ودون أن يبادروا هم أيضًا إلى السؤال عن الأسباب التي قادتنا إلى (اللُّحيَة) تحديدًا، صمتٌ تامٌّ تغلّب على ذلك المشوار القصير، ولولا تذمّر الأطفال الذي تعامل معه بعض الصيادين بعبارات ملاطفة مبهمة، لمضى ذلك المشهد إلى خاتمته من دون أن يهمس أيّ فرد منّا ببنت شفة.

ربما كان حاجز اللغة هو ما يقف حائلًا بيننا، إذ بدا واضحًا افتقار كلا الطرفين إلى طريقة فهم مشتركة، باستثناء الربان الذي رفض التفوه بكلمة مذ أن هلّ اليمنيون علينا، لكنّ تخوّفنا الجماعي من ظروف اللقاء المريبة تلك، بالإضافة إلى ارتيابنا في الأحداث التي سوف تجيء لاحقًا، كان سببًا أكبر كي نلازم سكوتنا. انفرد

كل فريق منّا بنفسه حتى يشكّك سرًّا في نوايا الآخر، ولا أعتقد أن أحدًا منّا قد أفلح في محو آثار القلق العالقة على وجهه، إذ بدا في وسعي مثلًا معاينة وجه (مونا) وقراءة فزعها من احتمالية أن يغدو هذا المشوار أول خطوة لها نحو طريق العبودية.

لقد كانت تلك أول مرّة أشعر فيها بقدرة التجمّع الإنساني على الانقسام إلى أحزاب، وباحتمالية أن أكون (أنا) واحدًا من (أشخاص آخرين)، فوحدة أهالي القرية وعادتهم في الالتفاف حول أنماط الحياة نفسها كانتا تُشعراني دومًا بنوع فريد من التآخي، كل الذين عرفتهم كانوا ينتمون إلى الأسرة الكبيرة نفسها، حتى حين تحتّم عليَّ التواصل مع أهالي القرى المجاورة، لم أكن أشعر مطلقًا بالحاجة إلى فصلنا إلى (نحن وهم)، رغم تباين اللهجات، ورغم الفوارق الجوهرية بيننا. أعتقد أن السبب في ذلك هو انحدارنا من نفس لون البشرة البني المائل إلى الاحمرار، وقدرتنا على التبسّم في وجه من لا يعرفنا.

أولئك الصيّادون اليمنيون الواجمون، لقد امتزجتْ مشاعر ارتيابنا فيهم بالكثير من انفعالات دهشتنا تجاههم، إذ، وعلى الرغم من أنه لم تكن تلك أول مرة نرى فيها أشخاصًا ببشرة بيضاء مثلهم، إلا أنها كانت أول مرّة نرى فيها (العرب)، ولا أتذكّر أنّ جلودهم كانت ناصعة البياض آنذاك، فهي، وحسب ما أختزل في ذاكرتي، بدت أقلّ ابيضاضًا من بشرة البُخاريين، والذين عرفتهم بعد عشرة أعوام تقريبًا من تلك الرحلة المرهقة. كانت ألوان (العرب) تميل

إلى الحنطة قليلًا، ربما جراء الإفراط في خروجهم للصيد تحت رحمة الشمس، لكنّهم في سائر الأحوال ما كانوا يشبهوننا على الإطلاق، وأستبعد تمامًا قدرة أي حبشيٍ على القدوم إلى هذه الحياة بمثل سحنتهم ولا سماتهم الخارجية.

جلستُ شأني شأن غيري في أحد قوارب الصيد المرتحلة، ورحتُ أتفرّس في هيئة الصيّادين الذين تطوعوا لنقلنا إلى مرفأ القرية. كنتُ أطيل النظر إليهم، وأتأمّل في تفاصيلهم ببله شديد، ثم أزيح أنظاري عنهم كلما شعرتُ باحتمالية أن يتنبّه أي واحدٍ منهم إلى فضولي الممزوج بالفظاظة، ولم تشغلني في تلك الأثناء طريقة وقوفهم في منتصف القوارب أو الحركة نصف الدائرية التي دفعوا بها المجاديف بقدر ما كنتُ أبحث عن ذكوريتهم المتوارية خلف أُزُر طويلة يبللها الماء ويجعلها تقبض على أفخاذهم وسيقانهم.

مذ أن فقدتُ ما بين ساقيَّ وأنا أفتّش في كل الذكور عن شيء ضائع. تستهويني فكرة النظر إلى انتفاخ يجيء مباغتًا كي يذكّرني بما قد كان يومًا ملكًا لي، ولا أدرك مدى كارثيّة النظر إلى تلك المنطقة من جسد أيّ رجل إلا حين يتنبّه الصياد الذي أمامي إلى نظراتي المشاغبة. يتوقف عن التجديف فجأة، يرطن كلامًا لا أقوى على فهمه، ثم يصفعني على جبيني كمن يريد إفاقتي من تصرف غير لائق، فيتوقف الفوج الصغير بمجمله كي يشاهد تداعيات هذا الموقف، ولا يواصل الصيادون تجديفهم صوب وجهتنا القريبة إلا بعد أن يتنمّروا على صاحبهم، ويغرقوا في الضحك بشكل شبه هستيري.

لعلّ (مونا) أرادت أن تقفز وقتها من موضعها كي تثأر لي من ذلك الصياد، ثم تقول له بلغتنا التي لن يفهمها أبدًا، «هذا الطفل قد اختاره الله.. إياك وأن تضربه أيها الغبي»، لكنها لزمتْ الصمت وراحتْ تنظر إليَّ بما يشبه التعاطف المطلق. أظنّ أنّ خوالج قلقها إزاء ارتحالنا مع أولئك الصيّادين قد تمكنتْ منها. رأيتُها بأم عينيّ وهي تُسلّم لعجزها التام، أو ربما كان التعب قد انعكس على وجهها، من منّا يدري، أشك فيما لو كانت تستطيع هي نفسها أن تستوعب جملة المشاعر التي راحت تعصف بها، وأراهن على أنّها قد أدركتْ وقتذاك أنّه ما كان بيدها، أو بيد أيّ حبشي آخر ممن ركبوا تلك القوارب أن يدافع عن نفسه إن ساء الأمر، فنحن لم نملك سوى الاستسلام لما كان ينتظرنا.

حين وضعنا أقدامنا على اليابسة أخيرًا، وانصرف الصيادون إلى غاياتهم، تبيّنت سلامة نوايا الجميع، وتبدّدتْ -حسبما أعتقد- شكوك (مونا) بأنّها كانت تُساق إلى عبوديتها. تفرّق شملنا دون أن يعرب أيّ مسافر منّا عن امتنانه لأولئك الصيادين، ولا حتى بلغة بالإشارة، كما أنّ الربان أخفق في استحضار عبارة شكر يقدمها إليهم، مع العلم بأنّه قد خرج إلى اليمن في رحلات كثيرة، وأَستَبعِد كثيرًا احتمالية جهله بالقدر اليسير من لغة أهلها.

تهاوينا على الأرض كي نحتضن التراب الذي ما ظننا معاودة رؤيته مجددًا، وأخذنا نعبّر عن شوقنا إلى السير على سطحٍ ثابتٍ لا يهتزّ، ولا يشعرنا بالرغبة في الانتفاض كي يسحبنا إلى قاعه. ولما

شعرنا بالكفاية من الطمأنينة، ومن ماء الصيّادين وطعامهم المتروك على اليابسة، اقتادنا صياد عابر إلى جماعة أحباش كانوا قد هاجروا إلى اليمن منذ فترة طويلة.

لا بدّ أن وصولنا إلى (اللُّحيَة) كان متزامنًا مع انتهاء السنة وفق التقويم الحبشي وقدوم شهر (مسكرم)، إذا استقبلنا أولئك (الحبوش) المهاجرون، والذين تبين لاحقًا أنهم من مسيحيي الهضبة، بملابس أعيادٍ ناصعة البياض، ثم قدّموا إلينا الكساء والطعام، وطلبوا منّا أيضًا مشاركتهم طقوس الاحتفاء بأعيادهم الخاصة. إنهم كانوا يخالفون العالم بأسره في طريقة تقسيم شهور السنة، فيوزّعون الأيّام بالتساوي على اثني عشر شهرًا، ثم يخصصون شهرًا جديدًا لاحتواء الفائض من أيام السنة. لقد انتظروا هذا الشهر بصبر شديد، هكذا قالوا، وحين جاء أخيرًا، راحوا يستغلون أيامه القليلة في إقامة الولائم الجماعية والاحتفال والغناء والرقص، فيطربون على صوت الطبل وعزف ربابة الحبشية، ويتغنون أيضًا بروعة البلد التي خرجوا منها:

«أنتِ يا زهرتي.. أنت يا مطلع القصيدة

ها هو الحُسن يجيء مختالا .. وئيدًا يمنح العمر المزيد

ينادي (سليمان).. يدعو (بلقيس) إليه..

وتمتد على الهضبة مزامير (داوود) لنستلهم من الأناشيد أناشيد أخرى

لنحتفي يا جميلة القد بك.. لينمو الحب في وجداننا عيدًا وألقًا

من غيرك للزهر احتفال؟ من أضاف إلى التقويم الجديد شهرًا؟

هي أرض (بلقيس).. وصحوة الحب على الربى

لا أحد سواك يستحق التمجيد يا ابنة (أكسوم)»

لقد لزمني الأمر سنوات طويلة كي أفلح في استخراج هذه الترانيم الأمهرية من أقبية طفولتي، وكي أصحّح الأجزاء الخاطئة منها بالاستناد إلى مصادر بشرية، فعلتُ هذا حتى أبقي على صورة وصولنا إلى (اللُّحيَة) حية، فأنا لم أرغب يومًا في التفريط في ذكرى احتفاء أولئك (الحبوش) بي حين علموا أنَّ الله قد اختارني كي أحرس بيته المقدَّس. إنهم ما كانوا يشاطروننا نفس المعتقد الديني، ولم يفهموا أيضًا لماذا قد يطلب الله منّي أن أتخلَّص من ذكوريتي قبل المجيء إليه، لكنهم اقتادوني للاغتسال على أيّة حال، وأوعزوا إلى فتاة شابة كي تطببني وتنظف جروحي. مشّطوا شعري، أحرقوا العِطر في وجهي، وألبسوني ثوبًا أبيض قد غُزل من نول القطن، ثم وضعوا بعد ذلك أطواق الزهر على

رأسي، ولم ينسوا في نهاية المطاف إطعامي مما تجود به أوانيهم المثقلة بالطجّ الغارق في العسل.

لقد فعل بي المهاجرون (الحبوش) كل هذا على مرأى ومسمع من (مونا) التي لم تعبّر عن أي رفضٍ أو قبول. لعلها كانت قد أدركت وقتذاك أنّ من حقي، وحق أهالي قريتنا على حد سواء، الاستمتاع بقليل من السعادة بعد رحلة الموت تلك، فاكتفت بالجلوس بعيدًا دون أن تشاركنا الغناء والرقص، ودون أن تتوقف عن مراقبة كل تحركاتي طبعًا.

اقتبستْ (مونا) ابتسامة باهتة تزيّن بها وجهها حتى لا تبدو دخيلة على كرنفال الأعياد قطعًا، لكن لم يبدُ من الصعب عليَّ، أو على أيّ حاضرٍ آخر، أن يستنبط عند النظر إليها عدم شعورها بالارتياح إزاء ما كان يحصل، لقد كانت تعتقد أننا نتصرّف بطريقة غير محتشمة.

طال بقاؤنا مع أولئك (الحبوش) مدة ثلاثة أيامٍ أو يزيد، فتشاركنا معهم المسكن والطعام إلى أن جاء وقت رحيلنا، فحزمنا أغراضنا القليلة وبدأنا في المشي صوب (الحُدَيدَة). أذكر أن البعض منهم كان قد تطوَّع للمشي معنا، فرحنا نسافر دون أن نتخفَّف من أجواء الاحتفاء والرقص التي لازمتنا خلال الأيام السابقة.

في الحقيقة، لقد أسهمتْ كثيرًا قصص الحكواتي المسافر معنا والأغنيات الشعبية في تزجية الوقت، فهي لم تشعرنا مطلقًا بعبء المشي، وهذا ما يفسر اقتراب مدينة (الحُدَيدَة) منّا على ذلك النحو

المفاجئ. إذ ما كدنا نعتاد أجواء المرح التي سافرتْ معنا حتى أخبرنا أولئك (الحبوش) المسيحيون عن حاجتهم إلى الالتفاف والعودة إلى حيث القرية التي قدمنا فورًا منها، فتركونا في ذمة الربّان مرّة أخرى كي يتكفّل بإيصالنا إلى ميناء (الحُدَيدَة)، تمامًا كما لو أنه قد أوصلنا بسنبوكه.

قادنا الربّان نحو الميناء، وما إن تأكد من إتمام مهمّته على أكمل وجه حتى سارع بالتخلي عنّا، فمضى في حال سبيله، وانقطعت أخباره عنّا بشكل نهائي.

كان رحيل الربّان بتلك الطريقة مخالفًا لكل المشاهد التي تكوّنت في مخيلتي إبان بلوغنا (اليمن)، إذ خطر ببالي وقتذاك أنّه سوف يقف أمامنا كي يختال بقدرته على انتشالنا من تلك الأمواج، ثم سيبصق في وجوهنا لأنّ البعض منّا قد شكّك، وبصوتٍ عالٍ، في قدرته على تدبّر الأمور. كما كنتُ أعوّل أيضًا على قدومه إليَّ، أجل أنا؛ كي يقول لي متهكمًا، «لم يكن لبركتكَ أي دورٍ في وصولنا سالمين»، لكن شيئًا من هذا لم يحصل مطلقًا، إذ استدار في موضعه بهدوء ثم سلك درب رحيله من دون أن يُقدِّم إلينا ولو عبارة وداع واحدة، ولعلّ الغريب في ذلك الأمر كُله عندما نزع قلادة الذهب التي تخصّه من عنقه ثم ثبّتها على صدري قبل أن يتلاشى بشكل نهائي في زحام المرفأ.

٤

حين وجب على (مونا) أن تُقدّمني إلى (الشيخ قاسم)، كان لا بد لها أن تبدأ باسمي أولًا، «(آدم)»، هكذا قالت، بلا عبارة أخرى إضافية، ودون تمهيد مسبق، فأطبق صمتٌ ثقيلٌ بينهما كما لو أدركا فجأةً مدى سخرية الموقف، ولولا طبيعتي البشرية، وعدم مقدرتي على سبر أغوارهما، لأمكنني سماع الضحكة المكظومة داخل كل واحدٍ منهما، ولأفلحتُ أيضًا في اقتناص السؤال الذي لربما طرأ على ذهنيهما بشكل فردي، لكنّه حمل نفس الطابع الفكاهي: ترى كيف لشخصٍ مخصي ومسلوب الذكورة أن يحمل اسم الرجل الذي أنجب الحياة بأسرها؟

وقفتُ بينهما في ذلك النهار؛ كي أراقب معاهدة تسليمي وتسلُّمي، إذ حسب توصيّة أمّي المستمدّة من توجيهات الرجل الذي زار عُشتنا، كان ينبغي على (مونا) أن تُسلّمني لشيخ الجامع الكبير إبان وصولنا إلى (الحُدَيدَة)، و(الشيخ) بدوره سيتكفّل بترتيب الأمور المتعلقة بسفري إلى (مكّة)، وهذا ما حصل فعلًا،

فوجدتُ نفسي داخل قرية كبيرة (عرفت لاحقًا أنهم يصفونها بالمدينة وليس القرية)، ومحاطًا بمبانٍ غريبة صُنعت بطوب آجر تكسوه النورة البيضاء. كانت تلك هي أوّل مرّة أرى فيها مساكن لا تصنع من الحشائش اليابسة أو جريد النخل. رحتُ أنقل نظري كي أتأمل المباني، وأتأمّل قدرتها على الارتفاع إلى ما قد يتجاوز الطابقين.

لقد بدا العالم خارج قريتنا متمردًا على الصورة النمطية للحياة، ورافضًا لمجاراة كل ما من شأنه أن يكون مجرّد أمرٍ اعتيادي. شعور دائم اعترانا، أو ربما أخذ يتملّكني بشكل خاص، أن ثمة مؤامرة كونية كانت تُحاك ضدنا، نحن الذين خرجنا فورًا من كينونتنا، وهذا ما أذكى بداخلي نار الرغبة في اكتشاف الفروقات بين قريتنا المنطوية على ذاتها والعالم الكبير الذي يطل على البحر.

لقد جعلني فضولي، أو ربما خوفي من المجهول، شديد الإصرار على ملامسة كل الجدران التي راحت تحف الطريق الممتدة بين مرفأ (الحُدَيدَة) والحارة التي يسكنها (الشيخ قاسم). لم أرضخ طوال مشوارنا لمحاولات (مونا) في شدّي بذراعي حتى نعجّل بالسير. كنت أتحسّس بلهفة طفل التاسعة، صلابة الطوب الذي لم يعرف يومًا معنى أن يطوقه الليف المستخرج من الأشجار، وأباشر بانتهاك حُرمة المساكن الواقفة جنبًا إلى جنب، كما لو ما كنتُ أخشى توبيخ (مونا)، وكما لو ما كنتُ محيطًا بالأعراف السائدة في قريتنا الصغيرة، والتي تقتضي عدم المساس بجدران الحشائش؛ نظرًا إلى أنّها، وكما

يُقر أهالي قريتنا، هي وحدها ما تكتم أسرار المساكن وتنفرد بحفظ عفّتها.

أنا متأكدٌ من أنني قد هتكتُ عرض خمسين بيتًا يمنيًّا أو أكثر في ذلك المشوار، لقد لمست جدرانها بشغف زائد، ولم يكن في وسع أيّ واحدٍ من أهالي (الحُدَيدَة) أن يدينني بشيء على الإطلاق، فلا الزمن قد دفع بي إلى سنّ البلوغ وقتها، ولا أنا الذي كنتُ أملك عضوًا ذكريًّا يُقيدني بفداحة أخطائي.

ربما كنتُ على يقين تامٍ يومذاك، وبالاستناد إلى معاينتي البصرية، من أن أبنية (الحُدَيدَة) تختلف كليًّا عن كل ما عرفناه من مساكن في قريتنا الصغيرة، فهي، وفي أقل تقدير، ما كانت تتّصف بأسطح مخروطية تندفع نحو السماء بواسطة عمود خشبي نسميه (القرعينة)، لكنني رغم يقيني كنتُ في حاجة إلى ملامستها كي أتأكد بشكل قاطع من قدرة جدرانها السميكة على دحض مرور الأصوات، والرؤية أيضًا، إذ لم يكن من المعقول أن تتراص بعضها إلى جوار بعض بتلك الطريقة الحميمية دون أن تتعهّد لأهلها بعدم فضح أسرارهم.

أُثبِّت جانبًا من رأسي الصلبة والعنيدة، حسبما تصفها (مونا)، على متانة أحد جدران المدينة، لكن لا شيء يتهادى إلى مسامعي، فأتيقن من قدرة البيوت اليمنيّة على كبت الأصوات بشكل تام، وهو ما يعني قدرتها على مواراة تأوهات منتصف الليل والهمهمات الغريبة أيضًا، وأقصد هنا تلك الأصوات التي اعتاد صغار قريتنا سماعها

كلما تسللوا من مساكنهم في جنح الليل، الأصوات التي تبيّن لاحقًا أنّها مجرّد أجزاء من طقوس مضاجعة حميمية بين رجالات القرية وزوجاتهم.

يتباهى طوب المدينة بصون خصوصية أهلها، إنّه صديقٌ في أغلب الظنّ غير خوّان، وبالتالي، لا أستغرب قدرته على تورية الكلام الذي يدور بين (مونا) و(الشيخ قاسم) حين دعانا الرجل إلى منزله وأغلق خلفه الباب. أخذ يتحدّث مع (مونا) برصانة شديدة، وهو يخبرها، حسبما فهمت، أنّ دورها قد انتهى تقريبًا. أما بالنسبة إليَّ، وبسبب جهلي بفحوى العبارات الأمهرية التي أخذا يتبادلانها، فقد انصرفتُ عن محاولة استيعاب ما كان يدور بينهما، ورحتُ أنبّش في جدار منزل (الشيخ قاسم) عن مزيد من التفاصيل.

أضع أصبعي في أحد فجوات جدار المنزل. كان الطوب الأحمر يترك لونه على أصابعي كلما توغّلت في الفجوة أكثر، يفعل ذلك بانهزاميّة فَرج يصبغ عضوًا ذكريًّا بدماء البكارة، ولا أتبين مبالغتي بالغوص في أعماقه حتى تشدّني (مونا) إليها، بأذني الصمّاء هذه المرّة، فيثني (الشيخ قاسم) على صنيعها بأمهرية ضبابية. أعتقد أنّه كان يقول لها كلامًا جادًّا حول ضرورة إرغام الصغار على الانضباط قبل أن يبلغوا سنّ الرشد، فمرحلة الطفولة المتأخرة تقتضي حزمًا شديدًا كي يكبروا وهم مجبولون على الطاعة، هذا ما أوحت به سبّابتهُ التي أشار بها إلى صدغه، وحركة أصابعه التي كشفت أيضًا عن رغبته

في فتل أذني بقوة أكبر، لكن من قال إنّي قد استسلمتُ له في تلك المناكفة المقصودة؟ واظبتُ على انتهاك حُرمة جداره بتحسّس الشق الذي توسّع ليصبح بحجم عقلة الأصبع، وكلما زاد (الشيخ) من وتيرة فظاظته، غاصتْ أصابعي في جداره أكثر، يبالغ في غلظته، وأبالغ في الإيلاج، كلانا يرمق الآخر بازدراء، لكنّي متأكد من أنني قد انتصرتُ عليه في ذاك النزال المحتدم تقريبًا.

وحين انتهى الحديث بينهما، منحتني (مونا) حضنًا مليئًا بشيء من الدفء العميق ثم رحلتْ، تركتْ آثار أصابعها على كتفيَّ وظهري بعد أن اطمأنّتْ إلى وفائها بالوعد الذي قطعتهُ لأمّي، ولم توجّه إليَّ أيّ عبارات وداعية قبل أن تمضي في حال سبيلها، أو تتعهّدني بالتوجيهات الصارمة مثلما هي عادتها، إذ إنها، وحسب اعتقادي، أرادتْ المسارعة بالرحيل حتى لا تهز لحظات الوداع صلابة هيئتها الخارجية. ليتها تمهّلت قليلًا حتى تمنحني فرصة توديعها، أو فرصة الجزم بأنها ما كانت راغبةً في التخلّص منّي كما فعلتْ أمّي، لماذا تحتّم عليها الانسحاب من مشهد فراقنا ذاك دون أن تُغلق باب التأويلات في وجهي؟

غادرتْ (مونا) رفقة يقينها التام بعدم مقدرة أيّ لقاء مستقبلي على أن يجمعني بها، وهذا بخلاف كل مرّة كانت تولي فيها ظهرها إليَّ كي تستسلم للنوم بعد سفرٍ طويل، فتفيق بعد راحة قصيرة كي تلتفت صوبي، وتطمئن إلى أني غارق في السبات مثلها. إنه، ومنذ تلك اللحظة تحديدًا، بات من الواجب عليها أن تبحث عن طفلٍ

آخر يبقي جذوة الأمومة متقدة داخلها، وبات لزامًا عليها أن تكابد مشقة التفكير في طريقة ملائمة تواجه بها عتاب شقيقتها، والتي ستدينها دون شك بجُرم التخلّي عنّي بعد أن اعتادت وجودي هي الأخرى.

أحاول الإفلات من قبضة (الشيخ قاسم) حتى أهرول صوب (مونا) وأستمهلها، لكن صاحب الجدار المُغتَصَب لم يكن مستعدًّا للتخلّي عن اليد التي عبثتْ طويلًا في شقه الصغير. يجذبني بقسوة نحو الداخل، دون أن يتأكد من أنّ (مونا) رحلت فعلًا، ثم يقودني صوب حجرة جانبية داخل بيته المتفرّد بفناءٍ داخلي فسيح، وفي الحجرة، يقوم بخلع ملابسي دفعة واحدة.

هذا شعورٌ مألوفٌ جدًّا، إنني أُعرّى مرّة أخرى دون إرادة منّي، وبلا تبرير مسبق، ما هو العضو الذي سوف أخسره الآن؟ يوقفني (الشيخ) أمام مرآة صغيرة دون توضيح، المرآة معلقة بالجدار، ولا شيء يستر انعكاسي. أضع يد الخجل بين قدميّ كي أستر التشوّهات التي تدين أمّي وقابلة القرية، لكن ما الفائدة من مواراة الشيء الغائب أصلًا؟ ولماذا قد أظن أنّني على وشك خوض تجربة إخصاء أخرى، رغم أنّي قد استنفدتُ جُل مدّخراتي من الذكورة؟

كانت تلك هي أول مرّة أرى فيها جسدي على ذلك النحو الجريء. افتقار قريتنا إلى المرايا والسطوح العاكسة كان يهبني القدرة على الاختفاء من نفسي، والتهرّب من رؤية الجسد النحيل والضارب إلى السُمرة، فوجدتُني قصيرًا، هزيلًا، منكمشًا على ذاتي، وبقوامٍ لا

يختلف كثيرًا عن قوام طفلٍ في الخامسة. وقفتُ مستسلمًا بين يديّ (الشيخ) بينما أصابعه تنسدل بهدوء، تمامًا كما يفعل ماء الجدول على رِقّة صخرة سوداء، فتنكشف ندوبي الملتئمة بشكل شبه كُلي.

بإصبعه الوسطى غاص (الشيخ قاسم) في فتحة فرجي الأمامية، لربما أراد اختبار صدق وجودها، فشعرتُ بالوجع يأتي مباغتًا وعنيدًا، أكثر من كل وقتٍ مضى، ووثبتُ نحو الخلف بطريقة لا إرادية حتى أتخلّص من الألم، لكنّه شدني إليه بيد قويّة لا تلائم رجلًا في مرحلته العمرية، ثم عاود سبر أغواري بنشاط أكبر. لقد فتّشني كما لو كان ينتقم منّي بسبب ما فعلتُ بجداره، ولم يعاود استرجاع إصبعه إلا حين سالت خيوط البول على كفّه، وصنعتْ نهرًا صغيرًا على ساقي.

استشاط (الشيخ) غضبًا إزاء تصرّفي. هذه المرّة لم أتعمّد التبول على شخص بالغ كي أعبّر عن حنقي، لكنّ (الشيخ)، ورغم براءتي، قادني نحو حجرة ضيقة تفوح منها رائحة الصُّنان، ثم حبسني فيها فترة طويلة. من خلف الباب، راح يقول لي كلامًا طويلًا بالأمهرية التي لا أعرفها، فعهدتُ لنفسي مهمة الاستناد إلى إحدى الحيطان الخشنة، وتأمّل تفاصيلها. لقد شغلتُ نفسي بتأمّل تفاصيل جدران الحجرة بينما كنتُ أنتظر (الشيخ) كي يفتح الباب الموصد، ويسمح لي بالخروج، أو يعيد إليَّ ثيابي على أقل تقدير، لكنّ (الشيخ) تمادى في عقوبته، ولم يعمد إلى وضع حدّ لمعاناتي إلا حين افترشتُ الأرض الرطبة مُعلنًا استسلامي.

بكيتُ وقتها، ورحتُ أصرخ متأسفًا، ففتح الباب بعجل ثم دخل إلى الحجرة ليتلقفني. شدّني بساعدي كي يرغمني على النهوض، ثم راح يستنكر بنفس الأمهرية خيوط البول التي لا زالت عالقة بي:

- غبي..... أنت غبي!

هذا هو جُل ما أمكنني فهمه من مجمل عبارات تأنيبه، والتي جاءت مطوّلة كي تدلّل على إخفاقي في إنجاز أمرٍ بديهي. راح يشرح لي مقصده بلغة الإشارة، فقرفص بدوره على مساحة بيضاء في منتصف الحجرة تحوي فجوة عميقة في قلب الأرض، وجعل يحرّك يده أسفل أليتيه؛ كي يُفهمني أن هذا المكان الذي اجتمعنا فيه لم يكن سوى حجرة خاصة لقضاء الحاجة، عرفتُ لاحقًا أنها تسمى بالحمام، وأن الغاية من وجودي في هذه الحجرة هي الاغتسال وتنظيف جسدي.

عاود (الشيخ) جذبي بخشونة أكبر هذه المرّة، تناول دلوًا صغيرًا من مسافة قريبة، ثم انحنى لصب الماء على النصف السفلي من جسدي. لقد فعل ذلك بحزمٍ بالغ، مؤكدًا بنفس الأمهرية غير المفهومة على ضرورة تقيّدي بعادات أهالي هذه المدينة، والتي تستلزم قضاء الحاجة داخل البيوت، لا خلف الأشجار، ولا قرب المستنقعات المائية، فبذلتُ جهدًا مضاعفًا في محاولة اقتناص أكبر قدرٍ ممكن من الكلمات التي تخرج من فمه، وحين رفع رأسه نحوي، كمن يدرك بشعورٍ ما داخلي أنّني لم أكن أفهم ما يقول،

لمح تعابير الحيرة على وجهي، وهذا ما دفعه إلى تهجئة الكلمات ببطء:

- حمّام.. هذا حمّام.. اسمه حمّام.. حمممممماااام..

قام (الشيخ) بغسل جسدي وتنظيفي. ولما تيقن من زوال البول وآثار السفر عن أطرافي المتباينة السُّمرة، صحبني نحو الخارج حتى نصبح مجددًا، وبالتراضي التام، في نفس الحجرة الفسيحة التي شهدت لحظة انتزاع ملابسي. تهادى (الشيخ) صوب زاوية قريبة وجلب لي مجموعة من الثياب لم تكن موجودة في موضعها حين دلفتُ إلى الحمام. لعلَّه استغلّ فرصة وجودي في الحمام كي يجلبها من مكان قريب، لكنّ هذا ليس بالأمر المهم حقًّا، إذ إنني، وبإشارة يدٍ منه، شرعتُ في ارتداء البعض منها.

انزلقتُ داخل ثوبٍ فضفاض بعض الشيء، فامتدتْ يدا الرجل المغضنّتين بالعروق لترغماني على إحكام تثبيت أطراف الثوب من ناحية الكتفين، وهذا ما جعلني أجزم بأنها لم تكن المرة الأولى التي يعاون فيها طفلًا مثلي على الاغتسال وتبديل الملابس. «لا بد وأنه قد فعل الأمر عينه مع أطفال مخصيين غيري»، أفكّر في ذلك وأنا أنتظر اللحظة التي يستعيد فيها كلتا يديه من أسفل ثوبي؛ لكن انتظاري يطول حتمًا، وهذا لأنه في حاجة إلى بعض الوقت كي يلفَّ إزارًا داخليًّا حول خصري ويعقد أطرافه بطريقة تمنعه من السقوط.

بعد إسهابٍ مبرّر، غدتْ المسافة شاغرة بيننا، أقصدني أنا و(الشيخ)، فانتصب بقامته مبتعدًا بينما تراجعتُ بدوري خطوتين

إلى الوراء. رأيته يتأمل صنيعه بشكل مطوّل، ينظر إلى هيئتي الجديدة، أو ربما يمتدح نفسه داخل نفسه، ثم يقتبس ابتسامة تنم عن الرضا، لكنه، وبعد إطالة النظر إليَّ، يعاود الاقتراب منّي وينزع قلادة الذهب التي ثبّتها ربّان السنبوك حول رقبتي. «حرام»، يهتف دون تبرير إضافي، ولا يكترث لاحتمالية أن أثور لقاء تصرفه هذا، مع أنّي لم أكن لأقدم على أيّ اعتراض أصلًا، فيخبئ القلادة في جيب ثوبه العلوي، ويخبّئ معها بحر (الحبشة) وسنبوك العبيد وذكرى الربّان ورحيل أمّي وخيال (مونا) التي رحلتْ أيضًا.

٥

في وسع أيّ شخصٍ أن يكوّن انطباعًا صحيحًا عن (الشيخ قاسم) بمجرّد النظر إليه مرّة واحدةً فقط؛ إنه شديد الوضوح في تصرفاته، وفي كلامه أيضًا، لا يتصنّع ردود الأفعال، لا يتجاذب أطراف الحوار أكثر مما ينبغي، ولا يتبنى أيّ سلوكٍ من شأنه أن يتعارض مع اللحظة الراهنة. من المرّة الأولى سوف تفهمه جيدًا، وسوف تنجح في التنبؤ بأقواله وأفعاله.

خلال عام واحد فقط من العيش في بيته، كنتُ قد تمكّنتُ من تلخيص حياته على نحو دقيق، وكنت قد أفلحت أيضًا في التعرّف على الأهداف الدنيوية التي يسعى إلى تحقيقها، هو يعيش فقط من أجل الله، يأكل من أجل الله، يشرب من أجل الله، يصادق الناس من أجل الله، ويُعرض عنهم أيضًا من أجل الله، لا شيء مما يفعلهُ يمكن أن يخرج عن هذا الإطار الإلهي، بل وقد عرفتُ عنه أيضًا أنّه ما كان يضاجع زوجته إلا مرّة واحدة كل شهر، وهذا كي يمنحها حقها الشرعي حسبما أوصاهُ الله.

إنني لم أجد مبررًا للوضوح الزائد في تصرفات (الشيخ)، لهذا جعلتُ أتعاطى معه، وفق نهجه ذاك، وحسب رؤيته الانتقائية لما يريد الله منهُ ومنّا. لقد كان هذا هو حال (الشيخ) أيضًا مع الجيران ومع طلاب الكُتَّاب الذين يقوم بتدريسهم. كنا نستجيب لمطالب (الشيخ) أو نُعرض عنها بالاستناد إلى أقرب دليل شرعي، ولا نشد حبل التعنت معه أو نرخيه إلا بعد سجال ديني ينتهي بانتصاره دومًا.

لا أذكر مطلقًا أننا قد حاولنا ذات يوم، ولو من باب المزاح، التشكيك في تصرفاته؛ إذ إنَّ الهالة التي منحها لنفسه كانت تُملي علينا ضرورة الانصياع لتوجيهاته حتى لو جاءت مخالفةً لرغباتنا، فهذه التوجيهات، وكما كان يُصرّ دائمًا، هي من وصايا الله، يعيد صياغتها لنا كي نستوعبها على النحو الصحيح، وبالتالي، يحق له شرعًا أن يتطفل على حيواتنا، وأن يُقرر لنا ما يجب الأخذ به، وما يجب الإعراض عنه، دون أن نحصل على حق معاملته بالمثل، أو حق سؤاله على أقل تقدير: لماذا لا تنجب أطفالًا رغم أنكَ متزوج؟ ألم يؤكد لك الله أنّهم زينة الحياة الدنيا؟

كان (الشيخ) في أواخر الستينيات حين تركتني (مونا) أمانة في عنقه، رجلٌ هزيل بثوب أبيض صوفي وعمامة بيضاء لا تفارقه كلما ظهر في الأماكن العامّة. قد تخالهُ في بادئ الأمر حبشيًّا هاجر إلى اليمن منذ زمن بعيد، لا سيما حين تتأمل سمرته الفاتحة والمائلة إلى الاحمرار، وتصغي إلى الأمهرية الصرفة التي يرطن بها، لكن ما

إن يتحدث إلى أهالي مدينته، أو يُشمّر عن ساعديه بغرض الوضوء، حتى تظهر هويتهُ الحقيقية، مجرّد رجلٍ يمني آخر ذي بشرة بيضاء قد اكتوتْ أطرافه بلهيب الشمس وقد اكتسب لغة (الحبوش) لأنهم كثيرون في (الحُدَيدَة)، ولأنه يتعاطى معهم بصفة دورية.

(للشيخ) صورة نمطية لم تتغيّر طوال معرفتي به، وقد ظلّ محافظًا عليها حتى فرّقتْ الأيام بيننا. أذكر أنني كنتُ أقف أمامه بصبرٍ دائم وبالٍ طويل؛ ليس بغرض الاستمتاع بما يوجههُ إليّ من تقريع وتأنيب، وإنما كي أتفرّس في ملامحه، وكي أستنكر كثافة لحيته الرمادية، والتي لا تتناسب إطلاقًا مع شاربه الحليق.

عشتُ تحت وصايته سبع سنوات متتالية، كنتُ أتعلم فيها اللغة العربية بصفتها مطلبًا ضروريًا تشترطه الحكومة السعودية لقاء الالتحاق بجماعة الأغوات، وكذلك أمضيتُ معظمها في حفظ القرآن وتلقي التعاليم الدينية التي بدتْ صارمة بعض الشيء، أو ربما أكثر ملاءمةً لطبيعة عمل الأغوات التي تقتضي قدرًا عاليًا من الزهد والانضباط. كنتُ أتمرّس أثناء إقامتي في اليمن على قتل (الشيخ) في رأسي مثلما أتمرَّس على التعلّم، فأشحذ السكاكين في مُخيلتي بالتزامن مع كل نوبة غضب تجتاحه، ثم أسرح في تصوّر ردود أفعاله حين أغرز السكاكين في ظهره بطريقة مراوغة، لكنني سرعان ما أفيق من هذه الخيالات دون أن أدفع السكين داخل ظهره بقوة أكبر، ودون أن أتأكد من قَتله بصفة نهائية، إذ كانت يد (الشيخ) تجيء دائمًا قبل أن تكتمل خيالاتي، فترتطم برقبتي

بقوة -هو لا يحب الصفع على الوجه- ثم تُعيدني إلى الواقع بالقوة الجبرية.

طريقة (الشيخ) المفاجئة تلك في إيقاظي من خيالاتي كانت دائمًا ما تضطرني إلى إرجاء محاولة قتله حتى احتشاد جماعي قادم، فأترقّب إحدى جلسات الكُتّاب التي يقيمها بشكل دوري من أجل تلاوة القرآن وتدارس الدين، ثم أتخيّل نفسي وأنا أنهض فجأة، وأمام الملأ؛ كي أغمس في بطنه نصل سكين آخر، فتسقط أحشاؤه أمام عينيه، تمامًا مثلما تسقط كلمات العتاب التي يخبئها في جسده المكتظ بالحنق، ولكن هل كان سيذهب إلى الجحيم لو أني قتلته؟ أم أن الله سيصنع من أجله درب نجاة آخر، فيلتقي (مونا) في طريقه، ويضع يده في يدها، ثم يقودها، بصفته العارف بكل شيء، وبصفتها المرأة الخيّرة الوحيدة التي أعرفها، إلى الطريق الراحل صوب الجنة؟

لم أكن أشعر بتأنيب الضمير كلما استيقظتُ من خيالاتي الشريرة تلك؛ ولم يكن يراودني أيّ شعور وقتها بأن من الواجب عليَّ توخي الحذر وعدم الوقوع في نفس الخطأ مرَّة ثانية، فأنا لم أعتقد أن في وسع هذه الخيالات أن تقودني إلى مخاطرات غير مدروسة، حتى عندما يوسوس إليَّ شيطانٌ رحيمٌ بأن أتراجعَ عن محاولاتي تلك، كنت أفعل عكس الصواب تمامًا، وأعجّل باستحضار (الشيخ) في عقلي كي أوسعه ركلًا وضربًا. تكرّرت تلك الخيالات لثلاث سنوات أو ربما أكثر، حتى قرر (الشيخ قاسم) أخيرًا أن يتكفّل برعاية صبيّ يمني في نفس عمري. كان الصبي، والذي عرفتُ

لاحقًا أن اسمه (محسون)، من أبناء عمومة (الشيخ قاسم)، توفي والداه، فانتقل للعيش في كنف (الشيخ) المُدرَّب على تنشئة الفتيان إلى أن تتيسر له فرصة السفر، فيتحوَّل إلى العيش لدى أقرباء له في (الحجاز).

تحالفتُ أنا و(محسون) كي نستدرج (الشيخ) إلى خيالاتنا ونقتصّ منه بطريقة جماعية. لأكثر من مرّة جئنا بـ (الشيخ) إلى أذهاننا، وصلبناه في صورة المسيح، ثم رحنا نرميه بالحصى والحجارة وفضلات الماشية. وحين لا يفلح الوجع في القضاء عليه، كنا نُحرّره من قيوده ثم نطلب منه الهرب، فنراه يهرول بصعوبة صوب الميناء، منكسرًا، ذليلًا، بينما نشرع بدورنا في مطاردته بتباطؤ متعمّد. نقوده إلى البحر، في خيالنا طبعًا، والذي ينشق بدوره إلى نصفين مثلما يحدث في القصص القرآنية التي يرددها على مسامعنا، فنطيح به أرضًا، ثم نثبّته بإحكام، ونبصق في وجهه قبل أن نُقفل عليه كلتا ضفتيّ البحر ويموت غرقًا.

وكما لو أنّ هذه الخيالات لم تكن كافية للتشفي منه، كنا نحتفي في الواقع بآلام (الشيخ)، لا سيما حين تتهادى إلى مسامعنا أصوات أنينه تحت وطأة الوجع. كان (الشيخ) قد تعرض لمجموعة من الوعكات الصحية بعد عدة أعوام من قدوم (محسون)، فتعوَّدنا التباطؤ في تلبية نداءاته وعدم الذهاب إليه إلا بعد أن نتقاسم بضعة نكات تتمحور حول الطريقة التي ينادينا بها. ندخل عليه، فنراه يئنّ متوجعًا، «آآآدم.. آآآآآدم»، يتكئ على ناصية الأحرف بلسان

أرهقه التعب، نضحك في دواخلنا، لعل واحدًا منّا يفشل في كبح الابتسامة، لكننا نفلح بطريقة أو بأخرى في كبت مشاعرنا.

ورغم مقدرتنا على تصنع الطاعة، كان (الشيخ) يُديننا دومًا بالجحود كلما لبينا نداءه، ويتهمنا بعضّ اليد التي انتشلتنا من الأزقة، ثم يطلب منّا جلب كأس من الماء له أو خِرقة ساخنة أو طَسْت للتقيؤ أو أيّ شيء آخر يخفف به وطأة أوجاعه، فنمتثل لأمره في مشهد بات يتكرر مرة واحدة على الأقل أسبوعيًّا، لأكتشف وقتها أن حالة (الشيخ) الصحية تتداعى بشكل سريع.

بعد فترة طويلة من الآلام المتقطعة، توقف (الشيخ) عن الإمامة والخطابة والتدريس في الكُتّاب. كنا قد اضطررنا إلى حمله ذات مرّة إلى المنزل بعد أن سقط مغشيًّا عليه أثناء إحدى خطب الجمعة، فكانت تلك هي آخر مرة يخرج فيها من منزله. أذكره في ذلك اليوم حين أخذ بتلابيبنا واحدًا تلو الآخر، أنا و(محسون)، وذلك بعد أن اضطجع بشكل كامل على فراشه، ثم همس في أذن كل واحد منّا، «إنني أعرف كل شيء»، فأصابنا الذهول وقتها. ربما لم يكن هذا ما قاله بالفعل، إذ بدا من الصعب على كلينا فهم كلامه الممزوج بالكثير من الوهن، لكن راجحة أن يكون الرب قد كشفَ له بطريقة ما بعضًا من خيالاتنا قد كانت الدافع الحقيقي وراء توقف (محسون) عن اغتيال (الشيخ) في خيالاتنا.

كان ذلك أيضًا هو اليوم الذي قرّر فيه (محسون) أننا لم نكن نتصرّف حسبما تقتضي أعمارنا. «نحن في السادسة عشرة من

عمرنا»، قالها كي ينفي عن نفسه شُبهة التورّط في سذاجة الأطفال، فعلمتُ وقتها ما معنى أن يغدو المرء مراهقًا. إن المراهقة ليست مجرّد كلمة يستعيرها (الشيخ قاسم) للدلالة على النزق وسوء التصرف، بل هي انصراف الشخص إلى كونه أنانيًّا، ومحاولته البحث عن استقلاليته بحجّة أنّه قد خطّ شاربه وأنّه قد ازداد طولًا.

برعونة مراهقٍ حبشي، واظبتُ على اقتياد (الشيخ) نحو صورنا الذهنية. كنتُ أعلم يقينًا أنَّ (الشيخ) هو نفسه من كان يرغب في مُجاراتي في تلك المغامرات الجامحة، وهو نفسه مَن كان يخطط لها. يتعمّد استثارتي بتقريعه المتواصل، فآخذه كل يومٍ في رحلة عذابات أستلهمها من قصص الأنبياء التي عرفتها من الكُتَّاب. مرّة أرسل (الشيخ) إلى طوفان، ومرّة أحبسه في بطن حوت، ومرّة ألقي به في بئر عميقة، فأستنتج لاحقًا أنني كنتُ، بطريقة أو أخرى، أمنح (الشيخ) بُعدًا آخر لواقعه، وأسمح لموروثه الديني أن يتمدّد كثيرًا حتى يستوعب احتمالية أن يكون هو نفسه مجرّد نبي آخر يتم تعذيبه على أيادي قومه. فعلتُ هذا بإتقان شديد، ولم أشعر بالذنب أو الخوف مما قد تصل إليه الأمور، أو من حالة (الشيخ) الصحيّة، والتي راحت تتدهور بشكل متسارع.

لقد واصلتُ اصطحاب (الشيخ) إلى خيالاتي وهو في أسوأ مراحل مرضه، بينما انصرف (محسون) بدوره إلى نوع جديد من الخيالات التي تشعرهُ بالنشوة. كان قد أسرّ إليَّ (محسون) ذات يومٍ بأنّ هنالك طريقة أخرى للانفصال بشكل مؤقت عن الواقع، وهي

لا تستلزم استحضار (الشيخ) إلى مشاهد القتال ومسارح الدم بقدر ما تقتضي التفكير في مفاتن النساء ومداعبة (ذلك الشيء) الذي بين القدمين. أذكره لما راح يوضح لي وهو يمرّر يده فوق ملابسه، أنّ جُل ما ينبغي عليَّ فعله هو فرك (ذلك الشيء) سريعًا كما لو أنني أريد نزعه، فأخبرته أنّني لم أفهم مقصده، واكتفيت بالاختباء خلف جهلي المصطنع دون أو أوضح له، رغم أننا قد تقاسمنا العيش في الحجرة نفسها قرابة أربع سنوات، أنني لا أملك ما يشبه (ذلك الشيء) أصلًا، وأن وجود أو غياب (هذا الشيء) هو ما يصنع الفارق الجوهري بيننا. تكررتْ محاولات (محسون) لإقناعي، وتكررت ادعاءاتي بعدم الفهم، فاستشاط منّي غضبًا ذات مرّة ثم بدأتْ تدبّ الخلافات بيننا.

في البداية نشأ بيننا نزاعٍ صبياني، ظاهرهُ خلافاتُ تقليدية مثل تلك التي تشتعل عادةً بين الأشقّاء، وباطنه حنقٌ جماعي من انفراد كل واحدٍ منّا بخيالات تخصّه وحده. لعلّي أنا من كان يضرم النار بيننا في تلك النزاعات، وهذا بسبب عدم مقدرتي على الصعود إلى خيالات (محسون)، وإدراك طبيعة النشوة التي لطالما كان يتحدّث عنها، لكنّ (محسون)، وفي نهاية المطاف، توصّل إلى حل وسطٍ من دون أن يطلب استشارتي بشأنه قطعًا، وذلك بأن راح يستلقي إلى جواري كي يداعب (شيئه) من وراء ثيابه، ودون أن يُظهره ليّ، فصار بمقدوري النظر إلى تعابير وجهه والإنصات إلى كلامه وإلى العبارات الوصفية التي كانت تقوده بشكل كامل -وتقودني بشكل جزئي- إلى خيالاتٍ جامحة.

إن حاجة (الشيخ) إلى ملازمة فراشه بشكل متواصل، ومن قبل ذلك تنازله عن إمامة المسجد إلى أجل غير مسمى، هو ما منحني أنا و(محسون) القدرة على الانفراد بذواتنا لفترات طويلة. كنا ننزوي في حجرتنا المشتركة كل مساء كي ندعو نساء المدينة إلى خيالاتنا الآثمة. لا واحدة منهنّ اعتذرتْ عن الحضور. لقد جئن جميعًا حسب المواصفات التي نحفظها عنهن. أما اللواتي ما كُنا نعرف ملامحهن، فقد جئن إلى أذهاننا بصور ضبابية، جئن لإثارة غرائزنا بعد اقتباس مواصفات عامّة تنطبق على أي جسد أنثوي آخر، ثم رحلن بعد أن اختتم (محسون) زيارتهن بثورة ماءٍ تفسد النصف السفلي من ثيابه.

ولما تطلَّب الأمر منّا بعض التجديد، ثابرنا على التسلّل خارج البيت دون أن يتنبّه (الشيخ) إلى غيابنا، وجعلنا نتفرّس في أجساد النساء كي نختزل تفاصيلهنّ في دهاليز عقولنا. كان خروجنا إلى المدينة مخالفًا لتعليمات (الشيخ) الصريحة، بألا نبرح البيت سوى لغرض الصلاة، أو لجلب الاحتياجات التي تطلبها زوجته منّا. لقد فرض علينا حظر التسكّع في الشوارع مذ أن انتقلنا للعيش معه، ورفض بشكل قاطع فكرة خروجنا للعمل في نقل البضائع في الميناء أسوةً بأقراننا. خوفه المفرط ذاك من احتمالية التورّط مع رفقاء السوء هو ما أرغمنا على حصر علاقاتنا الاجتماعية في جملة أشخاصٍ نتواصل معهم ضمن المسافة القصيرة بين المسجد ومسكننا، وهو ما ألهم (محسون) أيضًا فكرة استلطاف الفتيات اللواتي يقصدن

بيت (الشيخ قاسم) بذريعة سؤال زوجته عن المنافع والمستلزمات الضرورية.

كان التبادل الاقتصادي في (الحُدَيدَة) هو سبيل (محسون) الوحيد نحو خلق مصادفات اللقاء مع فتيات المدينة. أذكره لما تعوّد المسارعة إلى فتح الباب كلما حضرت واحدة من بنات المدينة كي تطلب حفنة من الملح أو الدقيق أو الزيت نيابة عن والدتها. كان يهرع نحو مستودع الطعام كي يجلب لهن ما توفر من متطلّباتهن، بيد أنّه، وما إن يعود، حتى يبادر بوصف الأجساد التي تفرّس فيها بأم عينيه، ثم يقرر، من باب التعاطف لا أكثر، أن يأخذني معه إلى خيالات يلتقيهنَّ فيها.

بقينا على هذه الحال فترة طويلة حتى التقى (محسون) حبيبته الأولى. كانت (فاطمة) تكبره بثلاثة أعوام على الأقل، ويبدو من جرأتها على تجاوز عتبة باب منزلنا أنها قد صادقت صبيانًا آخرين قبله، بل وذهبتْ معهم طوعًا في خيالاتهم الجامحة. لم تتيسّر لي فرصة رؤية (فاطمة) إطلاقًا، لكنّ قدرة (محسون) على وصفها كانت تشي بتجاوزها سن الرشد بجدارة، ولا أقصد هنا أنها كانت ناضجةً جسمانيًّا فحسب، بل إنها كانت شديدة الوعي بما يفعلهُ إغواؤها به. تسند أردافها المكتنزة إلى باب فنائنا، حسب قول (محسون) طبعًا، ثم تغلق الباب خلفها وهي تشد المراهق الذي أمامها بثوبه، وتدفن وجهه بين بروز نهديها، وقبل أن يتمادى (محسون) في طيشه، أو أن تتطاول يدهُ كي تلامس شيئًا آخر من إغرائها، كانت تبتعد عنه

بتمنّعٍ يخالطه الكثير من الغنج، ثم تضبط وتيرة وشاحها وتعجّل فورًا بمغادرة بيتنا.

قُدرتنا -أو عدم مقدرتنا- على نيل أيّ غواية إضافيّة من (فاطمة) هي التي فتحت أمامنا ألف باب للتخيل، وعشرات المحاولات الفاشلة للتنبؤ بما يختبئ أسفل الرداء الممتد حتى أخمص قدميها. كنا نجلس أيامًا طويلة حتى نُعريها من ملابسها، نُقشّرها مثل البرتقال، ونفترض جدلًا أنها تقطع الشوط الطويل نحو الركن القصي من بيت (الشيخ)، حيث حجرتنا المشتركة، من دون أن يخطر ببالنا مطلقًا، أنا و(محسون) على حد سواء، أن (الشيخ) قد يقوم بمناداتنا في الحُلم أيضًا، أو أن تدخل زوجته الحجرة فجأة وتراها تجلس بيننا.

كان يعترينا فتورٌ مفاجئ كلما غادرنا طيف (فاطمة) الذي اعتاد الحضور بشكل شبه يومي، خَدَرٍ كُليّ يمرق بمجرد أن تفيء الخيالات إلى نهاياتها؛ فتخور قوانا ويصبح حينها أثر الإرهاق واضحًا على (محسون)، وكذلك عليَّ، بينما تُشير جبهة (محسون) الناضحة بالعرق إلى أنه كان يبذل جهدًا يحاكي الركض في أزقة المدينة ساعة كاملة. لربما كان هذا التعب يداهم (محسون) لأنه هو وحده مَن يحرّك (شيئه) بقوة وسرعة، يفعل هذا حتى يثبت لخيال (فاطمة) مدى فحولته طبعًا، لكن ما الذي كان يدفعني إلى التعرّق أيضًا مع أنني لم أكن أحرّك أي شيء حينها؟

لقد كنتُ المشاهد في كل مغامراتنا الجريئة تلك، مجرّد شاهدٍ على خلواتٍ ينفرد فيها (محسون) بنسائه، ولم أبادر يومًا إلى تقمص

أي دورٍ آخر حتى لا أقع في حرج توضيح الأسباب التي جعلتني أفقد ذكوريتي، أو حتى أحافظ على نظرة (محسون) تجاهي. لطالما تمسّكت بدوري، لم أُقدم على أيّ تصرّف يخرج عن المألوف، رغم شغفي الدائم بتجريد أيما امرأة عابرة، وبقيتُ محافظًا على مسافة ثلاثة أشبار كاملة تفصلني عن (محسون)، باستثناء تلك المرّة التي اقتربتُ فيها منه، وحاولت مغافلته كي ألمس (شيئه).

كنا قد انطلقنا ذات يوم في خيال جامح حين أرخى (محسون) ساعده لبرهة قصيرة بغرض الراحة، فمددتُ يدي نحوه لأعاونه على مواصلة الخوض في مشوار خيالاتنا الطويل، ولم أتنبّه وقتها لفداحة خطئي إلا حين انتفض (محسون) في موضعه معترضًا. «عيب!!»، هتف في وجهي وهو يضع نهاية غير متوقعة لتلك الرحلة، ثم غادر الحجرة وهو يهذي بشتائم كثيرة، فأحالني تعنّته ذاك إلى حالة حنق شديد، وتحوّل ذلك الحنق لاحقًا إلى ما يشبه الفضول الشديد، أو ربما الرغبة في تحسس (الشيء) الذي فتح كل أبواب التخيلات أمامنا.

انتهزتُ فرصة خلود (محسون) إلى النوم في يوم لاحق، ثم قمتُ بتمرير يدي على النصف السفلي من جسده، ورحت أفتش عن (ذلك الشيء) بين قدميه، ربما أمسكتُ بـ(شيء) رخو لا يتماشى مع توقعاتي، لكن قبل أن أنال كفايتي منه، استيقظ (محسون) من سُباته فجأةً وقبض عليَّ متلبسًا، فدبّ نزاع كبير بيننا، وتطوّر إلى عراك بالأيدي. كانت أصواتنا تتردّد في أرجاء البيت بلا استحياء، ومن

دون أن تضع اعتبارًا (للشيخ) أو (زوجته) أو نساء المدينة اللواتي خرجن في الخيالات معنا، ما دفع (زوجة الشيخ) إلى أن تدلف إلى حجرتنا معترضة، وتعمد إلى فض الاشتباك دون أن تهتدي إلى السبب الذي جعلنا نُقلق راحتها وراحة زوجها.

بعد أسبوع، استعاد (الشيخ) بعضًا من عافيته، وعلى إثر نهوضه كانت بانتظارنا ثمّة محاضرة تربويّة من النوع الذي يتكرّر على نحو انتظامي. لقد راح يوبخنا ويصبّ تقريعه المألوف، دون أن ينسَى تذكيرنا بكرم إيوائه لنا وتحمّل نفقات إعاشتنا. أخبرنا بأننا كبِرنا كثيرًا، مثلما كبِر هو، وبالتالي، ما عاد من الممكن له أن يقوم برعايتنا، ثم استغلّ حادثة النزال الذي دار بيني وبين (محسون)، ومن بعد ذلك حادثة إلقائه القبض على (محسون) وهو يداعب (شيئه) كي يقول لنا إنه قد رتّب لنا أخيرًا أمور سفرنا إلى (مكّة).

ها هو، وبعد سنواتٍ طويلة من رعايتنا، إنه ينزوي ليخصّص ركعات إضافية بعد صلاة الفجر كي يدعو لنا بالهداية، ثم يسوقنا رفقة أمتعتنا إلى الطرف الشمالي من المدينة، حيث سماسرة السفر والقوافل المتجهة نحو (الحجاز). يأخذنا إلى رجالٍ لا نعرفهم، ويوكل إليهم مهمّة إيصالنا إلى (مكّة)، ثم يرحل عنّا بعد أن يودعنا بعبارات تحمل بين طياتها أقل قدرٍ ممكن من الحميمية. كل هذه التصرفات متوقعة منه، إنّه يتعامل معنا حسبما يقتضي الظرف الراهن، لا يظهر أيّ ردَّة فعل قد تتعارض مع ما يفعله عادةً في موقف كهذا، لكننا نحن، أنا و(محسون) الذي اعتاد أن يتخيّل معي

أبشع الطرق التي يمكن قتل (الشيخ) بها، نهرول خلف (الشيخ) كي نرجو منه أن يسمح لنا بالبقاء معه، ولا نعرف ما إن كنّا نفعل هذا بدافع الخوف من السفر بمفردنا أم لأننا أدركنا أخيرًا أن قسوته التي حملتنا على كرهه هي في حقيقة الأمر صورة بالغة التعقيد من صور الحب.

أذكرني حين وقفتُ أخيرًا بين يدي (الشيخ) ، شعرتُ بأنني سوف أشتاق إليه كثيرًا، لكنني في سائر الأحوال لم أذرف أيّ دمع وقتها، فأنا، وبخلاف أني قد أصبحتُ رجلًا لا يليق به البكاء، لم أملك المخزون الكافي لإخراج الدموع من عيني بعد كل الحزن الذي نزفته إبّان رحيل (مونا). البكاء هو الشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نفعله بصدق مرتين، أعتقد أنني قد اختبرتُ هذه الحقيقة لحظة وداع (الشيخ قاسم)، وليتني أدركتُ وقتها كيف كان في وسعه أن يحافظ بإصرار على رباطة جأشه مثلما فعل، أو لماذا شعرتُ بالوجع في تلويح يده لما أعاد إليَّ قلادة الربّان الذهبية وأوصاني بعدم ارتدائها، ثم قفل عائدًا إلى بيته بمفرده كما لو أن شيئًا لم يحدث.

٦

حاول مَلَك الموت أن يقترب مني أكثر من مرة، فعل ذلك عندما حملتني أمي إلى (عَصَب)، وعاود تكرار المحاولة لما ركبتُ البحر رفقة (مونا)، ثم كرر الأمر عينه لما خرجتُ رفقة (محسون) وبعض أهالي (الحُدَيدَة) إلى (مكّة)، لكنه كان في كل مرة يعدل عن رأيه ويتجاوزني حتى لا تُعاقَب (الجماعة) بذنب (الفرد). لقد أراد منّي أن أكون بمفردي، حتى يحطم جدار الحمام ويدفنني أسفل الأنقاض. لعله كان على دراية، ومنذ طفولتي، بأنني لن أخلص التضحية من أجل الله، ولن أواظب على خدمته مثلما أوصتني (مونا)؛ لهذا جلب معهُ فراسخ الماء الذي حملني ذات مرّة إلى ضفّة النجاة كي أموت بسببه، أليس لائقًا أن تكون نهايتي امتدادًا بديهيًّا لبدايتي؟

من أسفل ركام حائط الحمام، وبنصف جسدٍ تغمره السيول المندفعة، أفكّر في تداعيات اللحظة مليًّا، ولا أستنكر إطلاقًا أن يكون الموت قاسيًا على هذا النحو، أو أن يأتي في وقت متأخر من

عمري، إذ إنّ النكوص عن خدمة الله يستوجب عقوبة صارمة تُصاغ بلا عجل، وتكون ملائمة لسيرة حياتية مليئة بالأخطاء، لكن ما لا أفهّمه إطلاقًا هو أن يأتي الموت هكذا في الخفاء، بلا ضجيج، ومن غير شهود. لطالما آمنتُ بأن اللحظة التي سأموت فيها سوف تتَّسم بالصخب والدموية، وسوف تجيء مشابهة لنهايات الطواغيت في قصص الأديان، أولئك الذين صاروا نماذج تاريخية لكل من رفض الانصياع لتوجيهات الله حسبما اعتاد أن يحكي لي (الشيخ قاسم)، فأتعرّض للدهس مثلًا جراء حادث مروري، أو أسقط في إحدى الحفر التي تنتشر في حارتنا، وأظلّ مضرجًا بالدماء فترةً كافيةً لأن يراني فيها أكبر عدد ممكن من المشاة ويتّعظون بسببي. يسأل المشاة أنفسهم، «تُرى لماذا قدّر له الله نهاية لا تليق بسنّه، ألم يكن من الأفضل له أن يموت أثناء نومه جراء نوبة قلبية مثلًا؟» لكنّ لا أحد منهم، أو ربما هو متعهّد الدفن فقط، والذي ستُسند إليه مهمّة غسل جسدي وتحسّسه، سوف يعرف أنني مجبوب في الحقيقة، وأنّ لحادثة موتي علاقة وثيقة بصدفة اختفاء خصيتيَّ وعضوي الذكري!

أحاول الآن تحريك ساقي التي سقط عليها الجدار، فيراودني الألم مرّة أخرى، ويحملني عنوةً على الصراخ بشدة وعدم تكرار التجربة. إنّه يجيء مباغتًا وسريعًا، مثل نصل سكين ينتقم من ذكورة طفل قد طرحوه أرضًا، فأتلوَّى في موضعي من شدّة الوجع، وأتمنى لو أنَّ في وسعي وضع نهاية سريعة لما تبقى من عمري. أصرخ مجددًا

بصوتٍ عالٍ، وكم أشتهي مثلًا أن ينهار سقف الحمام على رأسي؛ فتنتهي عذاباتي دفعة واحدة، وينتهي معها انتظاري، لكن لا شيء مما يطرأ على بالي يحصل قطعًا، ويصبح من الواجب عليَّ انتظار سيل الماء حتى يكتمل يملأ البيت، وأموت غرقًا.

هل أصرخ مجددًا لطلب النجدة؟ حسنًا سأصرخ، ولكن ما الذي قد يحمل شخصًا عابرًا لا أعرفهُ على التضحية بحياته والسباحة عكس التيار كي ينقذني. إنني لم أترك خلفي أيّ صداقات حقيقية، ولا أعرف إنسانًا بالخارج من شأنه أن يسأل نفسه، ولو بغرض الفضول، تُرى ما الذي يحدث الآن (للآغا آدم). أعتقد أنه سوف يبدو الأمر مضحكًا، أو ربما سخيفًا، أقول ربما، لو أنّ عمدة الحي قد جاء بنفسه، أو بعث رسولًا يسحبني من تحت الأنقاض حتى يقول لي بطريقة صارمة، «لقد تأخرت في الإبلاغ عن هذه الكارثة، مات بسببك أشخاص كثيرون، وسيتعيّن عليكَ إخلاء هذا البيت الذي تعيش فيه، فنحن لسنا مهتمّين بمجاورة شخصٍ أناني لا يكترث لأحوال جماعته»!

«أنا الذي فعلتُ بنفسي كل هذا». أستطيع من موضعي هنا، وبعد مضي عشرات الأعوام، أن أتعقب كل القرارات الخاطئة التي جاءت بي إلى هذه البقعة من مدينة (جدّة)، أستطيع أن أتصور نفسي وأنا أتخذ القرارات الصحيحة، وأستطيع كذلك أن أتصوّر نهاية تختلف كثيرًا عن موقفي الحالي. لقد كان في وسعي، على سبيل المثال لا الحصر، عدم مغادرة (الحُدَيدَة) مثلًا، وتمضية حياتي فيها

مشردًا أو باحثًا عن الإيواء في القرى المجاورة، فأشغل وظيفة حمّال في الميناء حتى أتدبّر تكاليف ركوبي البحر، ثم أعود إلى قريتنا في (الحبشة)، إلى النقطة التي بدأت منها الحكاية، كي أجد كلَّ شيء على حاله، الناس ما زالوا كما تركتهم منذ سنوات، شيخ القرية لايزال يعقد التجمعات بعد العصر ويقرأ القرآن على العامة، أمي ما تزال مشغولة بافتعال المناوشات مع جاراتها، وأبي يعود إلى رشده بعد غياب مطول، فيُمضي يومه في معاونة الباعة ونقل البضائع على ظهر بغله قبل أن يعود إلى أمي في نهاية النهار كي يرجوها أن تصفح عنه، فهي، ورغم تصنعها الرضا، لن تغفر له خطيئة التخلّي عنها من أجل زوجة ثانية. كان في وسعي أن أتجنب كل هذا، لكنني قررتُ أن أمضي مع (محسون) ورفقاء سفرنا إلى (الحجاز).

في مشوار أفكاري الآن، أرى الشجرة التي رمتْ بأفرعها حتى تتعهّد لنا بالظل ونحن نشق طريق سفرنا من (الحُدَيدَة) إلى (مكّة)، وأرى كذلك صورة شبابيّة منّي وهي تتحامل بجسارة على العطش والتعب كي تحتمي بأفرع الشجرة الممدودة. كنت أفعل ذلك مثلما يفعل (محسون) ومثلما يفعل بقية المسافرين، ولكن دون أن أفهم السبب الذي يجعل الشجرة راغبةً في احتوائنا بأمومة غريبة، إذ إنها، وبخلاف كل الأشجار التي عبرنا من جوارها، لم تخلع ثيابها الورقيّة، ولم تعجّل بالانتحار خوفًا من شُح الماء وارتفاع درجة الحرارة الملحوظ، بل تشبّثتْ بالحياة حتى تصبح الشاهدة الوحيدة على أول خطر نتعرض له في سفرنا.

على مرأى تلك الشجرة، ظهرت لنا جماعة من قُطّاع الطرق، انتزعونا من الظل ومن راحتنا، ثم أسهبوا في تفتيش أمتعتنا بحثًا عن أيّ شيء يمكن سلبه، ولما أدركوا أنه لم يكن في حوزتنا ما يستحق السرقة، تحولوا إلى ترهيبنا وإشهار البنادق في وجوهنا. كان هذا الترويع كافيًا لأن يبعث الرعب في قلوبنا جميعًا، أو ربما في قلبي على نحو خاص؛ نظرًا إلى أنني كنتُ أخبئ قلادة الذهب في ربطة ألفها على خاصرتي، لكن أحد المسافرين تدخَّل في اللحظة المناسبة كي ينتشلنا جميعًا من هذا الموقف. قال لقطاع الطرق إنني مخصي ومبعوث للخدمة في بيت الله المقدس، لا أعرف كيف علم بقصتي، ربما لأنَّ (الشيخ قاسم) الذي جاء بنا إلى الميناء كان مشهوراً بتدجين الأغوات، ثم اختلقَ بعض الأكاذيب وهو يقول أنّ الحشد الذي برفقتي قد خرج معي كي يضمن سلامة وصولي إلى (مكّة)، فكانت محاولة الانقاذ تلك فريدة من نوعها. تستطيع أن تتكهن بذلك حين ترى أثر وقوع الكلمات في نفوس قطاع الطرق المتمرّسين، والذين تحولوا إلى التباحث فيما بينهم قبل أن يقرروا أخيرًا تركنا وشأننا، إلا أننا لم نكن لنهنأ بهذا العفو دون أن يمر الصُّلح ببعض التعقيد، فيُخضعني قطاع الطرق لاختبار ذكورية كي يتحققوا من صدق أقوالنا.

لقد وقف رفقائي المسافرون في تلك الأثناء كي يراقبوا قائد قطاع الطرق وهو يدس أصابعه أسفل ثيابي كي يتحقق من رجولتي، فرأيتُ على وجوههم، أو ربما على وجه (محسون) حصرًا، انعكاس

فضيحتي. كانت تلك هي أول مرة يعرف فيها (محسون) أيّ تفاصيل تتعلق بتكويني الجسماني، ولا عجب في ذلك مطلقًا، لطالما حرص (الشيخ قاسم) على تمويه التفاصيل التي كانت تخصني، ولم يكن ليشارك أيّ شخصٍ أسباب قدومي إلى (الحُدَيدَة). لقد اكتفى الشيخ بوصفي بالصبي الذي تبناه ابتغاءً لرضا الله، وهو أمرٌ شائع في المدينة التي كانت تكتظ بالأيتام والمُعدمين، دون أن يلقي بالًا إلى احتمالية أن يكون بعض أهالي (الحُدَيدَة) على دراية بقصص صبيان (الحبشة) الذين يؤخذ بهم إلى (مكّة).

راقبتُ (محسون) وهو يمنحني نظرات توحي بالخيبة، فعل ذلك كما لو أنه كان يعاتبني لأنني كذبتُ عليه في كل مرّة نصعد فيها إلى خيالاتنا الجامحة، ولمّا أطلتُ النظر إليه، تحوّل بأنظاره صوب قائد قطاع الطرق، وراح يراقبه وهو يميط اللثام عن وجهه كي يُبدي تعجّبًا واضحًا إزاء الأجزاء المفقودة من جسدي.

كم هو مدهش حقًّا أن تكون تلك هي أول مرّة يلتقي فيها قاطع طريق متمرّس بعابر سبيل مجبوب وخائف مثلي. إذ بكل الجروح القديمة في وجهه، بكل ندوبه الغائرة، وبكل مغامرات النهب التي يعرفها، لم يبدُ من المحتمل أبدًا أن تكون تلك هي تجربته الأولى في الوقوف أمام ذَكرٍ لا يملك أدوات ذكورية.

أراقب اليد التي تعوّدت السرقة وهي تفتّش بمهارة فائقة داخل ثيابي، إنها تبحث بوفاء بالغ بين قدميّ، وقد تحوم أيضًا في منطقة العانة، أو تهبط ناحية الأسفل لتختبر ارتعاش فخذيّ، لكنّها

تعود في نهاية المطاف من دون الغنائم، خائبة ثكلى، فيصبح الوقت ملائمًا كي يدفعني الرجل الغريب بعيدًا عنه، وكي يوعز إلى رفقائه بضرورة تجنّب التعرّض لنا بالأذى. أراقبهُ يرطن بالعربيّة كلامًا لا أفهمه، لهجته تختلف كثيرًا عن تلك التي ألفتها في (الحُدَيدَة)، بيد أنّ هذا لا يحول بيني وبين فهم مقصده. حتى تعابير الحنق في وجوه أقرانه، إنها كانت تقول الشيء نفسه، أنّهم لن يظفروا بنا، ولا حتى باليسير من متاعنا، وهذا يعني أنّ جميع جهودهم في التخفي والظهور قد رحلتْ أدراج الريح الساكنة أصلًا، وصار من الواجب عليهم البحث عن مسافرين آخرين كي يسطوا على متاعهم.

زفرة يتيمة يطلقها القائد فينتهي ذلك الموقف المحتدم. يسارع إلى اقتياد فريقه صوب أحد الجيوب التي يكتظّ بها ثوب الأفق البعيد، فنواصل بدورنا مهمّة السير صوب الشريط الحدودي، تمامًا كما لو أن ظل الشجرة الوارف ما عاد مغريًا بالنسبة إلينا، وحين نفيق على حقيقة ابتعادنا عن ذلك المأزق، وبأكبر عدد ممكن من الخطوات، نكتشف أن سلوكنا تجاه بعضنا لم يتبدّل جراء ما حصل، لا هم الذين يعاملونني بطريقة مغايرة، ولا أنا الذي أشعر بالحاجة إلى توضيح موقفي.

يحيط بي رفقاء سفري كما اعتادوا من قبل، لا أحد منهم يتصرف كما لو أنني أقل شأنًا -أو أقل رجولة- منهم، لكنني ألاحظ حرصهم على مخاطبتي بعبارات تجيء على غرار، «هيا يا رجل»، «ما خطبك يا رجل»، و«أوشكنا على بلوغ وجهتنا يا رجل»، ربما كي

يحملوني على التصديق بأنّ فقدان الذكورة لا يعني مطلقًا أنني لستُ رجلًا في أنظارهم.

لقد بدا الأمر غاية في الغرابة بالنسبة لنا جميعًا، أنا وهم على حدّ سواء، أن نتعاطى بعضنا مع بعض كما لو أنَّ حادثة قطّاع الطرق تلك لم تحدث فعلًا. تتكدّس الأسئلة في دواخلنا دون أن نقوى على طرحها، ولعلّنا نرغب في مناقشة الموقف بشكل جماعي، ومن ثم تجاوزه باعتباره مجرّد طرفة عابرة، تمامًا مثلما فعلنا بشأن ابن آوى الذي هجم علينا في أمسية لاحقة، لكن هذا لا يحدث مطلقًا؛ وذلك لأنّ الحديث عن قطاع الطرق سوف يستوجب الحديث عن ذكوريتي بطبيعة الحال، لا أنا أستطيع أن أسألهم عمّا إن كانت مؤخرتي قد تكشَّفتْ حين تسلّلتْ يد الرجل الغريب داخل ملابسي، ولا هم يقدرون على سؤالي عما إن كنتُ أسير بلا عضو ذكري، أو بلا خصيتين فقط، أو دونهم جميعًا.

عاودنا السير فقط، مستسلمين إلى ضرورة أنّ نمر بحادثة أخرى أقل غرابة، فتصبح بدورها قصتنا التي نتسلى بها حتى نبلغ وجهتنا، والتزم أغلبنا بالصمت، باستثناء عدد قليل راح يتداول أحاديث مستهلكة وقصصًا تداولناها في بداية مشوارنا. أما بالنسبة إليَّ، فقد انشغلتُ بالتفكير حينها فيما لو كنتُ أنا وحدي من يشعر بالغرابة إزاء ما حصل، أُضَخّم أصغر التصرفات، وأسيء فهم أيّ تصرف قد يبدر عن رفاقي المسافرين. أما بالنسبة إلى (محسون)، فقد أخذ يسير بعيدًا عني، ورفض التحدث معي بشكل قاطع.

لكن فيما لو افترضتُ صحّة هذا الاعتقاد، أنّ الآخرين قد تجاوزوا الموقف، وفقدوا اهتمامهم بتفاصيلي الجسمانية، فما الذي سيبرّر إذًا حادثة تسلّل أحد المسافرين خلفي كي يسترق النظر إليّ أثناء خروجي لقضاء حاجتي؟

أتذكر تلك الخطوات المجهولة التي راحت تتبدّل على عجل كي لا تُفضح نوايا صاحبها، لن أنساها يومًا، ولن أنسى أيضًا استدارتي إلى الوراء سريعًا، في ظهيرة متأخرة من أيام سفرنا الطويل، حتى أتحقّق من ماهية الشيء الذي يتربّص بي. «لعلّه ذئب كاسر»، فكّرت في بادئ الأمر وأنا أهم بجلوس القرفصاء، لكن شكوكي تبدّدت حين وقعتْ أنظاري مباشرة على أحد المسافرين الذي أخفق، وبجدارة، في الاختباء خلف تل مجاور. رأيتُ تعابير الدهشة والارتباك على وجهه حين ألقيتُ القبض عليه متلبسًا. لم تكن تربطني به أية معرفة مسبقة، سوى أنه أحد المسافرين معنا، ولم أكن أعرف اسمه قطعًا، لكنني شعرتُ بالحنق إزاء تصرفه، ورحتُ أتنبأ بما قد يدور في باله، ربما كان يريد مراودتي عن نفسي.

بتلقائية مطلقة حرّرتُ طرف ثوبي العالق بين أسناني، وسارعتُ باستعادة قامتي. كان الوقت ملائمًا حينها كي يرخي الرجل الغريب بصره أو يفر هاربًا، لكنه لم يفعل، بل ظلَّ متسمّرًا في موضعه. حتى عندما اقتربتُ منه بغية افتعال مناكفة، لم يتحرك من موضعه وظل واقفًا، ينظر نحوي لوهلة ثم يعاود خفض أنظاره لوهلة أخرى. اقتربت منه، قال لي إنه رجلٌ سوي وغير متيّم بالغلمان، وأضاف

بأنه لم يكن يتفرّس في جسدي بسبب نزوة عابرة، فتوقف تبريرهُ عند ذلك الحد، ولا أعرف لماذا آثرتُ تصديقه، ولماذا لم يشتعل بيننا أيّ صراع، ولماذا لم أحاول مقاومته حتى حين أخذني إليه متعاطفًا وقام باحتضاني.

٧

لقد مرّت عشرات السنوات، ومع ذلك، كلما وقفتُ أمام رجلٍ يرتدي بزّة عسكريّة، رأيتُ صورة الجندي الذي أبى، وبشكل قاطع، أن يُصادق على أوراق ثبوتيتي حتى أعبر الشريط الحدودي بين (اليمن) و(السعودية). «لا يمكن أن تكون في الثانية والعشرين من عمرك»، هكذا قال الجندي وهو ينطق الكلمات ببطء شديد، ربما كي يتأكد من مقدرتي على فهم مقصده، ثم أخذ يُقلّب بين يديه جواز السفر اليمني الذي استخرجه لي (الشيخ قاسم) قبيل خروجنا إلى (مكّة)، فدبَّ الخوف في قلبي من احتمالية أن يتم رفض عبوري، ورحتُ أفكر في اللحظة التي أجد نفسي فيها مضطرًّا للعودة إلى (الشيخ قاسم) في (الحُدَيدَة) كي أقول له إنني لم أحسن تدبر أموري.

والحق يقال، لقد كان تشكيك الجندي في صِحة جواز السفر مُبَرَرًا، فملامحي الصبيانية كانت تشير إلى أنّي لم أبلغ الثانية والعشرين مطلقاً، كما أنَّ لغتي العربية كانتْ أكثر ركاكةً من أن تلائم شابًّا يمنيًّا

أصيلًا. لقد استعان (الشيخ قاسم) بعلاقاته الاجتماعية وبتجاربه السابقة في تدجين ونقل صغار الأغوات كي يستخرج لي جواز سفر يمني دون أن يدربني سلفًا على كيفية إقناع الآخرين بأنني يمني، ربما لأنّ الكثير من الأفارقة قبلي كانوا قد لجؤوا إلى الحيلة نفسها حتى يسافروا إلى (الحجاز)، ولم يكن من عادة رجال الحدود التدقيق في هذا الأمر كثيرًا، لكنّني وجدتُ نفسي، وعلى أية حال، تحت رحمة (محسون) الذي تدخَّل بشكل عرضي حتى ينقذ الموقف.

«(سُويّد)»، قال (محسون) مازحًا، كما لو أنه قد اعتاد ندائي بهذه الكنية، وكما لو أنني كنتُ داكن البشرة أصلًا، ثم أعقب ذلك باختلاق صلة قرابة بيننا، وأخبر الجندي بأنني ابن أحد أعمامه الذين يهوون الأفريقيات، فسَرَحَ الجندي في احتمالية أن أكون حقًّا سليل رجلٍ يمني يشتهي مطارحة النساء الحبشيات، وما إن تضخّم هذا الاعتقاد في مخيلة الجندي، حتى عمد إلى طرح المزيد من الأسئلة على (محسون)، بحس فكاهة يقتبسه على عجل؛ ربما كي يزجّي ظهيرة رتيبة تفرض عليه الجلوس وحيدًا في ثكنة مهترئة صنعوها من أجله من صفائح الزنك.

«هل أمّه جميلة إلى هذا الحد؟» سأل الجندي مستنكرًا، فأمال (محسون) رأسه ثم طوى شفتيه كمن يشكّك في ذائقة عمّه المُختَلَق، ولما بدا أنّ الرجل المسلَّح كان في حاجة إلى إجابة أشدّ وضوحًا، جذبني بساعدي حتى أزداد قربًا إليه، ثم راح يسدّد إليَّ عددًا لا يُحصى من نظراته الفاحصة.

«تُرى ما الذي قد يحرّض أحدهم على التزاوج بهذه الطريقة المريعة؟» في وسعك أن تصغي إلى السؤال وهو يتردد طويلًا في رأس الجندي الحائر. لقد وقف أمامي كي يعقد حاجبيه ثم يفك أسرهما، فعل ذلك أكثر من مرّة، فاستنتجتُ حينها، وبحدس صبي حبشي لا يريد من العالم سوى أن يصدّق أكذوبة بلوغه الثانية والعشرين، أنّ الصور التي تجول في رأس الجندي هي مشاهد مروعة لا يمكن للمرء احتمالها.

يمرّر الجندي سبابته على شفتيَّ، ويتحسّس بإبهامه نعومة وجهي، ثم يُلامس الانحناءات التي تجعل أنفي رفيعًا، لعله يريد اكتشاف الملامح الرقيقة التي تعتبر امتدادًا طبيعيًّا لسُمرتي الفاتحة، فأستيقظُ متأخرًا على حقيقة أن ملامسته تلك مجرّد محاولة بائسة للعبور من خلالي إلى أمّي.

«تُرى هل سيروقها هذا التصرف؟» أفكّر في أمّي كما لو أنها قد خرجتْ بالفعل في هذا السفر معي، ثم أتخيلها وهي تقف بين يدي الجندي المدجَّج بالسلاح كي تأذن له بملامسة وجهها ومداعبة تضاريس جسدها. لكأني أراها متصلّبة في مكانها، لا تبدي أيّ اعتراض ظاهر، حتى عندما تتسلَّل إلى أنفها رائحة التوابل العالقة بأصابع الجندي، فهي ستكون قد فطنتْ، ومنذ بداية الأمر، إلى أنّ الرجل قد فرغ فورًا من تناول غدائه، وذلك بالاستناد إلى بقايا الطعام المكشوف على أرض ثكنته، كما ستدرك بحدسها الأنثوي أنَّ تداعيات هذا الموقف قادرة على إشعال فتيل الغيرة في قلب أبي

لمجرد أن يبلغه الأمر. لذا، ستنصب قامتها إزاء الجندي النحيل، وستدفع صدرها نحو الأمام حتى يَسهُل للجندي الوصول إلى مفاتنها، فيستشيط أبي غضبًا حين يحكي له الناس هذا الموقف، لكنه سيهدأ في نهاية الأمر حين يتنبَّه إلى أن زوجته، والتي تُثير بغوايتها حماسة الرجال (العرب) وليس (الحبوش) فقط، هي امرأة جذابة، ما سيحمله على التراجع عن خطط زواجه بامرأة أخرى.

واصلتْ أصابع الجندي ملامستي، فبادرتُ بقذف رأسي إلى الخلف، وأغمضتُ عينيَّ مُعبّرًا عن عدم موافقتي على اقترابه بهذه الطريقة الفجّة، ولأن من طبع أي جندي عدم القبول بهدنة سلامٍ قد تُظهِرهُ مهزومًا، لم يشأ أن يبتعد عنّي إلا وفق مشيئته، فقرّر أن يقفز بخطوات تمثيلية إلى الوراء، هكذا، من دون دلالات مسبقة، ثم قبض على الانتفاخ بين قدميه وهتف بفكاهة تامة وهو يتصنّع الشعور بالألم، «لا يمكن أن أضاجع امرأة حبشية، حتى لو بإصبعي».

استدرجتْ ردة فعل الجندي تلك انتباه المسافرين، وحرّضتْ عددًا لا بأس به منهم على مجاراة تصرّفه بالضحك، بل إن البعض منهم قد سقط في وحل القهقهة العميق، لا لغرض الشماتة، وإنما لضمان عبور النقطة الحدودية بأقل المتاعب الممكنة، فنشأت حالة مريعة من الهرج والمرج، ما دفعني إلى اكتشاف وجودي، وللمرّة الثانية منذ نجاتنا من قطاع الطرق، داخل دائرة الحرج الضيقة، يُحيط بي غرباء بالكاد أعرفهم، وبالكاد يعرفون أيَّ شيء عنّي سوى أنني السبيل الوحيد لخلاصهم من كل مأزق.

أراهم يتقاسمون النكات مع الجندي، يلكزونه كلما وجدوا تعقيبًا إضافيًّا يبقي جذوة الضحك مشتعلة، بينما يقوم هو بتدقيق أوراقنا. أما أنا، فأقف بعيدًا، تفصلني أمتار قليلة عنهم. أليس موضعي الحالي هو أفضل مكانٍ يليق بهواجسي؟

ها أنا ذا أقف ساكنًا، دون أن أتفوه بشيء، أراقب الأفق وهو يتمدّد أمامي كخيالٍ مشرق، أحاول ملامسة الفراغ، أراه يهرب وينتشر في الأرجاء، فراغٌ لطيف، كفكرةٍ سهلة تناور ثم تعود مجدّدًا في هيئة أبهى. تُرى لماذا تبدو فكرة معاودة أدراجي إلى (الحبشة) مغريةً جدًّا؟

أجل، لقد مرّت عشرات السنوات مذ أن انطلقنا في تلك الرحلة الطويلة، ومع ذلك لا أستطيع أن أنفض صورة الجندي عن مخيلتي. أحرّك قدمي أسفل حائط الحمام المنهار حتى أستدعي الألم، وحتى يغيب الجندي عنّي، لكنني أفشل بجدارة. أتخيله حاضرًا أمامي، هنا في (جدّة)، في حمام منزلي، وفي منتصف مياه السيول، ببزة عسكرية فضفاضة لا تلائم جسده النحيل، وبأسنان أماميّة صفراء تبرز من بين شفتين جافّتين متقطّعتين، وبشارب كثّ لم يعرف التشذيب يومًا، يدنو منّي بخطوات ثقيلة وثابتة، يُبعِد بعض الركام ثم يجلس على طرف حوض الاستحمام دون أن يكلمني. لعل منسوب الماء يرتفع إلى نهاية حذائه الجلدي والممتد إلى منتصف ساقه، لكنه لا يكف عن تسديد نظراته إليَّ دون أن يتفوه بشيء، وبعد أن يطيل النظر إليَّ، ينهض من موضعه كي يزيح

جميع قطع الأسمنت عنّي، لكنه يُبقي قطعة أسمنت وحيدة على قدمي تمنعني من النهوض، يفعل هذا بشكل متعمد حتى يرغمني على التمدد في موضعي، ثم يمد يده لإزالة كفّي التي أغطي بها عورتي، فلا أبدي أيّ تمنّع لقاء صنيعه، بل أخمّن أن هذا هو الثمن الذي ينبغي عليَّ دفعه لقاء الحصول على مساعدته، أن أسمح له بالوصول من خلالي إلى أمّي؛ لهذا أفسح له المجال أن ينال غايته من النظر واللمس، لكن ما إن يبلغ كفايته حتى يعاود وضع قطع الأسمنت في مكانها، واحدة تلو الأخرى، ثم يغادرني وتغادر معه احتمالية أن يتم إنقاذي.

أعود إلى الوراء، حيث الشريط الحدودي والثكنة اليتيمة، وأقف شاهدًا على موجة ضحكٍ أخيرة اشتعلتْ فجأة، وكان (محسون) مشاركًا فيها. كانت النكات تهطل غزيرةً بالتزامن مع تدوين الجندي اسم كل واحد منّا على صحيفة بيضاء جلبها من بين أغراضه. بعض النكات جاء للنيل منّي، بينما جاء البعض الآخر للنيل من رفقاء سفر آخرين. لم أفعل شيئًا، ما دام العبور قد بات مضمونًا، وفضّلتُ أن أقف في الصفّ منتظرًا دوري.

راقبتُ رفاق سفري وهم ينتقلون واحدًا تلو الآخر من (اليمن) إلى (السعودية). هكذا، بخطوات بسيطة، وبِنِكات رديئة ومصطنعة، حتى إذا ما جاء دوري، رسمتُ نصف ابتسامة على وجهي ثم مضيتُ بسلام، فاتحًا للجندي ألف بابٍ للتأويل، وألف صورة تخيلية يرى فيها أمّي وهي تمنحه ظهرها كي تغادره بعد شوط حميمي طويل.

حين آل ذلك الموقف إلى نهايته، وجدتُ نفسي في الناحية الأخرى من سياج الحديد، مشغولًا بحصر رفقائي من حولي. كنت أراقبُهم واحدًا تلو الآخر، يخرجون من خلف حاجز التفتيش، مجتازين صديقهم الجندي، لقد ضمنوا بطريقة أو بأخرى عدم إقصائهم بعيدًا عن البلد الجديد الذي سيغدو وطنًا لأحلامهم، أمّا هو، أقصد الجندي بالطبع، فقد عاد إلى ثكنته كي يواصل تناول غدائه، أو ربما كي يُريح بندقيته الجائعة لذخيرةٍ حقيقيّة، تاركًا للطريق الذي أمامنا فرصة أن يتبدّل ويصبح أكثر وعورة.

ذهب ذلك الموقف إلى نهايته، ولما وجدنا أنفسنا مُرغمين على اختراق المناطق الجبلية والمرتفعات الشاهقة، اكتشفنا ضرورة التآزر ضد عوامل الطقس، وشدة الحرارة نهاراً، وانخفاض درجة الحرارة ليلاً. كنا نحرص على افتراش الأرضَ بأجسادنا المتعبة، وننام متجاورين حتى نتقاسم الدفء مثلما نتقاسم الطعام والشراب. حتى الأحذية التي تهرَّأت، كنا نتبادلها بيننا حتى نصل بشكل جماعي إلى حيث تكون وجهتنا.

عندما وصلنا إلى السهول التي يسكنها قليل من البدو، نبتتْ في طريقنا فرص كثيرة للنزول في ضيافة غرباء لا يتوانون عن إغراقنا بالكرم، مع العلم بأنّ هيئتنا الرثّة وأشكالنا المريبة ما كانت تحث أحدًا على الاهتمام لأمرنا.

أريد أن أعود الآن لرؤية المشهد، وإن كان بدهشة أقلّ، كيف قد شاءت لنا الأقدار أن نصل بسلام إلى (مكّة)، دون أن يظهر في

طريقنا قطاع طرق آخرون. لعل السبب على الأرجح هو خروجنا للسفر في غير أوقات الحج والعمرة، أو ربما هي الطرقات الوعرة التي سلكناها بشكل عشوائي دون الالتزام بمسار محدد، كل الاحتمالات واردة، لكن المؤكد هو أن نجاتنا لم تأتِ بسبب خطط الرجل الذي كان يقودنا، فأنا أذكر جيدًا تعابير الحيرة على وجهه كلما استوقفناه للسؤال عمّا إن كان متأكدًا من صحّة الطريق، وأذكر أيضًا اضطرارنا إلى التحقق من صحة سيرنا كلما التقينا أحد أهالي القرى التي تتناثر بخجل على حافتيّ الطريق المسافرة نحو (مكّة).

في حقيقة الأمر، لقد فشل كل الذين سافرتُ برفقتهم إلى (مكّة) في ترك أيّ أثر في أعماقي يشبه الرغبة في العودة بالذاكرة قليلًا، ومحاولة تذكرهم. نسيت أسماءهم جميعًا، ونسيت الكثير من تفاصيلهم، باستثناء (محسون) طبعًا، وكذلك (حواء)، المرأة الفُلَّانية التي التقيتُ بها حين نزلنا في ضيافة رجل قروي أذن لنا بالنوم في حوش بيته، إلى جوار قنّ دجاج مهترئ وزريبة خِرافٍ لا يسكنها سوى حَمَل واحد.

كانت (حواء) متقرفصة بجانب زوجها حين رأيتها أول مرّة، وهي امرأة في منتصف الثلاثينيات، خرجت من قريتها في (بوركينا فاسو) وهي تحتضن طفلًا واحدًا، لتجد نفسها على أعتاب (مكّة) بعد تسعة أعوامٍ، يرافقها في نفس السفر ثلاثة أطفال إضافيين. مثل حالنا، كانت (حواء) تقطع المسافات الوعرة رفقة أسرتها كي تبلغ

بيت الله في (مكّة)، وكان نزولها في بيت الرجل القروي أمرًا مؤقتًا إلى أن تتيسر ظروف سفرها.

أحيانًا تخال سياج الحظيرة الذي تتكئ (حواء) عليه هو جزء من عظامها. لكأنها تندمج بشكل تلقائي مع ألواح الخشب السمراء والأسلاك المتراصة خلفها كي تغدو جمادًا ساكنًا مثل الكثير من الأغراض المتناثرة في أرجاء الحوش. تَراها هادئة في موضعها، قلما تتحرّك، وإن فعلتْ ذلك، فهي على الأرجح تحاول ستر الأجزاء المكشوفة من صدرها بوشاح نالت منه قسوة الطريق، تضع طرفًا من أطراف الوشاح فوق كتفها اليسرى وتلفّع بالآخر حلقها، لكن هذه المحاولات لا تكون كافيةً لتغطية عظام الترقوة التي تكاد تنفر منها. أطيل النظر إليها، ثم أجد نفسي متعجبًا، ترى كيف قد مشى معها هذا الجسد الهزيل لسنوات طويلة دون أن يتهاوى بشكل مباغت؟

حين تقاسمنا نصف الحوش مع (حواء) وعائلتها، لم يكن ظاهرًا عليها أنها تتمتع بأيّة قوة أو حيلة، خصوصًا لما رضختْ لمطلب زوجها بأن تحصر متاعها القليل ومتاع أبنائها في زاوية واحدة. لقد استجابت لأوامر زوجها الهزيل، والذي لا يختلف عنها كثيرًا في ضعف بنيته، وراحت ترسم حدودها الضيقة بلا مقاومة ظاهرة، لكن السويعات القليلة التي جاءت بعد أن أتممنا تهيئة المكان ووضع أوزارنا كانت كفيلةً بأن تكشف لنا عن شخصية المرأة الحقيقية.

لقد جاءت إلينا أولًا بصينية من الهريس، قالت إنها الفائض من وجبة طعام كانت تعدها بشكل يومي لصاحب البيت وزوجته الضريرة، وهذا جزء من المهام اليومية التي أسندها صاحب البيت إليها لقاء السماح لها ولأسرتها بالمبيت في حوشهم، فتهافتنا على الطعام بشراهة واضحة، ولما ضمنت (حواء) شعورنا بالألفة تجاهها، عكفتْ تنصب لنا المكائد مثل طاهيةٍ تُسمّن شاتها قبل أن تقوم بنحرها.

انتظرتنا كي نغط في نوم عميق، وهي التي تعرف أن هذا ما سيفعله أشخاص مثلنا بعد أيام طويلة من السير على الأقدام، ثم نهضتْ من بقعتها الكائنة في زاوية الحوش البعيدة، وأخذت تتسلَّل خلسةً على أصابع قدميها. اقتربتْ منّا، تناولت أغراضنا بشكل متتابع، وراحتْ تفتشها دون خوف من احتمالية أن تسترعي حركاتها السريعة والمباغتة انتباهنا.

لا بد وأنها كانت مستعدة للاعتذار، في حال أن قبضنا عليها وهي تقف بجوارنا، فتعيد متاعنا إلى موضعه بخفة ثم تقول مثلًا إنها أرادتْ التقاط صينية الهريس التي تركناها ممددةً على الأرض، أو ربما تخترع سببًا آخر يبرر وجودها بالقرب منّا، لكنّ الظلام ما كان سيسمح لشيء من هذا القبيل أن يحصل أصلًا، فالمرأة كانت قد أطفأتْ مصابيح الزيت المُعلّقة بجدران الحوش قبل أن تبدأ بتفتيش متاعنا.

من المؤكد أن تكون (حواء) قد فعلتْ الشيء عينه مع مسافرين آخرين نزلوا في ضيافة صاحب البيت وتقاسموا الحوش مع أسرتها،

إذ إنّ قدرتها على التنقل بيننا بسرعة وخفة كانت تشي بمهارة لا يصقلها سوى التدريب المتكرر. كانت تتناول متاعنا بُقشةً بُقشة، تُقلبها بأصابع ماهرة، تسبر أغوارها، ثم تتركها حين تكتشف أنها خالية من أي شيء مثير للاهتمام، ولا تترك لنفسها فرصة الابتعاد كثيرًا عن صحن الهريس حتى لا تفقد فرصة التشبث بتبريرٍ ينتشلها من دائرة اللوم في حال لو قبضنا عليها.

كنتُ متمددًا في المساحة الصغيرة الخاصة بي، وعلى وشك الاستسلام للنوم، لما رأيتُها بطرف عيني وهي تنتشر بخفة، تعقَّبتها دون أن تشعر بي، أو هكذا ظننتُ، لكن المرأة الماكرة، وبطريقة ما، انتبهتْ إليَّ، أجل، لقد فعلتْ ذلك في الظلام، فأرختْ على الفور ما كان بين يديها ثم اقتربتْ منّي. أحسستُ بها تتسلّل بخفّة صوبي، وشعرتُ بأنفاسها تقترب مني، وذلك قبل أن تتفرّس في وجهي لتختبر صدق الشخير المتقطع الذي اختلقتهُ كي أتصنّع النوم.

لوهلة ظننتُ أن حيلتي قد انطلتْ عليها، لكن الحيلة التي ظننتُ أنّي أجيدها، وبشهادة (محسون) الذي عاصر جميع جولات (الشيخ قاسم) المفاجئة في منتصف الليل، لم تغلب فطنة المرأة ولو للحظة. لقد قبضتْ (حواء) على ذراعي بقوة ثم شدّتني نحوها كي ترغمني على النهوض، دون أن تكترث بما لو كنتُ نائمًا من الأصل، أو لو كنتُ سأصرخ معترضًا على ردّة فعلها؛ ثم أثبتتْ لي المرأة قدرتها على تولي زمام الأمور بمهارة شديدة حين قادتني إلى الخارج، وعبر باب الحوش؛ لنصبح أنا وهي خارج حدود البيت.

في الزقاق الضيّق الذي يشطر القرية إلى نصفين متطابقين، وقفتْ (حواء) أمامي حتى توارب الباب وتعيد ترتيب وشاحها في الآن نفسه. فعلتْ كلا الأمرين بمهارة قبل أن تسألني عن سبب قدومنا. أخبرتها بأننا مجرّد فقراء يشقون طريقهم من (اليمن) إلى (مكّة)، وألمحتُ إليها بأن المقصد من سفري هو الالتحاق بجماعة دينية تهتم برعاية المشاعر المقدسة، فأرختْ المرأة نصل سِكين كانت تُخفيه خلف ظهرها، وأقرّتْ بأنها لم تكن تريد سرقتنا، وإنما أرادتْ التحقق من سلامة نوايانا. «كثير من العابرين يحملون الأسلحة، إنهم قطاع طرق يتنقّلون في ثياب مسافرين أبرياء»، هكذا قالت لي بعربية ركيكة يبدو أنها قد تعلَّمَتها أثناء سفرها، ولم تتوقف المرأة في إيضاحها عند هذا الحد، بل عَمَدتْ أيضًا إلى استعارة كلمات إضافية كي تزيح بها حاجز اللغة القائم بيننا، وكي تخبرني أيضًا بأنها تعي حجم التعب الذي نمر به بسبب ويلات السفر، وتعي قدر حاجتنا إلى الراحة، مثلما تعي قدر حاجتها إلى قصّ جزء يسير من شعرها كلما مر عليها موقف عصيب أثناء السفر.

قالت (حواء) إنه كلما نجتْ من خطر وشيك، كانت تقص قليلًا من أطراف شعرها ثم تكومه في ربطة صغيرة؛ وذلك على أمل أن تصل ذات يومٍ إلى (مكّة)، فتقوم بدفن شيء منها، وتصبح جزءًا من الأرض المقدسة، لكنها لم توضح لي ما إن كانتْ تفعل ذلك وفق عُرف محليّ توارثتهُ عن أهالي قريتها، أم أنها قد ابتدعتْ هذا الطقس من تلقاء نفسها كي تتصبّر به على ويلات الطريق، إذ بدا الأمر غريبًا

وغير مألوفٍ بالنسبة إليَّ، ولم أقوَ وقتها على مطالبتها بأي توضيح، أو سؤالها عما كانت ستفعله بكومة الشعر في حال إن لم تُفلح في الوصول إلى (مكّة).

قالت لي إنها قَصَّتْ من شعرها أول مرّة عندما توفي زوجها الأول، ثم قَصَّتْ منه مرة أخرى لما التقطتْ ابنها الرضيع وفرَّت هاربة من قريتها على ظهر حمار هزيل، وقَصَّتْ منه مجددًا حين قايضتْ قائد فوج عابر بسوارٍ من فضة حتى يسمح لها بالانضمام إلى المسافرين الذين يقودهم إلى (مكّة)، وقَصَّتْ منه أيضًا عندما أنكر أحد المسافرين حفنة المال الذي أعطته له كي يأتي لها بلوازم السفر، وليس من الغريب أبدًا أن تكون قد قصّتْ من شعرها مرة أخرى بعد نجاتها من هجوم الذئاب عليها، أو أن تقص منه بعد أن اضُطرت إلى ربط قدمها إلى ساق حِمارها كي لا يهرب من هجوم الذئاب مرة ثانية. ولعل الجزء الأكبر من خصلات شعرها هو ذاك الذي قصّته حين استيقظتْ لتجد حمارها قد نفق من شدة التعب، فتلك الخصلات، وعلى حد تعبيرها، كانت أكثر غزارة من جديلتها التي قصّتها حين اقترح عليها قائد القافلة أن تتزوج أحد رفاقها المسافرين كي يتولى أمورها ويتعهد بحماية ابنها.

لم تكن (حواء) تظهر أي شعورٍ بالانكسار أو الحزن وهي تحكي لي حكايتها، ولم يكن معيبًا بالنسبة إليها أن تعترف بحسرتها لقاء موافقتها على الزواج برجل تبين لها لاحقًا أنّه ما كان راغبًا في أي شيء آخر سوى أن يتقاسم معها ما تبقى من مالها. قالت

لي، كما لو كانت تعرفني منذ زمن بعيد، إنها قد ساقت نفسها مثلما تُساق الشاة إلى زوجها، فنجح هذا الأخير في نقل إحساسه بالذَّنب إليها، وصار يدينها بالتقصير في الاهتمام لأمره حتى يواري عدم انجذابه في الأصل إليها، وتطور الأمر حدَّ أنها قد أوكلتْ إليه مهمة الإشراف على مالها كي لا تزداد المناوشات بينهما، وكي لا تقص المزيد من شعرها، فتبدّد المال القليل الذي يملكانه قبل أن يصلا إلى (السودان)، وبطبيعة الحال، توجب عليها أن تخسر المزيد من شعرها.

«أحاول أن أكون صبورة حتى نصل أخيرًا إلى (مكّة)، وحينها ..»، توقفتْ (حواء) عن الكلام قليلًا كي تهنأ بصور الانتقام التي راحت تجري في ذهنها، أو هكذا خُيّل إليَّ، ثم تحوّلتْ لتخبرني بأنها قد تحمّلتْ الكثير من الأهوال، لا سيما في فترة إقامتهم في (السودان)، وأنها لم تصدق كيف قد كُتبتْ لها النجاة لولا المعونات التي جاد بها الغرباء، ولولا ندم مرشد السفر الذي تحسّر لأنه أوصاها بالزواج، فصار يتكفل بتأمين أماكن الإقامة لها ولعائلتها كلما نزلوا ببلدة جديدة.

تُعيد (حواء) سِكينها إلى حزام القماش الذي تشده على خصرها، ثم تتابع كلامها وهي تضبط وتيرة وشاحها. تقول لي إنها، وقبل ركوب البحر من جهة (السودان) بأيام قليلة، وجدتْ ابنتها الأولى من زوجها الثاني مستلقية على الأرض بلا حراك وبقدم زرقاء متورمة، فهرعتْ لالتقاطها وهرولتْ بها صوب البلدة القريبة،

لكن المداوي الشعبي أخبرها أنَّ ثمة أفعى قامت بلدغ الابنة، وأن الله لم يكتب لها النجاة، وهذا ما جعل (حواء)، وبحكم العادة طبعًا، تقص آخر ما تبقى من شعرها. كشفتْ لي رأسها، أسفل ضوء الإتريك المعلق على الباب، فرأيتُ شعرها الخشن القصير وهو يتوزع بأطوال متفاوتة. لقد بدا، ورغم ظلام الزقاق، أن الوقت لن يفلح أبدًا في معالجة شعرها، إذ إنّ المرأة، ورغم مرور سنة كاملة على آخر كارثة أصابتها، لم تتمكن من استعادة صورتها المثالية التي أخبرتني عنها، تلك الصورة التي تُظهرها بشعر غزير تجدله أحيانًا أو تتركهُ مضمخًا بالحناء ومتوهجًا مثل الشمس في أحيان أخرى.

«لقد قدّر الله لي كل هذا»، تقول متصبّرة، وقد تعترف لاحقًا بأن الله، وعلى حد فهمها، كان يختبرها لأنها خرجت من قريتها دون أن تستأذن أهلها، إلا أنّ (حواء)، وبعد إقرارها بالذنب، تعود لتخبرني بأنها، وبمجرد أن تصل إلى (مكّة)، سوف تخرج للعمرة، وستطلب من الله أن يغفر لها، ستدعوه كثيرًا كي تنال رضاه، ولعلها ستحتاج إلى الكثير من الوقت كي تشعر بأنه قد سامحها وصار يحبها، حينها، وفقط حينها، سيعود شعرها إلى النمو، سيرجع جميلًا مثلما كان في السابق، وستنبعث بداخلها جرأةٌ تكفيها لأن تحمل أطفالها وأن تهجر زوجها.

«هل يحبك الله؟» سألتني (حواء) فجأة، فقلتُ لها إني أظنّ ذلك، وهذا بالاستناد إلى اختيارهِ لي كي أعمل في خدمته. أخبرتها عن مدى ندرة الاختيار، وعن كل التجهيزات التي تجيء من بعده،

فأومأت برأسها مصدّقة، لكنها قالتْ لي إنها كانت تشكك فيما إن كنتُ أبادل الله نفس الشعور بالحب.

«لا أعتقد أنك تحبه.. أنا أعرف الذين يحبون الله.. إنهم لا يشبهونك أبدًا». كانت تنظر إليّ كما لو أنها تخترق روحي، وتُدلي بالتصريحات مستندةً إلى حدسها، رغم أنّ هذا الحدس على وجه التحديد قد خذلها في السابق كثيرًا، لكنها في هذه المرّة أقسمتْ بأن ما كانت تقوله صحيح فعلًا، بل وتنبأتْ أيضًا بأنني لن أتحمل عبء العمل في جماعة الأغوات فترة طويلة، وأني سأُعرِض عن خدمة الله، وسيصبح مصيري هو العيش بشكل مأساوي ثم الموت بأبشع طريقة ممكنة.

«سيثبت لك الله أنك لم تُحبه يومًا»، همستْ بصوت خفيض ثم دلفتْ إلى الداخل. لقد تركتني أقف في الزقاق وحدي أفكر في كلامها، وحين أفلحتُ في إقناع نفسي بأن حديثها لم يكن سوى ضرب من الخرف، عدتُ إلى الداخل وتمددتُ على الأرض واضعًا رأسي على بُقشتي. كان الوقت ملائمًا حينها كي أسترجع تفاصيل سفرنا منذ البداية، وأقارن رحلتي برحلة (حواء) المريرة. لوهلة بدا كل شيء مررتُ به تافهًا، رحتُ أفكر في شعرها الفوضوي ووشاحها المتهالك وسكينها القصيرة وجسد زوجها الهزيل وساق طفلتها التي لدغتها الأفعى، فراودني الشعور بأن البحر الذي كاد يقتلنا لم يكن سوى صديق آمن جدًّا، لقد كان مجرّد بقعة ماءٍ مَوَّهها أهل (الحبشة) بلون الغرق.

٨

بعد نصف ساعة تقريبًا من انهيار جدار الحمام فوق ساقي، هطلتْ عليَّ أول فرصة للنجاة. لقد جاءت من قبيل الصدفة عندما استوقفتْ صيحات استغاثتي خيال شابٍ كان يحاول الفرار من مياه السيول. وثب الشاب بجسده الممشوق النحيل فوق سيارة الدفع الرباعي المرتطمة بالجدار، ثم أطلّ عبر الفجوة الكبيرة، فكنتُ هناك بدوري، متمددًا في حوض الاستحمام، وعاريًا من كل شيء، إلا فرصة وحيدة أستغلّها لموارة المساحات المكشوفة من جسدي. «ساعدني يا ولدي، لقد سقط عليّ الجدار أثناء استحمامي»، قلتُ له عبارة استجداء تافهة مثل هذه، لكن استغاثتي، ورغم صدقها، لم تُفلح في انتشاله من حالة هذيان مطوّلة أعقبها تساؤل جاء على نحو بليد:

- إيش ذا يبويا؟

لهجته الحجازية المفتعلة كانت تشي بأنه ليس من سكان المدينة الأصليين، وإصرارهُ على نُطق (الذال) بتلك الطريقة المريعة كان يدلّ على أنه ينحدر من إحدى العائلات البدوية التي استوطنت (جدّة)

منذ مدة ليست بالبعيدة، لكن هذا ليس بالغريب أبدًا، إذ لطالما تميّز حيّنا بأنه وِجهة استيطان ملائمة لعموم الأشخاص النازحين. أخذ يجول بعينيه سريعًا حتى يفهم ما كان يدور حوله، تأمَّل الفوضى بنظراتٍ فاحصة تبعثها عينان غائرتان عميقًا في محجريهما، ثم، وبعد ثوانٍ قليلة، رفع حاجبيه دهشًا وقال لي بغباء عجيب:

- تراك رح تغرق!

قلت له حانقًا:

- لا يا شيخ؟

فتعجّب من ردة فعلي، لكنّه سارع بالهبوط نحوي كي يشرع في إنقاذي، وذلك بعد أن أدرك بحدس طارئ أن الموقف العصيب الذي نعاصره لا يحتمل ملاحظة بديهية مثل تلك. حاول إزالة القطع الأسمنتية العنيدة لكنه فشل. عاود تكرار التجربة، صرختُ بصوتٍ عالٍ جراء الألم، فتوقف عن المحاولة. كان واضحًا أنه في حاجة إلى جلب مساعدة إضافية كي يخلصني من مأزقي. راح الشاب يصرخ مستنجدًا، لم يستجب له أحد، أطلّ برأسه خارج الكوة بحثًا عن أيما شخص قريب، خاب رجاؤه، فتحوّل نحوي كي يعاود إزالة الركام بمفرده، لكنه توقف بعد أن أثبتتْ له صرخاتي المستمرّة أنّ كل جهوده ما كانت مجدية، وإنما راحتْ تزيد من كارثية الأمر.

من مسافة قريبة، يمكن لتفاصيل الشاب أن تبدو عادية بعض الشيء، لكنها، ولسبب لن تعرفه، سوف تُحرّضكَ على التمعّن فيها

لفترة طويلة، شعرٌ أسود فاحمٌ يبلله الماء، أنف رقيق، حاجبان متقاربان، ولكن غير متّصلين، وقفصٌ صدري يبرز بجُرأة مشهودة من تحت بشرة حنطية فاتحة، كما لو كانت أضلاعه سعيدة بخروجها من أسفل القميص الرياضي المخلوع والمُثبّتْ على خاصرة تبرز منها عظام الحوض بشكل لافت. لربما كان السروال الداخلي الأبيض، والذي بزغ طرفه من خلف بنطال رياضي طويل، إشارة إلى أنّ الشاب لم يتمدّن بشكل كامل، أو أنّه لم يلحق بركب الشباب العصريين على أقل تقدير، أولئك الذين تخلّوا منذ فترة طويلة عن ارتداء (الِهافات القطنية)، وجعلوا يلبسون سراويل (البوكسر) المستوردة ذات الألوان البرّاقة، لكنّ هذا لا يعني مطلقًا أنه لم يكن يحاول مجاراة التغيير من حوله، إذ إنّ سوار الخرز الذي يضعه على معصمه كان يؤكد رغبته في الخروج بكافّة الطرق الممكنة عن الصورة التقليدية لابن البادية المتزمت.

«تُرى كم يلزمه من الوقت حتى ينتشلني من هنا؟» رحتُ أسأل نفسي وأنا أطيل النظر إليه، ثم خمّنت أنّه كان يشعر بالضيق من أثر البلل الذي أصابه، فسحب الشاب خصلةً هاربة على جبينه وشدها فورًا ناحية الخلف، فعل ذلك بتلقائية مطلقة كما لو أنه كان يستجيب لأمري. وحين قلتُ لنفسي إنّ إطالة وقوفهِ بلا قميص سوف تجعله يشعر بالبرد، عجَّلَ الشاب بفرك كتفيه وذراعيه كي يمنح نفسه بعضًا من الدفء، ثم عاد إلى محاولة حمل الأنقاض عنّي وهو يقاوم رعشة خاطفة جعلتهُ ينتفض مثل عصفور هزيل. لوهلة

ظننتُ أنّ الأمور كانت تسير بشكل متوقع، لكنني أصبتُ بخيبة أمل كبيرة عندما فشل الشاب في دفع الأنقاض عني، وعندما خرّ مُجهَدًا على أرض الحمام التي أغرقتها مياه السيول بمقدار شبرين تقريبًا. راقبتهُ وهو ينظر إليّ بتبلد تصحبه بعض الربكة، ينقل بصره بتردّد بين قطعة الأسمنت والتكوّر الذي أغطي به عانتي، ثم يشيح ببصره بعيدًا كما لو كان يفكر في أمر آخر. ها هي ذي نفس التعابير التي تملَّكت (محسون) حين انتهى السفر ووصلنا أخيرًا إلى (مكّة)، إنني أراها على وجه الشاب الغريب كما لو كنتُ على وشك الخضوع مرة أخرى لرغبة شيخ الأغوات بأن أكشف له عن عورتي.

لكأنّي أرى (محسون) وهو يقف أمامي مكبّل اليدين، حائرًا، يشرد ببصره نحو البعيد حتى لا يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يفهم الطريقة التي يتكون بها جسدي. أتذكر (محسون) بشكل جيد عندما تسمَّر خلف ثلاث أغوات جاء بهم شيخ الأغوات في (مكّة) للشهادة على أن ذكوريتي معطوبة. إنه لم يقفز من شدة الهلع حين كشف (الشيخ) عن جسدي بشكل فاضح، ولم يقاطع (الشيخ) محتجاً وهو يقول، «ما الحاجة إلى اللمس؟ كل الأمور واضحة»، بل أشاح ببصره نحو البعيد؛ كمن يريد إخباري بأنّه قد نال كفايته من الخذلان، هذا ما فعله الشاب البدوي أيضًا، أشاح بوجهه نحو البعيد حتى أجد نفسي مضطرًّا إلى أن أتدخل لوضع نهاية لائقة لهذ المشهد:

- أنا مخصي.

قلتُ للشاب البدوي مقاطعًا وأنا أشير إلى فرجي، تمامًا كما

قلت لشيخ الأغوات في (مكّة)، ولم أجفل عن المغالطة المتعمّدة، أو عن كوني في حقيقة الأمر مجبوبًا، إذ إنّ وقع كلمة (مخصي) على الأسماع لا يمكن أن يغلبه أيّ تأثير آخر، كما أنه يعفيني من أي سؤال غبي قد يجيء على غرار، «وماذا يعني مجبوب؟».

لقد تسمَّر الشاب البدوي أمامي وراح يُطأطِئ رأسه بتتابع بليغ في محاولة منه لإعادة تقييم حالتي. أشرتُ إلى الركام، فلم ينتبه، حاولتُ إزاحة بعض القطع بيدي، فخارتْ قواي، ولم يفق بدوره على حقيقة احتياجي إلى المساعدة إلا حين صرخت:

- هيه، ترانا حنغرق!

فعقَّب مستدركًا:

- طيب طيب.

كان الوقت ملائمًا حينها كي يمنحني الشاب توصية طارئة بأن أُبقي على كلتا يديّ مكانهما ريثما يجد شيئًا يساعده على رفع الأنقاض عني، فغادرني في اتجاه حجرات المنزل، وتركني رفقة الكثير من ذكريات وصولي إلى (مكّة).

رأيتُ في مخيلتي شيخ أغوات (مكّة) مجددًا وهو يتصنّع نفض الأوساخ عن أصابعه بعد أن أتمَّ التحقق من أهليتي، ثم رأيت أحد رفاقه وهو يستنكر اتساخ ثيابي وهيئتي الرثة، وكأنه لا يعلم أنني قد فرغتُ للتو من مشوار سفر طويل. «أنت مُتَّسخ جدًّا»، قال (الشيخ) متقززًا؛ على الأرجح حتى يبين لي أنّ النظافة تعني

له الشيء الكثير، فاستنتجتُ وقتها أن العمل معه يقتضي أن يكون المرء نقيًّا جدًّا، وأن يرتدي ملابس براقة وبيضاء تشبه تلك التي يرتديها (الشيخ)، ولما منحني ظهره أخيرًا، بعد أن أوصى رجاله بتقديم ثيابٍ نظيفةٍ إليَّ، فهمتُ أن قبولي للعمل تحت وصايته بات أمرًا مؤكدًا. كان ذلك هو نفس الوقت الذي فهم فيه (محسون) أنَّ موعد فراقنا قد حان، فعانقني سريعًا ثم ابتعد عنّي بخطوتين إلى الوراء قبل أن يرمق بشيء من اللاتصديق -وللمرة الأخيرة- ذكوريتي التي سَتَرَها ثوب سفري المتّسخ مجددًا.

لقد منحني (محسون) نظرة خاطفة ثم غادرني مثلما فعل من قبله الكثيرون، ولم أعرف إلى أين كانت وجهتهُ إلا بعد أسبوعين تقريبًا عندما التقيته مصادفةً حين تقرر انتقالي للعمل لدى شيخ الأغوات في (المدينة المنورة).

قد يبدو تصرف (محسون) هذا أحمقاً وأنانيًّا، أقصد أن يمنحني ظهره بسهولة شديدة بعد سبع سنواتٍ أمضيناها معًا تحت وصاية (الشيخ قاسم)، لكنّ الحقيقة، وكما أخبرني بنفسه بعد عدة أعوام، هي أنّه قد رحل عنّي بسبب شعوره بالخيانة المطلقة. «كنتُ ساذجًا حينها»، صرَّح لي في لقاء لاحق وهو يُحمِّل نفسهُ وزر التخلّي عنّي، وقال بأنَّ الأمر قد بدا له منطقيًّا وقتذاك، حين شعر بالاستياء منّي لأنّي لم أخبره بأنني كنتُ مجبوبًا.

على أية حال، تركني (محسون) في نفس اليوم الذي وصلنا فيه إلى (مكّة)، فذهب كما هو مقررٌ له للإقامة لدى أقرباء (للشيخ

قاسم) في الطرف الآخر من المدينة. كان يسأل عن حالي من دون إعلامي بذلك، عرفتُ هذا في وقت لاحق أيضًا، ولم يقرر الرحيل من (مكّة) بشكل نهائي إلا بعد أن ضمن راحتي بشكل كُلّي، فانتظرَ لحظة وصول إفادة الحكومة بالموافقة على منحي الجنسية السعودية والحصول على معاشٍ شهري ليستوقفني في أحد الأزقة، وبين مجموعة أكشاك خشبية تلتصق بالمباني وتتحول إلى دكاكين في مواسم الحج، كي يقول لي إنه سيذهب للعيش في (جدّة). شكرتهُ وقتها، وقلتُ له إنني أتمنى له الحظ الطيب، لكنني لم أغفل عن ذاك الدمع الذي كبح جماحه كي لا يبدو ضعيفًا أو مهزومًا أمامي.

لم أخبره بأنني كنتُ سأنتقل للعمل لدى شيخ أغوات آخر في (المدينة المنورة)، فهذا كان سيجعله أكثر قلقًا على مصيري، وكان سيحرّض الدمع على السقوط غدرًا من جيوب عينيه، لذا تركته يغادرني دون قلق، ورحتُ أتابعه وهو يسير أولًا في اتجاه الطريق العام، ثم ينعطف نحو اليسار كي تبتلعه شوارع (مكّة) المتعرّجة.

بنفس الطريقة التي انسحب بها (محسون) تدريجيًّا، انسحب الشاب البدوي الذي جاء لانتشالي من تحت الأنقاض، اختفى في ظلام بيتي الدامس بعد أن ترك لي وعدًا بأن يعود إليّ مجددًا رفقة ما قد يساعده على إخراجي. طال غيابه، وطال نظري إلى قطع السيراميك الخضراء الرخيصة التي تزين ما صمدَ من جدار الحمام، فرأيتُ انعكاسي الذي حدث بشكل مبهم نتيجة تسرب ضوء النهار من خلف السحب ومروره عبر الفراغ الذي خلفه الجدار. «تُرى

هل كنتُ سأغامر بإنقاذ هذا الرجل الحبشي العاري لو أنني كنتُ مجرد شخص عابر؟ ما الذي يدفعني إلى وضع حياتي على المحك أو حتى الولوج إلى بيت مهدد بالانهيار من أجل هذا الذي أراه على الجدار؟ هذا المُسنّ، إنه إن لم يمت بفعل الغرق فسيموت قريبًا بسبب تقدم العمر؟».

أهز رأسي كي أطرد هذه الأفكار عنّي، ثم أنصرف إلى التفكير فيما يفعله الشاب النحيل داخل منزلي. «تُرى هل سيجول بحذائه المتسخ في كل مكان؟ إنه سوف يفسد سجاد حجرة المعيشة التبريزي والمغمور بالماء أصلًا»، أفكّر، ولا أعلم فيما لو كان من الواجب أن أصرخ فيه كي يخلع نعله المطاطي قبل التنقل في أرجاء البيت، إذ إن من المحتمل أن يدفعه تصرّفي هذا إلى التبرّم ثم المغادرة من دون مساعدتي؛ لذلك أتقبّل على مضض احتمالية أن تصافح قسوة نعاله براءة سجادي، وأتعهَّد بغسل جميع المنسوجات، وليس السجاد فقط، بمجرد خروجي من هذا المأزق اللعين.

أسمع صوت جلبته بالداخل. لوهلة يبدو الأمر كما لو أنّه قد أسقط شيئًا، أناديه، وقد أتصنّع قلقي عليه حتى لا يفطن إلى قلقي على الخزفيات الرخيصة، فيرد عليَّ بكلام مُبهم يقودني إلى الاعتقاد بأنه ما زال يبحث عن أي شيء يعينه على إزالة قطع الأسمنت الواقعة عليّ.

في وسعي انتظارهُ في هذه البقعة الضيقة، حتى وإن طال الأمر كثيرًا، فأنا قد انتظرتُ من قبل ذلك لفترات طويلة. انتظرتُ

اطمئنان (الشيخ قاسم) بشأن وصولنا، وانتظرتُ أيّة أخبار عن أمي وعن (مونا)، وانتظرتُ الحافلة التي أقلّتني من (مكّة) إلى (المدينة المنورة)، وانتظرتُ كذلك سبعة أعوامٍ كاملة وأنا أعتكف في المسجد النبوي، وذلك كشرطٍ أساسي لانضمامي إلى جماعة الأغوات في (المدينة). لا شيء يمكنه أن يُعلّمك الصبر مثل تزجية العشرينيات من عمرك وأنت تتمرّسُ على(الانتظار).

اقتصر دوري حين وصلتُ إلى (المدينة)، وطوال سبعة أعوام من الاعتكاف، على فتح أبواب المسجد، وإرشاد المصلين، والتجوّل في ساحات المسجد النبوي رفقة طست معدني وإبريق من النحاس كي أنظف بول الأطفال الأشقياء وأكنس خراءهم. أبيت في المسجد ليلًا ونهارًا كي أنتظر نداءً يأتي من البعيد مُنبّهًا، «يا أغا.. يا أغا.. فيه واحد شخ»، فأحوم ببصري بحثًا عن بقعة نجسة أغسلها بالخرقة البالية التي تسبح وحيدةً في طستي، وحين يرمي الليل بأستاره أخيرًا، وتبدأ جموع المُصّلين بالخروج من المسجد، يكون الوقت قد حان وقتها لإخراج النسوة الجالسات حتى آخر لحظة. أدنو منهنَّ بحياء صبي لا يُخشَى من ذكوريته المنهوبة، وأطلب منهنَّ التوجّه صوب أيّ باب قريب، فيباطئن في الامتثال لأمري أولًا، لكنهنَّ يلتقطن أذرع أبنائهنَّ ويشرعن في إخلاء المكان حين يُدركن أن الوقت قد تأخر فعلًا. وقد لا يبدو عليهن أنهن يكترثن لأجلي، ولا يتوجسن من التعامل معي بصفتي ذكرًا، مثلما هو حالهنّ حين يتواصلن مع رجالٍ لا يعرفونهم، فأفطن من تعابير وجوههن،

وكذلك من عدم اكتراثهن في حال لو ارتطمتْ بي إحداهن عن طريق المصادفة، إلى أنَّهن لم يعتبرنني ذات يومٍ رجلًا أصلًا، وأن اختلاطي بهنَّ في ساحات المسجد لم يشكل لهنّ أيَّ تهديد يُذكر.

كان (الأغا إسماعيل)، شيخ أغوات (المدينة)، أقلّ حِدَّة من قرينه الذي يعيش في (مكّة)، بيد أنّ كليهما كان شديد التعلّق بالهيئة الخارجية لجماعته، وما قد يقوله الناس عن أفرادها، رغم أنّهما كانا يعملان بشكل مستقلٍ تمامًا.

بإصرار متعمّد، دفعنا (الشيخ إسماعيل) إلى إبراز الهيبة التي منحنا الله إياها على حدّ قوله، إذ اعتاد حثّنا على الوقوف صفًّا واحدًا بثياب بيضاء طويلة تعلوها فرجية بيضاء أيضًا ذات فتحة واسعة من الأمام. نتراصّ متجاورين قبل أن تبدأ وردية العمل داخل المسجد النبوي، فيلقي علينا في بعض الأحيان خطبًا مطولة عن مدى ضرورة التعامل مع الآخرين بلباقة تامّة، وتجنب المناوشات والسباب والشتائم، ثم ننطلق بعد ذلك إلى التجوّل في أرجاء المسجد المترامي الأطراف كي نضمن نظافته بصفة دائمة، حتى إذا ما فرغنا من مهامنا اليومية وتأكدنا من مغادرة آخر المصلين، عُدنا للالتقاء به مجددًا إلى جوار (باب جبريل). كنا نتهادى نحوه بأجساد منهكة أرهقها عبء العمل منذ الفجر وحتى وقت متأخر بعد العشاء، لكننا لا نظهر في مستوى رؤيته إلا بعد التأكد من أنّ ملابسنا لا تزال نظيفة ومؤنقة كما لو أنّ اليوم الذي أوشك على الانتهاء لم يبدأ بعد.

«صَلّح حزامك»، يقول لي وهو يشير إلى حزام من الصوف أشدّه عليَّ، ثم يجثني على تصويب ارتخائه ببديهة رجل سبعيني لا تغالبه كثرة التفاصيل ولا يتقاعس يومًا عن إبداء استيائه من فشلي كحالة خاصة، ومن فشل جميع الأغوات على حد سواء في التنبه إلى الأمور الدقيقة. حتى في اللحظات الحرجة التي تسبق قدوم شخصيات اعتبارية لزيارة المسجد، لم يكن (الشيخ) ليفوِّت أيّ شاردة أو واردة دون أن ينبِّه إليها وإلى مدى ملاءمتها للمعاير الدقيقة التي يضعها بنفسه، طريقتنا في اللبس مثلًا، طريقتنا في المشي، طريقتنا في الكلام، وحتى طريقتنا في ملازمة الصمت، لقد كان يقظًا في سائر أحواله على الرغم من أنّ بوادر الشيخوخة وعلامات الانطفاء قد بدأت تظهر عليه.

(الشيخ)، هكذا اعتدنا أن نناديه، لقد كان هو الآخر خصيًّا حبشيًّا ممن قدموا إلى (المدينة) رأسًا قبل أن يصبح للأغوات حارة يتكدسّون فيها. طوال معرفتنا به تمرّس على إخبارنا عن قصة هجرته، وهو يقرن وجودهُ في (المدينة) بالدور المهم الذي لعبه في تأسيس حارة الأغوات جوار المسجد النبوي. قال لنا أشياء كثيرة عن الطريقة التي اختار بها هو ورفاقه الأولون تلك البيوت القصيرة المتجاورة، والتي تحولت لاحقًا إلى حارة لا يسكنها الأغوات فقط، بل عامة الناس أيضًا، ولعلّ اعتزازه كان يتعلّق بشكل رئيسي بمنزل ذي طابقين يجاور (الرُّستمية)، وهي دار عِلم عتيقة أقامها أحد الباشوات العثمانيين قبل نشأة حارة الأغوات.

لقد نجح (الشيخ) في تحويل المنزل إلى مقرّ رسمي له ولمن يعقبه في رئاسة الجماعة، وراح يتحدَّث عنه كما لو أنه كان شخصًا حقيقيًّا فعلًا. «أحبه كثيرًا»، هكذا يقول لنا وهو يحثنا على الاهتمام بتفاصيل المنزل، حتى وإن بدتْ صغيرة أو تافهة، فيأمر صغار الأغوات بتنظيف الرواشين وكنس العتبة وإزالة خراء الطيور التي تحاول -مجرّد محاولة- أن تركن إلى الفجوات التي تنتشر في السطح، ولما يُلمِّح أحدٌ إلى أن هذا المنزل كبيرٌ بالنسبة إلى (الشيخ إسماعيل) ولزوجته التي استوردها حديثًا من (الحبشة)، ليس بغرض المضاجعة وإنما كي تغسل ملابسه وتهتم بشؤونه، ينظر (الشيخ) إليه بحيرة ثم يقول باستخفاف مُطلق، «أنتم لا تفهمون.. إنكم فقط لا تفهمون».

لطالما كان (الشيخ) يشعر بالاستياء إزاء فشلنا في تقدير الصورة المثالية التي رسمها لنا، تلك الصورة التي جعلتْ أهالي (المدينة) يعاملوننا بكل احترام وتبجيل. «إنهم يحاولون التقرّب منّا»، اعتاد أن يكرّر ذلك على أسماعنا قبل أن يتساءل مستنكرًا، «وإلا ما الذي يجعلهم ينتقلون للسكن بجوارنا؟».

في نهاية خدمتي التي امتدتْ سبع سنوات، تحوّلت مهامي من مجرّد التجول بطست التنظيف إلى تبخير المسجد وكنس الحجرة النبوية وتنظيفها، وهو ما اعتبره الكثيرون خروجًا سافرًا عن الأنظمة التي وضعها (الشيخ إسماعيل) نفسه بصرامة تامة، تلك الأنظمة التي تقتضي تمضية فترة أطول مع الجماعة قبل أن أقوم بهذه المهام. لربما كانت تلك هي طريقة (الشيخ) في التعبير عن امتنانه لي، لا سيما حين

عهد إليَّ بمهمّة فتح المنبر ووضع العصا التي يتوكأ عليها الخطيب حين يرتقي السلالم تأهبًا لإلقاء خطبة الجمعة. كنتُ وحدي من يبدي لأجله الاستعداد التام بالالتزام بمعاييره الصارمة في التنظيف والهندمة، ووحدي من كان لا يعيره بالخوف من المرتفعات كلما سأله شخصٌ عن السبب الذي يجعله يترك الطابق العلوي من بيته شاغرًا، ويكتفي فقط بالسكن في الطابق الأرضي.

أذكر أنّي كنتُ أحاول مداهنة (الشيخ) في تلك الفترة كي أمنحهُ شعورًا زائفًا بأنّه ما زال يُحكِم السيطرة على زمام الأمور، خصوصًا حين بدتْ علامات الشيخوخة والخرف تظهر عليه بشكل تدريجي. لمرات عديدة تصنّعتُ الخوف منه ومنحتُ نفسي رعشةً زائفة كي أوهمه بأنّ هيمنته ما زالت على قيد الحياة، فعلتُ هذا بالتزامن مع اعتياد نائبه الأغا (أحمدو)، أو (النقيب أحمدو) مثلما تنصّ سلالم الأغوات الوظيفية، على التدخّل في كل صغيرة وكبيرة.

«ما كان هذا ليحدث في السابق»، هكذا كان يقول صِغار الأغوات وهم يشاهدون (النقيب) وهو يشد ذراع (الشيخ) في مواقف متكررة كما تفعل الأم بابنها الشقي، يناكفه أحيانًا ويخالفه الرأي في أحيان أخرى، دون أن يركن إلى التفكير فيما قد تفعلهُ تلك التصرفات الطائشة بنا. أما بالنسبة إلينا، وأقصد هنا صغار الأغوات الذين ما كانوا يحلمون بالصراع على الزعامة، فلم نكن لنتجرأ وقتها سوى على التكهن بما ستؤول إليه الأمور في حال ساءت أحوال (الشيخ إسماعيل) بدرجة أكبر.

أفكر الآن، وأنا أنتظر عودة الشاب البدوي لإنقاذي من أسفل الركام، بأن ثمة الكثير من التجمعات كنتُ أراها تُقام في زوايا المسجد، وبشكل مقتضب وسِريّ؛ لمناقشة المهام القاسية التي قد يبتدعها النقيب (أحمدو) كي يلمح إلى الجميع، وبطريقة فجّة، أنه أصبح مسيطرًا على زمام الأمور. يتهادى إلى مسامعي همس صغار الأغوات، ولعلّي أتخيل معهم صورة العالم الخارجي وهو يتحول بشكل سريع إلى حارة ضيقة من شارع واحد يسكنه أغوات يطأطئون رؤوسهم من أجل النقيب (أحمدو)، والذي كان رجلًا خصيًّا قد جاء من السودان صغيرًا وعاش طوال حياته بين تعنّت الأغوات (الحبوش) وقوانين شيخهم الصارمة.

«تُرى هل سيقتص منّا؟» تتوافد أسئلتنا على نحو ساذج، كل واحد منّا يبدو قلقًا إزاء المصير الذي سوف يُقاد إليه، ويجزم البعض منا بأن الأمر لا يختلف كثيرًا بالنسبة إلى أهالي الحارة نفسها، لا بدّ وأنهم كانوا يفكرون في احتمالية موت (الشيخ إسماعيل) واحتمالية قدوم شخص آخر لا يبدو من هيئته ولا سلوكه الفظ أنه راغبٌ في المحافظة على حالة الود المنتشرة. أما بالنسبة إليَّ، فلا أعتقد أن القلق من نوايا النقيب (أحمدو) كان مستيقظًا داخلي، ولم تكن تراودني الرهبة مما سيحدث بعد وفاة (الشيخ) بقدر ما فعل السؤال الطارئ وقتها، تُرى إن مات (الشيخ)، كيف سيصعد إلى الجنة وهو يخاف المناطق المرتفعة؟

٩

«فعلتها الفاجرة.. فضحتنا الكلبة بنت الكلب»، شَتَمها للمرة الألف وهو يواصل توغّله في أزقّة الحيّ، ولربما شتم كذلك والدتها ووالدة والدتها أيضًا قبل أن يمد يده ويترك طَرقة حادة على باب بيت النقيب (أحمدو) أملاً في استدعائه. كنتُ أقف خلفه وأنا أراقب غضبه المفرط يخبو قليلاً، أقصد (أمين الأغوات)، والذي أدرك احتمالية أن يستيقظ أهالي الحارة على صوت جلبته القادمة في وقت متأخر من الليل، لذا راح يضع طرقاته بمهلٍ على صدر الباب، مدركًا في قرارة نفسه أن من شأن حركة إضافية واحدة أن تحُرِّض أحد الجيران على النهوض من مرقده كي يشجب بصوتٍ جهوري، «ما تشوف إنك صحيتنا ياسر سري؟».

راقبتُ (أمين الأغوات) وهو يتلفّتَ حول نفسه مرَّات عديدة، كان الكل نيام على ما يبدو، لا أضواء ترتعد من خلف النوافذ حتى تفضح السهرانين، وهذا في حد ذاته كافٍ لأن يحرضه على قرع الباب مرّة أخرى، لكن بطريقة أقلّ خجلاً. وحتى أصدقكم القول،

لم تكن يد الرجل قاسيةً على الخشب بشكل مبالغ فيه، لكن وقعها بدا أشدّ وطأة علينا نحن الاثنين بحكم كارثية الموقف، وبحكم عدم ملاءمة الضوضاء لأزقّة يتجاوز عرضها المترين، ولا أعرف بالتحديد كم يكون عمقها.

عاد (الأمين) ليطرق الباب بكثير من التردد. لوهلة ظننتُنا نقف أمام الباب الخاطئ؛ فالعتمة خارج رأسي شديدة جدًّا، وباب منزل (النقيب) لا يختلف كثيرًا عن بقية أبواب الحارة. حتى مصابيح الزقاق الصفراء، والتي كانت تشتعل قليلاً ثم تعود لتغفو فترات طويلة، إنها هي الأخرى قد بدتْ متواطئة مع الظلام، وراغبةً في إضافة المزيد من الرهبة والمشقّة علينا، «هل يمكن أن يكون وقوفنا أمام الباب الخطأ مثلاً؟» يراودني الشك، لكنني أعود لأطمئن نفسي، بأنني أحفظ أزقة هذه الحارة الموبوءة بالالتواء عن ظهر قلب، وأنا قادرٌ على عَصب عينيَّ، وقطع المسافة الطويلة من شرق المسجد النبوي حتى الزقاق المتفرّع قُبيل بوابة مقبرة البقيع دون أن أبصر، متجاوزًا بذلك الرابية التي هذّبها البناؤون على عجل لتسهيل مرور الجنائز ووفود المُشيّعين، لكن سيتحتم على مروري أن يقترن بحالة مزاجية أفضل، لا يشوبها أي شيء من التوتر، كما سيتحتم على الباعة المتجولين أن يزيلوا عربات بضائعهم المركونة كيفما اتفق حتى لا أرتطم بها دون قصد، وحتى يصبح في مقدوري الجزم، ودون الإبصار، بأن الباب الذي وقفنا أمامه في تلك الليلة لا يمكن أن يكون سوى باب بيت النقيب (أحمدو).

بعد محاولات الطرق الفاشلة، تحولنا أنا و(الأمين) إلى ذرع الأمتار القليلة التي تفصل بين باب بيت (النقيب) وشبّاك حجرة الضيافة التي في الزاوية، وأخذنا نطرق كل ما يمكن طَرقه، طرقنا الطين.. طرقنا الطوب.. طرقنا الخشب.. لكنَّنا فشلنا في انتزاع (النقيب) من أحضان زوجته على ما يبدو، والتي أَقسَم لأهل الحارة مرارًا أنه لم يتزوجها لأي غرض شهواني، وإنما كي تهتم لأمور بيته.

«إنها حتى لا تنام برفقتي في الحجرة نفسها»، هذا ما قاله (النقيب) لمؤذّن المسجد أثناء مناكفة مقصودة. كان المؤذن قد أدانهُ يومًا -ومن باب المزاح- بأنّه يداعب زوجته التي استقدمها من (الحبشة) حتى طقس متأخرٍ من الليل، مستدلاً على ذلك بغياب صوت شخيره الذي ألفنا سماعه وهو يجوب أزقّة الحارة مثلما تفعل جرّة الماء على كتف السقّا، فما كان من (النقيب) إلا أن ينفي تلك الشبهة بادعاء انتقاله إلى النوم في حجرة في أقصى الدار.

لحظات قصيرة وأطلَّ من بعدها (النقيب) مستنكرًا، هطل من خلف الفتحات العريضة للشباك وهو يحوقل بامتعاض، ثم سأل «مين مات؟» لكنه لم يكن معنيًّا بالإجابة بقدر ما كان راغبًا في التحقق من جدوى ايقاظه في وقت متأخر من الليل، فهو بطبيعة الحال لا يعتبر الموت أمرًا كارثيًّا، لا أحد في تلك الحارة كان يفعل، ومن ذا الذي سيكترث أصلاً بأخبار الموت في حارة تربط بين مسجد ومقبرة، وتعبرها ثلاث جنازات على الأقل يوميًّا؟

- افتح يا (أحمدو).. زوجة (الشيخ) وضعت مولودًا.

قال (الأمين)، فسأله (النقيب) ببله عجيب:

- أي شيخ؟

- (الشيخ).. (الشيخ إسماعيل).

فكّر (النقيب) في احتمالية أن يكون الأمر برُمّته مجرّد طرفة عابرة، ولعله اعتَقَدَ لوهلة أن ما يجري سببه رغبة جامحة في إفساد وِدَّ ليلته التي قضاها نائماً، على حد ادعائه، إذ لا يمكن لزوجة شيخ الأغوات الخصي أن تضع مولودًا، هذا أمرٌ لا يمكن أن يطرأ، لكنّ حضور (الأمين) على هذا النحو، وهو رجلٌ رصين لا يعرف الهزل، ويلي النقيب (أحمدو) في تسلسل الأغوات الهرمي، جعل (النقيب) يتناول الخبر بجدية مطلقة.

وزّع (النقيب) أصابعه على مزلاج الشباك فأطلق سراح الخشب وكشف عورة بيته تمامًا. ها هي أضواء الأتاريك بالداخل تبدو مستيقظة على غير المتوقع، تضيء كل شيء، وتساعدني أنا و(الأمين) على حد سواء في مهمة اقتناص تعابير القلق البادية على وجه (النقيب):

- أقسم بالله إنها جابت ولد.

عقّب (الأمين)، فجاء تساؤل (النقيب) مصحوبًا بالكثير من البَلَه:

- بس كيف؟

لاذ (الأمين) بالصمت فتحتّم على (النقيب) أن يقف بمعيّة الحيرة حتى يعثر على تبرير شرعي لحادثة المرأة التي استطاعت أن تحبل رغم غياب أعضاء زوجها الذكورية، ولما طال تفكير (النقيب)، وتضخّمت احتمالية تنبّه أحد الجيران لتجمعنا المريب في ذاك الوقت المتأخر، وجد (الأمين) نفسهُ مُضطرًّا إلى إنهاء تلك الزيارة على عجل، فعمد إلى انتشال (النقيب) من مستنقع أفكاره، وهو مستنقع يحوي في قاعه فرضية واحدة ووحيدة، أنّ (عَشّة)، زوجة (الشيخ إسماعيل)، ضاجعت رجلاً غريبًا وحملت منه سفاحًا:

- تعال بسرعة معايا عشان نشوف الهرجة.

قالها (الأمين) مُتعجّلاً، فأزلجَ (النقيب) شباكه الخشبي بانصياع تام، وعاد إلى الداخل كي يتأهب للخروج فورًا برفقتنا. إذعان (النقيب) بذلك الشكل كان يشي بفداحة الأمر، إذ لا أحد عادةً يملي عليه ما يفعل، ولم تكن لتوجد أيّة أسباب تدفعه إلى الهرولة كالمجنون من دون أن يضبط هندامه أولاً ثم يتقمّص شخصية القائد الصلب والمتخشّب.

لقد تخيَّلتُ (النقيب) في تلك الأمسية وهو يغلق النافذة من خلفه، ثم يعود إلى زوجةٍ من شدَّة الشبق هي عذراء، فيجدها لا تزال متمددة بغنج على فراش مشترك، تحُرِّك بملقطها الطويل خشب عودٍ يحترق في مبخرة تحُمل باليد. لعله يتأملها أولاً، ثم يفكر في أن استلقاءها على ذلك النحو، ومن قبل ذلك مداعبتها لقطع الخشب المحترق، ما هي إلا محاولات مكشوفة لإذكاء نار

الرغبة في داخله، لكنّ نزعته إلى الانقضاض عليها، أو بالأصح، نزعته إلى إثبات قدرة أصابعه السمراء الطويلة على إخماد ألسنة الشهوة المتّقدة بها، تموت بسبب الخبر الصادم الذي زفّه (الأمين)، فيستشيط (النقيب) غضبًا لأنها لم تمكنه من نفسها في أول الليل، ثم يعاتبها لأنها أضاعت الوقت كله في التغنج وتصنّع التمنع، إذ ها هو الآن مجبرٌ على إعادة جدولة لقائهما الحميمي هذا، والذي تم تأجيله أكثر من مرة بسبب الخوف من رقابة الجيران وفضول أهل الحارة.

«دحين يا وجه البومة؟» يقول لها بفظاظة لا تتلاءم مع حالة التودد التي كانت تعتريه قبل أن نطرق بابه، هكذا أتخيّل، ثم يأمرها بالنهوض لإحضار ثيابه من حجرة مجاورة، فتقوم من مرقدها بتبرّم واضح حتى تجلب له ثيابه وتساعده في ارتدائها، لكن هل كان من المعقول أن تغامر المرأة بإدخال يدها عبر فتحة وزرته الأمامية عند عودتها كي تُداعب (فراغه)؟ لعلي كنتُ وقتها أقل إحاطةً بحيل النساء، وما يمكن أن يفعله الشبق بامرأة تراقب زوجها وهو يغادرها في منتصف الليل، لكنني بعد كل تلك السنوات يمكنني الجزم بأنها قد حاولتْ استمالته قبل أن يغادر، ومن المؤكد أنها قد غامرتْ بإزالة بعض ملابسها كي يخبرها عن سبب حاجته إلى الخروج في ذلك الوقت المتأخر.

لم تعجبها يومًا حقيقة كونه أمردَ، أتخيل هذا أيضًا، خصوصًا كلما لامستْ أصابعها عانته ووجدتها خاليةً من الشَعر، لا بد وأن تكون

قد صارحتهُ مِرارًا بكراهيتها لهذا الشعور، وبأنها تفضل الرجال ذوي العانات المعشوشبة، فالشعر المعشوشب يجعلها تدرك المعنى الحقيقي للرجولة. «لا يمكن لمنكبين عريضين فقط أن يصنعا رجلاً كاملاً»، ستقول له هذا بأمهرية تامّة لتبينّ له أنَّ صدره العريض لن يبدو مغريًا ما لم يكتظ بالشعر، لكنّها الليلة ستغضّ الطرف عن كل شيء تكرهه ليس بغرض الرغبة في بعض المداعبة، وإنما كي تعرف تفاصيل الحوار الذي دار بينه وبين (الأمين).

لا تجري الأمور حسب توقعها، والرجل الذي كانت تُشعله طول المساء بالنفخ في الجمر لا يتّقد لأجلها، فأستنتج نظرًا إلى قِصر المدة التي استغرقها (النقيب) في التأهب، أنّه قد دفعها جانبًا ثم مدَّ يده كي يتلقّف عصاه المركونة ويشرع في مغادرة المنزل. ربما يكون قد نعتها بـ (الرزيلة)، وربما تكون قد هاجت هي بدورها وراحت ترطن وتتذمّر، لستُ أدري، لكن الذي أعرفه هو أنه قد سارع بالتأهب والخروج ثم أغلق خلفه باب الجدال وباب المداعبات أيضًا.

«هيا عجّل بنا»، كان هذا آخر ما ورد على لسان أيّ منّا. أخذنا نشق أزقة الحارة في اتجاه منزل (الشيخ إسماعيل)، ولم يبدُ مؤكدًا إن كان المفروض على الصمت أن يبقى زمنًا طويلاً بيننا؛ فحين تخففنا عن الضجيج، بدا وكأننا موشكون على فقدان صوابنا. وحده الكلام كان قادرًا على تقليل حدة التوتر في موقف مثل هذا، ووحده كان مؤهلاً لحمايتنا من الأفكار والخيالات الجامحة، لكنّ

مسارات الحارة ضيقة على أيّة حال، وكلمة إضافية واحدة كانت لتصيب أزقّتها بالتُّخمة، يكفيها رجلان بدينان يسيران جنبًا إلى جنب، وأنا من خلفهما، أراهما وهما يرتطمان بين الفينة والأخرى بجدران البيوت النائمة.

كبّل الرجلان فمّيهما حتى بلغا رحبة الحارة، والتي تضمّ منهلاً للعين ومقهى صغيرًا يقابل (الرُّستمية)، فبدا ذاك الاتساع ملائماً للتفوّه ولو بشتيمة واحدة:

- بنت الكلب..

عاد (الأمين) للاستعانة بالشتم كي يتقوى به على تحدّب الطريق، إنه يتكئ على السباب مثلما يتوكأ (النقيب) على عصاه:

- فضحتنا الملعونة يا (أحمدو).. فضحتنا الحيوانة.

لم يكن (النقيب)، ورغم صرامته، شتّامًا ولا لعانًا؛ لذلك فضّل أن يقول متضامنًا:

- حنشوف حنشوف.

- رح أطلع روحها.

- طيب اسكت شوية.

- بنت الكلب.. بنت الستين كلب.

عاود (النقيب) تهدئته وهو يتفحّص رواشن البيوت والنوافذ المؤطَّرة، ضوء واحدٌ من خلف أحدها كان كفيلاً بفضح كل شيء،

لكننا كنا قد بلغنا منزل (الشيخ) على أية حال، ولم يتبقَّ أمامنا سوى خطوات قليلة نضع بها حدًّا لكل ذاك التلفّت والتوجّس:

- بنت الكلب..

- قلت لك اسكت.

بهدوء لا يتماشى مع تخوفنا من إمكانية مرور عابرٍ يرتاد المنهل بصحبة زفّة الماء الخاصة به، هبطنا درج منزل (الشيخ) المرصوف بالحجارة، ثم تتبعنا خطوات (النقيب) الذي دفع الباب الخشبي الموارب ومضى إلى الداخل.

في ممر مُظلم، استقبلنا أغا حبشي آخر بالكاد تبيّنا ملامحه. حين انهمر على وجهه بصيصٌ من ضوء الأتاريك المعلقة بالخارج، بدا أنه كان متوترًا. لم يتكلم أبدًا، واكتفى بالإشارة إلى حجرة في آخر الممر ينبعث منها ضوء مصباحٍ يرتعد. نحن في الحقيقة لم نكن في حاجة إلى أيّ إرشاد، إذ إن بكاء المولود، والذي جاء مكتومًا، كان أفضل مرشد لنا، إلا أننا أخذنا بتوجيه الشاب دون تفكير، وتابعنا السير في الظلام، بينما تكفَّل الشاب بإغلاق باب المنزل من ورائنا.

لكأني أذكر الشاب وهو يغلق الباب خلفنا، ويطرد ضوء الأتاريك نحو الخارج. كان بديهيًّا، بالنسبة إليه وإلى (النقيب) على حد سواء، أن يعوّلا على معرفتهما المسبقة بالمنزل كي يفترضا قدرتنا على ذرع الممر دون التعثر بعتبة الدرج الداخلي والذي يصعد

إلى أعلى، لا بد وأنهما قد دخلا هذا البيت أكثر من مرة، ويعرفان تفاصيله بشكل مطلق، لكن ما الذي جعلهما يغفلان عن حقيقة أني حديث عهدٍ بالمكان؟

ارتطمتْ قدمي اليمنى بالجزء الناتئ من درج المنزل الداخلي وكذلك تعثّر به (الأمين)، أما (النقيب)، فقد توكأ بدوره على عصاه الغليظة وسبقنا إلى آخر صحن الدار. تركني خلف (الأمين) الذي أخذ يُردد دعاء توكّل واحدٍ وأكثر من عشرة ألفاظٍ نابية، لكن لم يطل الأمر كثيرًا، إذ سرعان ما وجدنا أنفسنا داخل حجرة فسيحة تزيّن جدرانها أطباق خشبية وقباقيب وكَنادر تراثية.

لعلي استغربتُ أولاً طريقة تزيين الجدران الخارجة عن المألوف، لكن دهشتي بأكملها تحوّلت إلى المرأة السمراء النحيلة التي تمددت أرضًا إلى جانب طفلها الوليد. رأيتها تلم أطراف ثوبٍ رثٍّ لم يتبدل مذ أن قذفت بجنينها إلى هذا العالم، وتحكِم أيضًا تثبيت خمارٍ لا يستر شعرها الأشعث، أما القابلة، فقد كانت تجلس القرفصاء على مقربة منها، وتحاول، بانشغال مصطنع، لملمة الخِرق المبللة بالدماء وقطع القماش في قدور نحاسية:

- يا بنت الحرام.

شتمها (الأمين) فاعترض (الشيخ إسماعيل) حانقًا، لكن قبل أن يُتابع الرجلان جدالهما تدخّل (النقيب) ليسكتهما. زمّ هذا الأخير شفتيه وأغمض عينيه هامسًا، «أوششششش»، فلاذوا بالصمت جميعًا. دنا من المرأة يُقلّب عصاه، فاعتدلت في موضعها، واستندتْ

بكل ما أوتيت من وهنٍ إلى الجدار خلفها. راقبتُها تشد صغيرها إلى صدرها ليحتمي بها، أو ربما لتحتمي به، من الصعب تحديد الفرق، ولكن المؤكد أنَّ العصا الغليظة التي استند إليها (النقيب) كانت تهدد كليهما:

- مين أبوه؟

سأل (النقيب)، فأجاب (الشيخ إسماعيل) عوضًا عن زوجته، «إنه ابني»، لكن الإجابة لم تَرُق أحدًا من الحضور. يتأمل (النقيب) المرأة بشيء من الاحتقار حسبما يبدو. لا تروقه الطريقة التي عقدتْ بها ضفيرةً قد فرّت من أسفل خمارها، ولا رائحة الصنّ التي تفشّتْ في المكان، جبينها ناضحٌ بالعرق، يلاحظ هذا، ثم ينقل بصره صوب الطفل أخيرًا قبل أن يتساءل باستخفاف:

- إللي أعرفه أننا ما نجيب عيال!

- قلت لك إنو ولدي.

علا صوت (الأمين) من الخلف، «الزانية بنت الحرام»، فتدخَّل (النقيب) مجددًا لإسكاته، إنّه لا يحب السباب مطلقاً، ولما أراد (الشيخ إسماعيل) وضع نهاية عاجلة لاجتياحنا السافر ذاك، دنى بنفسه من (النقيب)، غير آبهٍ بالكفّ التي عَلَت كي تُندد بأيّ خطوة إضافية، ثم أرخى وزرته.

لتلك اللحظة حضورٌ لا يوصف، وصمتٌ جنائزيّ توزّع فجأة كي يمنحنا مزيدًا من الفزع والارتياب. لقد ذهبنا جميعًا في مشوار

سكوت مطوّل حين رأينا النصف السفلي من شيخ الأغوات وهو يظهر من خلف وزرة رمادية اللون تزينها خطوط سوداء. حتى الوليد بدا متضامنًا معنا حين خبا صوت بكائه تدريجيًا وسمح لشهقة (الأمين) أن تشغل حيزًا بجوارنا.

كانت تلك هي أول مرّة أرى فيها ذكورية شخصٍ بالغ، عضوٌ هزيل، خصيتان مترهلتان، وعانة تبرق لشدّة خلوها من الشعر، من المرجح أنها قد شُذِّبتْ من أجل مداعبة ما. والحق يقال، إنني لم أتصور أبدًا أن تكون ذكورية الرجال متواضعة إلى هذا الحد، أو أن تبدو خاليةً من كل التفاصيل التي تجعلها ملائمةً لطريقة (محسون) في مداعبة نفسه، وفي اصطحاب نساء القرية إلى خيالاته الجامحة. هل هذا هو القربان الذي قد قدّمته كي أدخل الجنة؟

شعرتُ بخيبة أمل وقتها وأنا أرى أمامي نموذجًا يختلف عن الصورة التي رسمتها في مخيلتي، ويختلف كذلك عن الصورة الضبابية التي أذكرها لعضوي الصغير الذي قطعته أمي، فأنا، ولسبب ما، تخيلتُ الرجال البالغين بأعضاء أفعوانية ضخمة تلائم قوامهم الممشوق، وتبرّر الطريقة التي تنبعج بها ملابسهم حين يركنوا إلى الجلوس دون أن يحشروا الطرف السفلي من الوزرة بين أفخاذهم. كنتُ في حالة تأهب قصوى لرؤية انتصاب أسود يغضن بالعروق، وكومة شعر تمتد حتى تتوزّع بين القدمين، وخصيتين لا تتدلّيان بغنج، وإنما تلتصقان في جسد (الشيخ) بثبات يضاهي كل ادعاءات (محسون) السابقة بأنّ ذكوريته لا تخبو في الصيف

ولا حتى في أيام الشتاء الباردة، لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث مطلقًا، وكلا، لم يكن لضوء الحجرة المرتعش أيّ ذنب فيما حصل، إنني لن أدينه بحجب تفاصيل (الشيخ) عنّي، ولن أتهّمه بإضفاء تدرّج لوني أكثر سوادًا لبشرة (الشيخ)، كل شيء كان واضحًا وقتها. استغرقتُ وقتًا كافيًا وأنا أتأمل المساحة الشاسعة بين قدميّ (الشيخ)، شأني شأن بقية الحاضرين، ويمكنني القول بأنَّني قد أفلحتُ حينها في رؤية الحقيقة كاملة.

قطعتْ عصا (النقيب) شوطًا طويلاً من عند كاحل (الشيخ) وحتى مفترق القدمين، ثم ولجتْ بين ساقيه الهزيلتين قبل أن تستقر أسفل خصيتيه وتحملهما عاليًا، ولا أذكر أنّ (الشيخ إسماعيل) قد ارتعد، بل على العكس تمامًا، إنه بدا غير خائف من جهل (النقيب) بالطريقة التي يتصرف بها مع (أشياء لا يعرفها)، أما (النقيب) نفسه، فقد أخذ يتحسّس جسده وهو يحرّك العصا الغليظة بين قدمي (الشيخ)، يقارن حسب اعتقادي بين الفراغ الذي في جسده وبين ذكورية (الشيخ). رأيته يُطيل النظر، ويقلّب أعضاء (الشيخ)، فلم أتوقف عن سؤال نفسي لحظتها، ترى هل كانت زوجة (النقيب) ستسمح له بالخروج ليلتها لو أنّ زوجها كان يملك أشياء سوداء ومترهلة كهذه؟

١٠

«يا عيال الحرام»، توعَّدنا (الشيخ إسماعيل) عندما استخدمنا القوة المفرطة كي نرغمهُ على الجلوس في زاوية الحجرة، ثم راح يندّد بكافة أنواع العقوبات الإلهية، ويصف لنا أشكال العذاب الذي سنطاله بعد الموت، لا سيما حين فرضنا عليه الجلوس كي نملي عليه شروط الإقامة الجبرية في بيته. أخبره (النقيب) بلهجة آمرة أنّه سيلزم بيته بشكل دائم، لن يخرج منه، ولن يدعو إليه أيّ ضيف، وأنه سيفضح أمره للمبعوث الذي عينته الحكومة لرعاية شؤون الأغوات وصرف نفقتهم الشهرية في حال لم يلتزم بذلك، فأخذ (الشيخ) يرطن ويلعن، لكنّ عراكًا مطوّلاً بالأيدي قد اشتعل بين (الشيخ) و(الأمين) حين أخبره هذا الأخير بأننا سنقوم بترحيل زوجته والابن المولود حديثًا إلى (الحبشة)، بعيدًا عن أعين أهل (المدينة) وبعيدًا عن الفضيحة. فزَّ (الشيخ) من موضعه بسرعة لا تتماشى مع عمره وجذب (الأمين) بياقة ثوبه، فتدخلنا بشكل جماعي كي نفض العراك بينهما، وكي يفرضني (النقيب) مرافقًا (للشيخ) أو ربما سجّانًا.

أسند (النقيب) لي ليلتها مهمّة العيش في بيت (الشيخ) وتأمين احتياجاته كي لا يجد هذا الأخير نفسه مضطرًّا للخروج إلى العالم الخارجي، كما أوكلني أيضًا بمأمورية اختلاق الأعذار لأيّ شخص ينعطف لزيارة (الشيخ)، فأخبر ضيوفه المحتملين بأنّه متوعك، وقد أقول لهم إنه نائمٌ في مرّات أخرى، دون أن يطرأ على بالي، إلا في وقت متأخر جدًّا، بأنني قد كنتُ جدارًا آخر في هذا البيت يفصل (الشيخ إسماعيل) عن العالم الخارجي.

أما (النقيب)، فخرج مع رفاقه في تلك الليلة المحتدمة كي يرافق (زوجة الشيخ) وطفلها إلى إحدى مزارع (قباء) البعيدة. أشار إلى رجاله بحركة يد واحدة، فحملوا المرأة وطفلها بعيدًا عن الأنظار إلى حين أن يتدبّر ترتيبات ترحيلهما بصورة أبدية عن (المدينة).

رضخ (الشيخ) طوال الأيام التالية لنميمة أشاعها الأغوات عنه بأنه قد طلّق زوجته النزقة وقام بإرسالها إلى (الحبشة) بعد عام أو أكثر من استيرادها، فكان قبول الناس لتلك الإشاعة كافيًا لأن يبعث في داخل (الشيخ) شيئًا من اليقين الأبدي، بأنّه لن يلتقي عائلته الصغيرة مرّة أخرى، وأكاد أجزم، وبالاستناد إلى طريقته في إبداء الانهزامية وقتذاك، بأنّه قد فطن منذ البداية إلى استحالة رؤية أسرته مجددًا، لا في (المدينة)، ولا في أرض (الحبشة) البعيدة، فهو كان يدرك بفطرته التي ما زالت يقظة رغم أعراض الشيخوخة، أنّ السفر ليس خيارًا متاحًا لرجلٍ في مثل حالته الصحية، وكان يدرك، بالفطرة اليقظة نفسها، أنّ بقاء أسرته إلى جواره لم يكن بالأمر الوارد

أبدًا؛ إذ إنَّ أهالي الحارة لن يتفهّموا يومًا حقيقة كونه رجلاً كاملاً، ولن يقبلوا بقاءه بينهم، وهو الذي جعل يخادعهم لسنوات طويلة. لا أحد منهم سيغفر له خطيئة مشاركته صلواتهم وتجمعاتهم ومحافلهم الدينية وهو يرتدي ثوب عِفّة لا يخصّه.

بعد أسبوع من تلك الحادثة، انخرط (الشيخ) في عويل طويل، بالتأكيد قد سَلَّم لفقدان أسرته بصورة أبدية. رحلتْ زوجة (الشيخ إسماعيل)، ولكن، أليس هذا ما تفعله زوجات الأغوات عادةً؟ إنهنّ يستيقظن فجأة على حقيقة أن الفقر أقل وطأة من معاشرة رجالٍ متعنتين لا يمنحوهنّ كفايتهنّ من العاطفة، فيحزمن متاعهن ويسلكن نفس الطريق التي جاءت بهنّ، دون أن يكترثن إن كانت إجراءات طلاقهنّ قد تمتّ بصورة رسمية. وإن كان البعض منهنّ يفضلن الاستيطان في (جدّة)، فإنّ الكثير منهنّ كُنّ يؤثرن ركوب البحر الأحمر على الاغتراب في مكان آخر، ربما كنّ يعتقدن بأنّ البحر الغادر لا يمكنه أن يكون أكثر بطشًا من رجالٍ يعاملوهنّ بجلافة صلدة كي يثبتوا لهنّ فقط، أنّ البطش هو عضو ذكوري آخر.

لعليّ قد ذهبتُ بخيالي وقتها، ورأيتُ زوجة (الشيخ) وهي تعود إلى أهلها رفقة طفلٍ تنسبه إلى رجلٍ من نسج خيالها تزوجته أثناء السفر، فتقول لهم مثلاً إنّ والد الطفل قد مات في الطريق، أو سقط في البحر، لستُ أدري، لكنها ستفلح في سائر الأحوال في استعطافهم، فيهرعوا نحوها كي يتلقفوها ثم يهدّؤوا من روعها، وقد تكون المرأة أكثر حيلةً ودهاءً، فتتوقف في (السودان) أولاً،

تمضي هناك عامًا أو ربما عامين، ثم تتزوّج رجلاً حقيقيًّا يوفر لها الغطاء المناسب ويضمن لها عدم اكتشاف أمرها. وعندما تتوفر لها إمكانية السفر مجددًا، تتأبط يد زوجها ثم تهلّ بصحبته على أهلها، فلا يسألها أيّ شخصٍ عما مضى، أو من أين جاء ذاك الصبي، وإنما سيعمدون إلى شُكر زوجها الجديد الذي وافق على الزواج بها كي يتعهّد لها بالحياةً الكريمة.

من المؤكد أن الحياة سوف تبدو أفضل بالنسبة إليها، أقصد زوجة (الشيخ إسماعيل)، لا سيما حين تصبح المرأة بعيدة عن سطوة (النقيب)، وحين تغدو أيضًا في رعاية رجلٍ لا يُدرك أبدًا أنه كان جسر العبور بالنسبة إليها، لكنّها لن تنسى يومًا، حتى وإن تكفّل زوجها الجديد بتبني ابنها، أنهّا قد تركتْ خلفها رجلاً يتلوى حرقةً بسبب رحيلها.

طوال فترة إقامته الجبرية، لم يجرؤ الشيخ على مناورتي، أو على محاولة الهرب من البيت مستغلاً واحدةً من تلك اللحظات الكثيرة التي أنشغل بها في التنظيف وتدبير أمور المنزل. كان حريصًا على الانصياع لأوامري المقتبسة من تعليمات (النقيب)، رغم قدرته على مغالبتي في أيّ اشتباك طارئ. أجل، إنه كان قادرًا على مطارحتي حتى وإن منعه تقدم العُمر من الحركة بسرعة وخفة، إذ يكفيه أن يباغتني من الخلف مثلاً، فيهوي على رأسي بأحد القباقيب المعلّقة على الجدار، ثم ينهال عليّ ضربًا ولكماً، ولا يدعني دون أن يتأكد من أنني غارقٌ في بركة من دمائي، لكن شيئًا من هذا لم يحدث أبدًا،

خصوصًا بعد زيارة (النقيب) بصحبة مبعوث الحكومة، (المُعلّم سليم).

جلس (المُعلّم سليم) وقتها كي يحتسي الشاي معنا ويتجاذب مع الشيخ بعض أطراف الحديث دون أن يفقه أن زيارته تلك مجرّد صورة معقدة وقاسية من صور التعذيب التي يمارسها (النقيب) لضمان سير الأمور حسب خطته المحكمة، ولما أمضى (المُعلّم سليم) من الوقت ما يكفي في العادة لزيارة المرضى والوفاء بالواجب الديني تجاههم، نهض من مكانه وشكرني على رعاية الشيخ ثم غادرنا وهو يطمئن نفسه -على الأرجح- بأنّ أمور الأغوات كانت تسير حسبما ينبغي لها. وحده (النقيب) بدا محيطًا آنذاك بحقيقة كل شيء، إذ رافق (المُعلّم سليم) نحو باب البيت حتى يودّعه، ثم عاد إلينا كي يقول للشيخ مهددًا، «والله لو يدري (سليم) عن الهرجة كان يدبحك إنتَ وعيالك». عبارته تلك قد نجحتْ في بث الرعب داخلي، وداخل الشيخ المرعوب أصلاً، لقد كانت كفيلة بأن تصنع لحظة صمت خاصة، لحظة تفوق في أثرها شعور النظر إلى (النقيب) وهو يتوكأ بعصاه الغليظة على الأرض ثم يبرمها في موضعها قبل أن يهوي بها على مؤخرة أحد صغار الأغوات لأنّه قبض عليه متلبسًا وهو يتقاعس في أداء مهامه في ساحات المسجد النبوي.

ترك (النقيب) لي مهمة مراقبة الشيخ وهو يتحوّل في كل يومٍ إلى رجلٍ انهزامي لا يشبه ذلك الرجل الذي كان يتحلىّ بالهيبة، ويُنزِل

الرعب في قلوب صغار الأغوات كلما جاء للتحقق من اعتكافهم في المسجد.

عشتُ مع (الشيخ إسماعيل) فترة قصيرة، ثلاثة أشهر أو ربما أقل، إلا أنها كانت كافية لأن تجعلني أرى قامته وهي تنثني بشكل تدريجي، حتى ما عاد في وسعه الوقوف باستقامة كاملة، ولا بد أنها كانت آخر أيام (رجب) حين تطور الأمر وصار الشيخ غير قادرٍ على السير بمفرده، فجعل يقرن تنقله في أرجاء البيت باستنادهِ إلى كتفي. يناديني عندما ينوي الذهاب لقضاء حاجته مستعينًا بأفظع الشتائم: «إنتَ يا بهيمة.. إنتَ يا حيوان.. إنتَ يا سرسري.. إنتَ يا سربوت»، ولا يُتبع نداءه إلا بعبارات تجيء على غرار: «أبغ أشخ» و«أبغ أخري» و«إيش سويتوا في الحرمة والولد يا عيال الحرام»، فأجيء إليه كي آخذه إلى حمام مجاور.

مرّات كثيرة كان يقضي بها حاجته في سريره بطريقة متعمدة، ثم يناديني من مسافة بعيدة، «يا أغا.. يا أغا.. فيه واحد شخ»، فأهطل عليه كي أرى ضحكة عجوز تزينها سنٌّ مفقودة. يقهقه هازئًا حتى يعيدني إلى ذكرى تنظيف ساحات المسجد النبوي، فأقوم بنقله إلى الحمام، أغسل جسده، أبدّل ثيابه، ثم أعيده إلى حجرة مجاورة إلى حين الانتهاء من تنظيف فراشه، ولا يفوتني أبدًا أن أضمر بداخلي ألف يقين بأنه كان يفعل ذلك بدافع الانتقام، ليس منّي على وجه الخصوص، بل من (النقيب) حتماً، إذ لطالما ظننت أنه كان يريد أن يصنع ممرًّا من البراز والبول كي يعبر من خلالي إلى (النقيب).

لخمسة أشهر متتابعة، كنت أشاغل نفسي بأعمال البيت، أغير الملاحفَ والشراًشف، وأخرج طاسات الحليب المتخمّر والطعام الذي يخبئه الشيخ أسفل سريره، حتى جاء ذلك اليوم في (شعبان)، حين قبض الشيخ على يدي ثم قال لي راجيًا، «تكفى أبغى أشوف ولدي»، فلم أعرف وقتها كيف كان في وسعي التصرّف معه. انكساره ذاك كان يقودني إلى ضرورة كسر القيود التي فرضها عليَّ (النقيب) منذ بداية الأمر، والتي كانت تقتضي عدم تجاذب أطراف الحديث مع الشيخ، وعدم الاستجابة لأيّ مطالب له قد تتجاوز تأمين المأكل والمشرب.

ها هو ينكسر من أجلي لأول مرّة، يضرب بكبريائه عرض الجدار، ويتخفف من شتائمه النابية كي يقول لي إنه في حاجة إليَّ. لعلّه يُلحق رجاءه بشيء من الشتائم المخففة، كأن يقول لي مثلاً، «وديني أشوفهم.. يعني ما عندك إحساس يا ابن الكلب؟» فأرتبكُ بدوري، ثم أعمد إلى فتح شباك الحجرة الوحيد، والمطلّ بدوره على زقاق صغير.

حين أشرّع الشباك، فأنا أعصي بهذا تعليمات (النقيب) الصريحة، والتي تتضمّن عدم السماح لأي شخص أو أي شيء -مهما كان- أن يدخل بيت (الشيخ إسماعيل) من دون إذنه، حتى وإن كان الزائر مجرّد خيط رقيق من أشعة الشمس، لكن هذا التمرّد على أوامر (النقيب)، ورغم فداحته، لا يدفعني إلى الشعور بالقلق لأنّني لم أكن أتوقّع حدوث ضررٍ جسيم من فعلٍ متهورٍ كهذا، فالزقاق

المجاور للحجرة لا يعبره إلا صغار الأغوات، والذين يقضون معظم أوقاتهم في المسجد النبوي. أليست هذه مغامرة آمنة؟

إنني ما كنتُ لأتردد عن الاستجابة لأيٍّ من رغبات (الشيخ إسماعيل) ما لم تتسبب لي، وتجلب له على حد سواء، أي صنف من المشكلات. ها أنا ألبي له مطلبًا، لكن لن يكون في وسعي وضع حياتي على المحك حين أسمح له برؤية زوجته وابنه، على افتراض أنني أستطيع فعل ذلك أصلاً. هذا هو أقصى ما أستطيع فعلهُ، أن أفتح لأجله النافذة، وأن أمنحه القدرة على التمييز بين الليل والنهار، ثم أنصرف لغسل الممرات والحجرات، متجاهلاً نداءاته المتكررة بأن أساعده على الالتقاء بأسرته الصغيرة.

لقد سكبتُ ماءً كثيرًا على الأرض يومها، وغسلتُ البيت مثلما فعل أصحاب المنازل الذين جاوروا (الشيخ). الجميع كان يستعد لقدوم (رمضان)، إلا نحن، أنا و(الشيخ)، كنا نعيش الأيام جميعها كما لو أنها يومٌ واحد. أصيخ السمع لهتافات الصبيان بالخارج وهم يقومون بطرق الأبواب:

«سيدي شاهين يا شربيت

خرقة مرقة يا أهل البيت

لولا خواجا ما جينا

ولا طاحت كوافينا

يحلّ الكيس ويعطينا

إما مشبك وإلا فشار

وإلا عروسة من الروشان»

ينالوا كفايتهم من الحلوى والمشبَّك في كل مرة يطرقون بها بابًا، فيتغنون فرحًا، «قارورة يا قارورة ست البيت شطورة»، لكنهم لا يلقون أيّ جواب حين يقومون بطرق باب (الشيخ إسماعيل)، فيتحولون إلى السباب كما لو أن أحدًا قد سلبهم حقًا من حقوقهم، «كبريتة يا كبريتة ست البيت عفريتة».

انحنيتُ لدعك الجدار وأنا أسمع أنين الشيخ يختلط بكلام مبهم وشهقات متقطعة. كان -في اعتقادي- يحاول مغالبة شعوره بالاستياء والقهر، ولما خبا صوته بشكل مفاجئ هرعتُ نحوه كي أطمئن عليه، إذ كان من المحتمل حينها أن يموت بفعل الغيظ المتضامن مع أعراض الشيخوخة، لكن ما إن تأكدتُ من عدم مفارقته للحياة حتى عُدتُ إلى المطبخ وأشعلتُ نارًا أسفل قدرٍ فيه بعض اللحم.

أعرف الشيخ جيدًا، إنه يُحب اللحم الذي يعده الأفارقة النيجيريون كثيرًا، ولولا عدم توفر المقادير اللازمة لإعداد (السيريه)، لقمتُ بشواء اللحم عوضًا عن سلقه. لكم وددتُ تقديم اللحم المشوي له بعد أن أرشّه باللوز والفلفل المهروس والقليل من الملح، أصنع له الطبق الذي يحُب، وأهبه لحظة مؤقتة تخلو من صورة ابنه الوليد وزوجته المنفيّة إلى أبعد نقطة ممكنة، إلا أنني صنعتُ بعض المرق عوضًا عن ذلك، وأبدلتُ طاسة الحليب بأخرى تكتظ بشراب صنعتهُ من الدخن، ثم غادرتُ البيت بعد أن أوصدتُ النوافذ والأبواب خلفي.

انطلقتُ يومها لملاقاة رفاقي من الأغوات، والذين كانوا قد فرغوا فورًا من عملهم في رعاية الروضة النبوية. لقيتهم، فانغمسوا في تبرمهم المعتاد من حالة الملل التي تعتريهم لقاء العمل الروتيني نفسه، رغم أنّ سنوات اعتكافهم كانت قد انقضت منذ فترة بعيدة، يغسلون أروقة المسجد، يكنسون الخراء، ويقومون بتوجيه المُصلّين، شأنهم شأن الأغوات الذين قدموا حديثًا من (الحبشة)، ورغم مشاركة البعض منهم في غسل المقام النبوي ورشّه بماء الورد من حين إلى آخر، فإنّ جميعهم كان على وفاق تام، بأنني وحدي من كان يعيش الإثارة كاملة.

تمادينا في الحديث عن زوجة (الشيخ إسماعيل)، هذا ما اعتدنا فعله أخيرًا على أيّة حال، نلوك نفس السرّ الذي ما كان من المفترض له أن يبلغ شخصًا آخر سوانا، ولا نخشى من احتمالية أن يسترق

عابر السمع فيفتضح أمرنا، لكن حديثنا ذلك اليوم سلك مسلكًا آخر حين اقترح عليَّ أحدهم الذهاب لتقصي أحوال زوجة الشيخ في المزرعة التي نُفيتْ إليها. «إنها لا تبعد كثيرًا عن هنا»، قال محرضًا، ثم استعان بخوفه من (النقيب) كي يخبرني بأنّ لا أحد آخر سواي قادرٌ على مغافلة الجميع ومغادرة المسجد في أواخر الليل أو أثناء فترات المناوبة دون أن يثير انتباه (النقيب) ورجالاته، وحدي أنا من يعيش بصفة دائمة بعيدًا عن الأنظار.

قال لي مُلحًّا، «رح أعرّفك على واحد اسمه (محمود).. تراه يقدر يساعدك»، لكن هذا لم يكن قادرًا أيضًا على دفعي إلى الموافقة، وأعترف بأنّ الفضول كان يغمرني وقتها، أردتُ أن أتحرى حقيقة الأمر، أن ألتقي زوجة (الشيخ إسماعيل)، وأتعرف من خلالها على الطريقة التي استعان بها الشيخ للالتحاق بجماعة الأغوات من دون أن يفقد شيئًا من ذكوريته، لكنّي خفتُ ساعتها من تأنيب (النقيب) إن كَشف الأمر، ورحتُ أتخيّل طرقه المبتكرة في إنزال العقوبة بكل من يعصي أوامره. جُرمٌ كهذا ما كان ليؤدي إلى التثبيت بالفلكة وضرب راحة القدم بالخيزرانة فحسب، بل كان سيقودني إلى حتفي دون ريب.

«والله رح أدفنك لو ما تسمع الكلام»، تتردّد في ذهني صورة (النقيب) وهو يتوعدني إبان تنصيبي سجّانًا على (الشيخ)، يقول لي كلامًا كثيرًا عن ضرورة الانصياع لأوامر الرب، ورعاية شؤون الجماعة في السراء والضراء، فهذه الجماعة مسؤولة عن واحدة من

أطهر بقاع الأرض، لا شيء آخر يفوق مصلحتها على حدّ قوله، فأمنح رفاقي نظرات تشكيكية، ثم أصرف الفكرة عن ذهني وعن أذهانهم بشكل قاطع، ويتحوّل حديثنا إلى موضوع آخر لا علاقة له بـ (الشيخ إسماعيل) وزوجته.

في الحقيقة، لم يكن تهديد (النقيب)، رغم خوفي الشديد منه، قادرًا على منعي من التسلل خفية، ولفترات مقتضبة، كي ألتقي رفاقي الأغوات أو أحاول اعتراض (حليمة) ابنة مالك البقالة ذي الأصول الباكستانية. أختار الأوقات الآمنة بعناية مطلقة، وأتصيد الأحيان التي يختارها كبار الأغوات للتجمّع في مقهى (المعلّم طيفور)، كي أمنح نفسي، وأمنح (الشيخ إسماعيل) أيضًا، فرصة الابتعاد مؤقتًا عن مناوشات السجين والسجّان. أوصد أبواب البيت من خلفي وأنا أردد في عقلي باستمرار، «الباب موصد بإحكام ورواشن النوافذ ستحول دون هروب (الشيخ)» ثم أنطلق في مغامرات قصيرة لا تتجاوز حدود الحارة. أتأبّط خلال خروجي ذريعة تأخر (حليمة) في إحضار مؤنة (الشيخ) حتى أبرر وجودي في الأزقة إذا ما قبض عليّ (النقيب) أو أحد أعوانه متلبسًا، ولا أطيل البقاء في الخارج. أقفل عائدًا إلى (الشيخ) وأنا أحمل في عقلي يقينًا صرفًا بأنه سوف يستقبلني بسرير تفوح منه رائحة البول أو بطاسة لبن قد ارتطمت بالجدار واندلق محتواها على الأرض.

عُدتُ ذات يوم إلى بيت (الشيخ) قبل أن يتأخر الليل، فعاود (الشيخ) التشبث بيدي كي يرجوني فرصة رؤية ابنه. كان لا بد

لتلك اليد المغضنة بالعروق أن تحرّك بداخلي شيئًا ما. ها هي، وللمرة الثانية، تقبض على ذراعي بانهزامية جندي يرجو طبيبه ألا يموت بسبب جروحه. أرى الهزيمة في عينيِ (الشيخ إسماعيل)، يجذبني نحوه، لا يريد أن تنتصر عليه الحرب، يتمسّك بي كي ينجو.. أوه، كم بدا خائفًا من مفارقة الحياة ومن مواجهة كل القتلى الذين خلّفهم سلاحُه.

تجاهلتُه مجددًا، وفي آخر الليل حين غفا، ذهب (الشيخ) -وكما هي عادته- إلى رؤية حلم غريب. زوجته تمسك بيده وتأخذه إلى رحبة واسعة، فيها صفرةٌ مشوبةٌ بالغبار وتحدّها نخلات باسقات. يسمع الشيخ صوت بكاء طفله الصغير، يركض نحو الصوت، لكنّه لا يصل إلى شيء، وحين يتلفّت حول نفسه لا يجد زوجته أيضًا، فيصحو وهو يصرخ «فين وديتوا ولدي وحرمتي يا عيال الكلب؟».

تكرّر ذلك الحلمُ من قبل، حكاه لي أكثر من مرّة، فما عاد قادرًا على النوم، وهو ما أصابه بالهزال الشديد وأفقده الكثير من وزنه. تمنّعه عن تناول الطعام كان يزيد من كارثية الأمر، لذلك لجأتُ إلى إرغامه على تناول الطعام في الأيام التالية. أقبض على فكّه، أحشر قطعة رغيف في فمه، فيبصق الرغيف في وجهي، وحين أهدد بشكواه إلى (النقيب) يحشر قليلاً من اللبن في فمّه دون أن يبلع منه شيئًا، ينتظرني حتى أُصاب بالملل، ثم يبصق اللبن على الأرض، وفي بعض الأحيان يبصقه على وجهي. كان نزقه ذاك هو سبيله الوحيد

للتعبير عن احتجاجه على ما كان يجري، لا سيما حين أصبح بطنه الخاوي غير قادرٍ على دفعه إلى التبرز في سريره أو إطلاق الريح، فألهمني سوء علاقتنا بفكرة البحث عن زوجته وطفله، لعليّ أفلح في ترتيب لقاء مقتضب يجمعه بهم، فتهدأ وتيرة أزمتنا وتخبو سلسلة المعارك التي كنا نخوضها بشكل يومي.

كانت زيارات (النقيب) المتقطّعة تزيد أيضًا من رغبتي في ارتكاب حماقة مثل هذه، فهي، كانت تقترن بالكثير من التقريع واللوم الذي يطالني ويطال (الشيخ) على حد سواء. لطالما تخيلتُ (النقيب) ملقًى على الأرض بعد لكمة قوية أسددها إليه، ثم أراه يحاول وضع يديه على وجهه كي يتفادى صفعاتي المتكررة، والتي تأتي مرّة على صدغه ومرة على رقبته ومرة على كفه التي يحاول أن يستر بها وجهه. لا شيء من هذا يحدث قطعًا، لكنّ خوفي منه يتضاءل تدريجيًّا مع الوقت، وينمو بالنيابة عنه شعورٌ طارئ بالحاجة إلى الانتقام.

في الأسبوع الأخير من (رمضان)، استجاب (النقيب) لرغبة (الشيخ) الملحّة بأن يخرج لقيام ليلة القدر في المسجد النبوي، شأنه شأن أهالي المدينة والقادمين من خارجها، فشرعتُ بغسل (الشيخ) ودعك قدمه بحجر الخفاف وتبديل ملابسه وتطيبه كما لو كنتُ أدجّنه طوال الشهور الماضية استعدادًا لذبحه، إذ بدا خروج (الشيخ) ذاك مجرد سبب آخر لقتله، فهو ما كان ليصمد ولو للحظة واحدة أمام كل التغيرات التي طرأت فجأة على الحارة وأهلها.

لقد تبدّل العالم بالخارج خلال الفترة القصيرة التي قضاها (الشيخ) حبيسًا في بيته، أو ربما استعدادات العيد هي ما منحتْ حارتنا شيئًا من الاختلاف. الأتاريك الجديدة، الجدران المطلية بالنورة ناصعة البياض، الرطوبة المارقة بعد غسيل البيوت، كل شيء قد نجح في تجاوز (الشيخ) بجدارة، وقد نجح أيضًا في تجاوز الأيام التي عَهدناها، تلك الأيام التي تباهى فيها (الشيخ) بفرض سطوته علينا، وهذا ليس بالأمر السهل على شخص ذي كبرياء مثل (الشيخ إسماعيل)، سوف يصاب بالحرقة، هكذا قلت في نفسي، ثم رحتُ أرتّب داخل رأسي مجموعة أفكار تتعلّق بالطريقة التي سأتلقّف بها (الشيخ إسماعيل) من الأرض حين ينهار أمام مقهى (طيفور) وأمام الذكريات الغزيرة لأيام السمر.

بعد أن عاونتُ (الشيخ) على لبس ثوبه الفضفاض وشد حزام القماش إلى خصره وتثبيت شال (السَّلِيمي) على كتفه وارتداء الكوفية المصنوعة من قصب الـ (فرخيشمك)، كما لو أنه كان يستعد لاستقبال شخصية معتبرة من دولة أجنبية كتلك الشخصيات التي اعتاد كبار الأغوات استقبالها وتبخير ساحات المسجد من أجلها وفتح الأبواب لها، أسندتهُ إلى كتفي ورحنا نشق أزقة الحيّ دون أن نلقي بالاً لعبارات التحية التي سددها نحونا بعض المارّة الذين عرفوا (الشيخ).

توكأ (الشيخ) عليَّ فسرنا معًا حتى قصدنا رأس الحارة في اتجاه الطريق المؤدية إلى المسجد النبوي، وكلاّ، لم يسقط (الشيخ) منهارًا أمام المقهى، ولم يكترث أصلاً للتغيرات التي جاءت بالتزامن مع

قرب حلول العيد، لقد تعكَّز عليَّ دون أن يلقي بالاً لما كان حوله، ولم يعقّب على الصورة الجديدة للحياة إلا حين وقعتْ عيناه على عُنقي، وحين رآني أرتدي قلادة الذهب التي أعادها إليَّ (الشيخ قاسم) قبل مغادرة (الحُدَيدَة). بفظاظة مال نحوي ثم قال بحنق، «استغفر الله.. حرام تلبس دهب يا ابن الكلب.. مسوي نفسك حرمة يا ملعون؟» لكنني تجاهلتُ كلامه وسحبت جذعه صوب الطريق المعاكس للمسجد.

كانت تلك هي أول مرّة أرتدي فيها القلادة مذ أن أعادها إليَّ (الشيخ قاسم). لم يدفعني طيشي وقتذاك إلى التباهي بها أمام الآخرين، على الرغم من كون صعوبة اقتناء الذهب سببًا وجيهًا للتفاخر بها أمام صغار الأغوات، كما أنّ الأعراف الدينية والمحلية، ومن قبل ذلك قوانين (الشيخ) الصارمة بخصوص مظهر الجماعة، كانت تمنعني من لبس الذهب. أردتُ توضيح هذا للشيخ، لكنّ الوقت لم يبدُ ملائماً لخوض نقاشٍ قد يتطور إلى تقريع مطوّل؛ لذا آثرتُ تذكير نفسي فقط بأنني كنتُ أرتدي القلادة لأنَّ العنق مكانٌ آمن؛ ولأنني قد ألجأ إليها لاحقًا، فأقايض عليها بالمال في حال لو تطلب الأمر ذلك.

تجرَّعتُ إهانة (الشيخ)، لم أرد عليه، ثم واصلتُ اقتياده صوب معبر الحافلات المجاور لـ (باب عثمان). لقد استغرقنا الأمر كثيرًا من الوقت حتى بلغنا تجمّع سيارات الأجرة، وحينها دسستُ بضع ريالات في يد رجل غريب ثم انطلقنا نحو الطريق المؤدية إلى مزارع (قباء).

١١

تكاثف الظلام الثقيل أمامنا حين شرعنا بقطع الطريق الترابية صوب بيوت شعبية تختبئ خلف النخيل، فأوعز إلينا (محمود) كي نتقفى صوته الذي، وحسب زعمه، كان في وسعه أن يساعدنا على البقاء في مسارنا. كُنا أنا و(الشيخ إسماعيل) قد نزلنا فورًا من سيارة (البيجو) التي أقلتنا إلى روابي (قباء) عندما التقينا (محمود موسى) أو (البُعبُع) كما يناديه أصدقاؤه، وهو شابٌّ محلي من أصول إفريقية تعرّفتُ عليه عبر بعض الأغوات الذين شاطروني نفس الفضول حول قصة (الشيخ إسماعيل) ومصير عائلته الصغيرة، فقادنا الشاب نحو الظلام وهو يردد أهازيج حجازية عَرفتُ لاحقًا أنه يتم ترديدها أثناء لعب المزمار.

ولا بد أن (البُعبُع)، وكذلك رفاقي من الأغوات، الذين قاموا بطلب مساعدته، لم يكن لديهم أيّ خيال خصب وقتها، وإلا ما الذي جعلهم يفترضون أن زوجة (الشيخ) كانت تقيم -كَرهًا أو حتى طوعًا- مع القابلة التي ساعدتها على الإنجاب؟ أليس من

المحتمل مثلاً أن تكون الزوجة قد انتقلتْ خلال الشهور الماضية إلى مكان آخر، أو أن تكون قد غادرت (المدينة) بأسرها؟

انطلقنا على أية حال خلف اعتقاد (البُعبُع) القاطع، بأن زوجة (الشيخ) وابنه كانا يقبعان في الطرف الآخر من الظلام، فتوكأ الشيخ عليّ بشكل تلقائي حتى يتقوى بي على مشقة السير، ثم أخذنا نجابه معًا الطريق الترابية التي تحوّلتْ في بعض الأحيان لتصبح مستنقعات مائية. ولما أقبلنا على رابية تستوجب جهدًا كبيرًا لصعودها، عمدتُ و(البُعبُع) إلى حمل الشيخ ومتابعة الصعود به، دون أن نمنحه تنويهًا مسبقًا، ودون أن يستنكر هو أيضًا تصرفنا الذي جاء على نحو مباغت.

لقد دأبنا نتصرّف بتناغم شديد آنذاك، أقصدني أنا و(الشيخ إسماعيل)، وأخذنا نغوص في قلب الظلام كما لو قد تمرسنا على هذا المشوار سابقًا، وكما لو لم أفاجئه بمغامرتنا الجريئة تلك، إذ لم يحاول أيّ واحدٍ منّا شرح تداعيات الموقف للآخر، ولم نغامر بتبادل أسئلة غبية تجيء على غرار: «على فين رايحين؟» و«إيش قاعد يصير؟».

أعتقد أنّ لا أحد وقتها، ولا حتى (البُعبُع) نفسه، كان سيقتنع لو أخبرناه بأنني أنا و(الشيخ) لم نكن على وفاق وقتذاك، وأنني أنا وحدي من قمت بالتنسيق لمغامرة جريئة كهذه، إذ بدا صمتنا المطوّل، وكذلك تطابق ردود أفعالنا، سببًا كافيًا للجزم بأنّ أحداث هذه الأمسية تتعاقب بناءً على خطة محكمة.

على أية حال، صعدنا معًا رابية أخيرة، فأشعل (البُعبُع) سيجارة

كأن يثبتها منذ البدء خلف أذنه، ثم أشار إلينا بالتوجه صوب بناء قريب يهتز داخله ضوء وحيد قبل أن يهتف:

- داك البيت.

من خلف الشعلة التي خَلَّفها اشتعال عود الثقاب، لاح لوهلة وجه (البُعبُع) بشكل مغاير عماّ ألفته من قبل، أو ربما الرهبة من المواجهة القادمة هي ما جعلتْ عيني (البُعبُع) تبدوان أكثر جحوظًا، وهي نفسها التي جعلتْ فكّه يبدو أكثر تضخماً. لقد توقف الشاب عن ترديد الأهازيج فتصلب وجهه الطويل في حضرة ضوء اللهب، وتصلبتْ كذلك تفاحة آدم في حلقه، لا غناء في حضرة اللحظة الحاسمة تلك.

سحب (البُعبُع) نَفَسًا عميقًا من سيجارة (أبو بس) المعروفة برائحتها النفّاذة ثم أشعل عود ثقاب آخر، لا لسبب ما، وإنما كي يروّض قلقه الذي راح يتضخم مع كل دقيقة أهدرها الشيخ في التأهب لما سيقوله لزوجته، فصار من اللازم عليَّ التدخل لفرض نهاية تليق بلحظة حاسمة مثل تلك:

- تتوقع أنهم موجودين يا شيخ؟

سألتُ مقاطعًا، فأجاب (الشيخ) بحماسٍ يمكن الخلط بينه وبين نوبات غضبه الشهيرة:

- إيش يعرّف أهلي.. وديني أشوف.

قال بلهجة آمرة، فكان هذا كافيًا لدفعنا جميعًا نحو المنحدر الذي انتهى أمام بابٍ خشبي موارب. وقبل أن تمتد يد أيّ واحدٍ

منّا نحو الباب، سارع (الشيخ) بخلع كوفيته ثم خبّأها داخل شال (السَّلِيمي) الذي كوّره أسفل إبطه وأمرني بفظاظته المألوفة أن أخلع له حزامه القماشي. طَرقنا الباب بعد أن تخفّف (الشيخ) من هيئة الأغوات المعهودة لكن لم يجُب أحد. عاودنا الطرق مرّة أخرى، أو ربما مرّتين أخريين، لا أذكر، فلم نحصل على أيّ رد أيضًا، وبالتالي، دفعتُ الباب ودخلنا تتابعًا.

دخلتُ أولاً ثم دخل من بعدي (الشيخ إسماعيل) وهو يتسلّح بحماسةٍ تفوق قدرتي على إسناده، ثم دخل (البُعبُع) بعده، فوجدنا أنفسنا في ممر ضيق يقود إلى ساحة فسيحة تنتشر في زواياها غرف صغيرة، وفي منتصف الساحة ينتصب عمود خشبي تتدلىّ منه مجموعة أتاريك. كافة الأبواب كانت مؤصدة باستثناء باب وحيد في الناحية البعيدة، تهادينا صوبه، وقبل أن تمتد يد الشيخ لدفع الباب، خرج من خلفه رجلٌ طاعنٌ في السن، وراح يسأل عن سبب وجودنا في فناء بيته على ذلك النحو السافر. ربما أجابه (الشيخ) وقتذاك بسؤاله الفظ، «فين وديتو أهلي يا ملاعين؟» أو بشتيمة نابية يتلوها استعلامٌ طارئ عن المكان الذي حُبستْ فيه عائلته، لكن هذا لم يكن ليقودنا إلى مبتغانا في سائر الأحوال؛ وذلك لأن الرجل أخبرنا، وبعد محاولات عديدة لتهدئة (الشيخ)، أنّ القابلة وزوجة (الشيخ) والطفل الذي معهم قد نزلوا عنده لفترة قصيرة ثم هجروا السكن.

إفادة الرجل المُسِن لم تكن كافيةً لإقناع (الشيخ)؛ لذا انطلق

(الشيخ) في رحلة جنونية لطرق كل ما أمكن من أبواب الحجرات الموزعة في الساحة، والتي يبدو أن الرجل كان يقوم بتأجيرها للنازلين. طاف (الشيخ) داخل الساحة بتثاقل واضح، وبمحاولات جليّة لمقاومة السقوط، بينما راح رجل البيت يمشي خلفه بتثاقل كي يكبح جماحه.

ولعله كان في وسع الرجل المسن أن يلحق بـ (الشيخ) الدخيل على بيته ويقوم بإيقافه، لكنّ نظرات (البُعبُع)، ومن قبل ذلك ندوب وجهه، كانت تُلمح إلى عدم تواني هذا الأخير عن الدخول في أيّ عراكٍ طارئ إن لزم ذلك. منح صاحب البيت (الشيخ إسماعيل) فرصة قرع الأبواب وتفتيش الحجرات حتى تحوّل غضب (الشيخ) العارم إلى يأس مُطلق، ولم نشعر بالحاجة إلى مغادرة المكان إلا حين دلف من باب الحوش شابٌّ فارع الطول، تبين لاحقًا أنّه ابن صاحب البيت.

اعترضنا الشاب بطريقة مهذبة لا تتماشى مع هيئته الباعثة على الفتوّة والرغبة في تأجيج النزاع، ثم قادنا إلى الخارج قبل أن يُعرّف بنفسه، وهناك، طالب بتوضيحٍ حيال ما كان يجري. أخبرناهُ بأننا جئنا للبحث عن قابلة كانت تعيش في هذا البيت، واختلقنا صِلة قرابة تربطنا بها، فأكّد لنا صدق ادّعاءات والده، بأنها قد غادرت المنزل رفقة المرأة والطفل الذين عاشوا معها، ثم تعهّد بالخروج من أجلنا لسؤال الجيران عنها ريثما ننتظر عودته في مساحة بالخارج مخصصة للضيافة وتُطلّ على أشباح النخيل الغارقة في السواد. أبدينا

الموافقة على مضض، كما لو كنا نملك خيارًا آخر سوى الانتظار (الشيخ) وتهادينا حيث أراد لنا.

على كراسي الحبال المرتفعة جلسنا أنا و(الشيخ إسماعيل)، بينما استند (البُعبُع) إلى جدار مجاور كي يدخن النصف المتبقي من سيجارة (أبو بس) التي أطفأها آنفًا. بدا أن الوقت مناسبٌ وقتذاك كي يلوذ كل واحدٍ منّا بصمته، فرحنا نزجي الوقت بالتفكير فيما سوف تؤول إليه الأمور، وفي رسم مشهدٍ يليق باللحظات القادمة.

أذكر أنني كنتُ قلقًا وقتها من احتمالية أن يتنبّه (النقيب) إلى تغيبنا، فتكون تلك نهايتي ونهاية (الشيخ إسماعيل) على حدّ سواء، لكنني رحتُ أطمئن نفسي بأنّه لن يشعر بغيابنا إطلاقًا في هذا المساء؛ لأنه سيمضي الوقت كاملاً في رعاية زوار المسجد من شخصيات معتبرة ومن وفود دولٍ أجنبية يأتون في آخر عشرة أيامٍ من كُل (رمضان) كي يهنؤوا بطقس ديني مطوّل، فينشغل الأغواتُ، وكما هي عادتهم، بإعلان حالة استنفارٍ منذ العشاء وحتى ما قبل الفجر، يجوبون ساحات المسجد للعناية بالمُصلّين وضبط المعتكفين، ولا يهدأ لهم بال إلا عندما يُتم الإمام قراءة ثلاثة أجزاء كاملة من القرآن بالتزامن مع دوي مدافع السحور.

أما بالنسبة إلى (الشيخ)، فأعتقد أنه كان قلقًا وقتذاك من احتمالية إخفاقه في العثور على زوجته وابنه الوليد داخل بيوت (قباء) الفقيرة التعبة، فيصبح من الواجب عليه العودة إلى سجنه في حارة الأغوات كي يمضي الهزيع الأخير من عمره في النحيب والعويل.

ومن المحتمل أن يكون هذا هو نفس الهاجس الذي راح يذكي نار القلق داخل (البُعبُع) الذي تحوَّل من التدخين إلى مضغ (التنباك) مباشرةً، وهذا في حد ذاته تصرّف أرعن لا ينتهجه المدخنون مطلقًا ولا أولئك المتمرّسون على (تعديل الكيف). لا بد أنّ (البُعبُع) كان في حاجة إلى إبقاء باله مشغولاً كي لا يصاب بالجنون لقاء التفكير في الحرج الذي سيطاله حين يقف أمام أصدقائه من شباب الأغوات كي يقول لهم إنّه قد أخفق في المهمة التي أوكلوها إليه.

يحوم (البُعبُع) في موضعه، بالكاد نرى خياله في ذلك الظلام الحالك، شيء من أضواء البيوت والمزارع القريبة يمنحنا القدرة على رصده وهو يختبئ في عباءة الليل، يمضغ (التنباك)، يرطن بصوت خافت، ولا نتبينّ القلق المنتشر على وجهه إلا في لحظات متفرقة، وذلك عندما يُشعل أعواد الثقاب بشكل عشوائي، لا لإحراق أيّة سجائر، بل كي يُغالب قلقه.

تمضي فترة طويلة من الانتظار، وبعد ما بدا وكأنّه عامٌ كاملٌ من اللهفة، يعود إلينا ابن صاحب البيت كي يزفّ إلينا الخبر الصادم، بأنّ القابلة التي كانت تعيش في الحوش قد خرجت للعيش لدى أقرباء لها في (مكّة)، وأنّ جُل ما يذكره أهالي المنطقة عنها هو وداعها الأخير ومشهد رحيلها عن (قباء) بصفة نهائية. لا أحد يعلم إن كانت صحبت معها المرأة والطفل اللذين أقاما معها، لكن الجميع قد اتفق على رحيلها، ولا أحد متيقن من احتمالية عودتها إلى (قباء) أو إلى (المدينة) مرّة أخرى.

سرى النبأُ بيننا كشرارةٍ هَلِع، لقد انتصر (النقيب) علينا مجددًا في هذا النزال غير المتكافئ، تغلّب علينا دون أن يواجه أيًّا منّا، ودون أن يتخطى حدود المسجد النبوي أصلاً، فتحتَّم عليَّ لململة أنقاض (الشيخ إسماعيل) وهو يتهاوى من فوق كرسي الحبال ثم يسقط باكيًا على الأرض مثل طفلٍ صغير.

كالبرق، رسم (البُعبُع) خطّةً خروج لنا من ذلك الموقف دون أن يغفل عن تعاطف ابن صاحب البيت، الذي هرع بدوره لمعاونتنا على تلقف الشيخ من الأرض. طلب (البُعبُع) من ابن صاحب البيت أن يسمح لي و(الشيخ) بالبقاء في ضيافته بضعة أيام، ولعله أتبع ذلك بأكذوبة قدومنا من خارج (المدينة) للتو، وبأننا لا نملك خيارًا للسكن، فوافق الشاب بعد التشاور مع والده، ثم قادنا إلى حجرة يتيمة في إحدى زوايا الحوش، وانصرف لتحضير بعض الأغطية والمفارش التي من شأنها أن تساعدنا على إعداد فراشين أرضيين منفصلين.

«ما فيه رجعة للحارة.. رح نحصّلهم يعَني رح نحصّلهم»، بإصرار مُتقن قطع (البُعبُع) وعدًا بأن يساعدنا على إيجاد زوجة الشيخ وابنه الوليد، أو ربما فعل ذلك بدافع الحيلة كي يحرّضنا على ضبط أنفسنا، أو بمعنى أدق، كي يحرّض الشيخ على التوقف عن النحيب، فانطلتْ علينا خدعة (البُعبُع) تلك، واكتشفنا وجودنا بشكل غير متوقع داخل نقاش كان يدور عن كيفية مواصلة التفتيش عن القابلة.

لعلي اقترحتُ في البدء أن نعود إلى حارة الأغوات، ومن ثم الترتيب لمغامرة بحث أخرى في يوم آخر، إذ كان الوقت كافيًا وقتها

للتراجع دون أن ينتبه (النقيب) إلى حقيقة خروجنا في هذا المشوار، فهو مشغولٌ مثل سائر الأغوات برعاية المسجد النبوي، لكنّ (البُعبُع) أبدى رفضًا قاطعًا تجاه المقامرة بأرواحنا، وراح يذكّرنا بطريقة صارمة، أننا قد خرجنا إلى العالم الخارجي بشكل نهائي، ولا سبيل لرجوعنا.

لزمتُ الصمت ريثما أفكّر في الخطوة القادمة، وهذا ما فعله (البُعبُع) أيضًا، لقد ذهب في مشوار تفكير طويل وهو يعبث بعلبة أعواد الثقاب، وبالأعواد نفسها دون أن يشعل شيئًا منها. أما الشيخ، الذي بدا غير منصتٍ للحوار الجماعي منذ بدايته، فقد خرج عن صمته بعد برهة قصيرة، وقال:

- حنروح (مكّة)... رح نحصلهم في (مكّة).

نهض من مكانه بتثاقل كبير، ومدّ يده نحوي ثم قال آمرًا:

- وديني أبغ أشخ.

حين أوصلتُ الشيخ إلى الحمام الوحيد في ذلك الحوش، كان الوقت ملائماً حينها كي نضع نهاية مقتضبة لخطط البحث التي كنّا نفكر فيها، وكان ملائماً أيضًا لـ (البُعبُع) كي يغادرنا بعد التعهّد بتدبير أمر سفرنا إلى (مكّة)، فمضتْ تلك الأمسية الغريبة دون أن نعود إلى الحارة مجددًا، وكانت تلك هي اللحظة التي انشققنا فيها عن جماعة الأغوات.

ولعل الأمر كان باعثًا على الخوف حينها، أقصد أن نعيش في ذلك الحوش ونحن مدركون بأن (النقيب) لم يكن ليدعنا وشأننا، إذ

لا بد وأنه كان سيوحي إلى جماعته كي يخرجوا للبحث عنّا بمجرد أن يكتشف حقيقة هروبنا، فينطلقون في أرجاء (المدينة) بصفتهم جنودًا مخلصين، سوف يفتّشون الأزقة شبرًا شبرًا، ثم سيقبضون علينا في هذا الحوش النتن، والذي يُعتبر مقصدًا محتملاً لكل من أراد العثور على (زوجة الشيخ) وطفلها. لكن (الشيخ) ما كان ليتراجع عن خطة سفره إلى (مكّة) مهما كلفه الأمر.

لقد قضينا ليلتين كاملتين في ضيافة (العم بشير) وابنه إلى أن تدبّر (البُعبُع) شؤون سفرنا. كنتُ أقضي أغلب الوقت في تنظيف المواطن التي يجلس فيها الشيخ وتهيئة الأماكن التي ينام فيها. لا شأن لي سوى ضمان أعلى مستويات النظافة في كل موضع يحل به، وهذا يشتمل على غسيل الحمام في كل مرّة تسبق خروج (الشيخ) لقضاء حاجته. وإلى جانب هذا كله، كان من الواجب عليَّ أيضًا، وبصفتي وصيًّا على (الشيخ)، أن أغسل له ثوبه الوحيد بشكل يومي فهو معني تمامًا بالطهارة، أفعل ذلك من دون أن أهب نفسي القدرة على تنظيف ملابسي الخاصة أصلاً، ولا أكترث لنوبات الغضب التي تُداهم (الشيخ) كلما رآني، تلك النوبات التي تهطل لأسباب مختلفة، بعضها يتعلق ببلادتي وغبائي وكوني نذير شؤم، وبعضها الآخر يتعلق بتقاعسي في العثور على طريقة مناسبة لتعجيل أمور سفرنا.

ليومين كاملين حاولتُ العيش بين نار (الشيخ) المشتعلة دومًا، وبين برود (البُعبُع) الذي كان ينعطف لزيارتنا كل مساء كي يطمئننا بشأن ترتيبات السفر. يسأله (الشيخ) بحنق عن أسباب تأخره،

فيجيبه بأن النبي (نوح) لم يفرغ من بناء سفينته إلا قبل أن يأتي الطوفان مباشرة، وقد يزداد الجدال بينهما لفترات طويلة حتى يجد (الشيخ) نفسه مضطرًّا إلى وضع حد لهذه المناكفة التي من شأنها أن تُنفّر الشخص الوحيد القادر على إيصاله إلى (مكّة)، فيلتفت صوبي حانقًا، لا حيلة له سوى أن يصب غضبه عليّ، ثم يقول لي بفظاظته التي اعتدتها، «قوم غسل الحمام أبغ أروح أخري». ينشغل (الشيخ) بإفراغ بطنه، وإفراغ غضبه في الحمام أيضًا، بينما ينصرف (البُعبُع) للجلوس مع ابن (العم بشير) في الفناء الخارجي وشرب (الشيشة). يهيئها بنفسه، مستخدمًا (دخان الحُمِّي) من الصنف الممتاز، فيبلّل التبغ بالماء أولاً، ثم يفركه بأصابعه حتى يجف، ويُتبع ذلك بوضعه في رأس (الشيشة) المصنوع من الفخار، وهذا قبل أن ينفخ في الرأس من الأسفل حتى تمُزج حبّات (الحُمِّي) ببعضها جيدًا، وتصبح التعميرة متوائمة مع نسيم خفيف يهبّ من بين قامات النخيل ليجعل طقس الجلوس أكثر حميميّة.

يُقلّب (البُعبُع) جمرات (الشيشة) بملقطه الصغير، يفعل ذلك وهو يتبادل مع ابن (العم بشير) أحاديث عامة لا شأن لها بالسبب الذي دفعنا إلى القدوم إلى (قباء)، وقد أشاركهما الجلوس من حين إلى آخر كي أصيخ إلى (البُعبُع) وهو يتباهى بفتوّته ويسرد قصص بطولات تتخللها مغامرات متنوعة برفقة (عناترة) المدينة، فيمضي الوقت سريعًا ونحن نستمع إلى مغامرات طائشة تشبه الأساطير المستوردة من الخيال، وقبل أن يمضي علينا من الوقت

ما يكفي لإخماد شغفنا بالإنصات إلى قصص (البُعبُع)، يهطل علينا (الشيخ إسماعيل) وهو متسلّح بكل ما يملكه من غضب، فيلومنا على تقاعسنا ويديننا بهدر الوقت عوضًا عن تأمين أمور سفرنا. كالبركان الثائر يصب جُل حنقه علينا، فيجد (البُعبُع) نفسه ملزمًا بالمغادرة دون أن يصل إلى أعلى مراحل الكيف، ودون أن يستبدل (ولعة الشيشة) بأخرى.

يرحل (البُعبُع) ببروده الشديد، لا يقول شيئًا، هذه هي طريقته المعتادة لمجابهة نوبات الغضب التي باتتْ تنتاب الشيخ اخيرًا بشكل متكرر، أما أنا، فلا يكون في وسعي سوى الوقوف في المنتصف بين ذينكَ الاثنين، مشتتًا، وصابرًا، لا أدري ما أفعل. لقد كنتُ البُخار الحائر حين يُصب ماء يغلي على ماءٍ فاتر.

بعد يومين من مغادرة حارة الأغوات، وجدنا أنفسنا أمام سيارة (بيجو) أخرى، ومن خلفنا ابن (العم بشير) يقف مودعًا. لا أذكر أننا قد قلنا له إلى أين سوف تكون وجهتنا، ولا أعرف إن كان قد صدّق حكايتنا أصلاً، أو إن كان قد تعرّف على هويتنا الحقيقية، لكنّه ودّعنا بحرارة كما لو كان يصدّقنا، بل وقد وقف أيضًا يراقبنا ونحن نختفي في السيارة رفقة أشخاص لا نعرفهم ثم ننطلق نحو الطريق المسافرة خارج المدينة. لقد كان ابن (العم بشير) هو أول شاهد على انطلاقنا في ذلك المشوار الذي لم يكن من السهل التنبؤ بنهايته، رآنا ونحن نذهب إلى المجهول بجُرأة أطفالٍ يدنون من بيتٍ تسكنه العفاريت.

١٢

اسمحوا لي أن أعود الآن إلى اللحظة الراهنة، حيث لا أزال راقدًا بالإكراه في حوض الاستحمام. يطول غياب الشاب البدوي داخل منزلي إلا أنّه يرجع بعد فترة ليست بالقصيرة. لا يعثر على أيّ شيء يمكن الاستعانة به لإزالة الركام من فوقي، وهذا أمر محبط بالفعل، لكنَّ شعورًا طارئًا بالطمأنينة يجتاحني حين يصبح الشاب بجواري مرة أخرى. «لا أريد أن أمضي هذه اللحظات الحاسمة من عمري وحيدًا»، أقول لنفسي، ثم أراقبه وهو يدنو مني بصعوبة تلائم ارتفاع منسوب المياه القادمة من الشارع بشكل ملحوظ.

أراه وهو يرفع قدمه اليمنى أولاً ثم يعيد غمسها في الماء بعد أن يخطو بها خطوة واسعة نحو الأمام. يفعل الشيء نفسه مع القدم اليسرى، يرفعها عاليًا ثم يعاود غمسها في الماء وهو يخطو خطوة إضافية تجاهي، ولا يتوقف عن ذلك المشي إلا حين يصبح الفراغ بيننا أقلّ من ثلاثة أشبار. من هذه المسافة القريبة يمكنني معاودة تأمل قوامه النحيل، أفعل ذلك دون خجل، ثم أخلص إلى أنّ بنيته

الجسمانية لن تساعده على إزالة الركام بمفرده، قطع الأسمنت هذه تحتاج جسدًا مفخخًا بالعضلات، لكنّ يبدو عليه أنّه شابٌّ واسع الحيلة، سوف يتوصل إلى وسيلة ما، وسوف يخرجني حتماً من هذا المأزق.

في حقيقة الأمر، إن طريقة جريان الماء لم تكن تدعو إلى التفاؤل، لكن، ولسبب ما، يستيقظ بداخلي أمل بالنجاة. أحافظ على رباطة جأشي وأنا أراقب ارتفاع منسوب المياه الملحوظ، وأراقب كذلك قدرة الفيضان على أن يغمر جسمي بشكل كامل. لا شيء يبرز فوق السطح سوى رقبتي ورأسي بسبب تحدب حوض الاستحمام الذي يدفعني نحو الأمام، كما لو أنيّ أسند ظهري إلى ثلاث وسادات.

«لن يدوم الأمر طويلاً». أفكر في ضرورة أن يسارع الشاب بإيجاد طريقة لإنقاذي، وقد لا ألقي بالاً في بعض اللحظات لمدى كارثية الوضع، ما دمتُ قادرًا على رؤية كل ما يحيط بي، لكنّ القلق يعاود زيارتي حين أفيق على صوت الجمادات وهي ترتطم في الخارج بقوة. أصيح من شدة الألم عندما يحاول الشاب دفع الركام بيده، إنّه ينجح في إزالة بعض القطع الصغيرة، لكن الأجزاء الكبيرة من الحائط المنهار ترفض أن تتحرك، وبعد مجهود إضافي يعلن الشاب استسلامه أخيرًا ثم يركن إلى الركام المجاور كي يستند إليه.

يتكوّم الشاب فوق قطعة خرسانية كبيرة بجوار المبولة. طريقته غير المريحة في الجلوس كانت تشي بعدم قدرته على استجماع قواه. يزداد قلقي. ضوء النهار يهرب من وراء الغيوم الكثيفة وعبر الفراغ

الذي صنعه الجدار كي ينهمر على الشاب. أوه، كم يبدو في تلك اللحظة مرهقًا ومحبَطًا ومهزومًا!

«سنجد حلاًّ». أقول من تحت وطأة الألم، فيشيح بنظره نحو الخارج، حيث الماء الذي يحرّك الجمادات بضراوة، ولعليّ أعمد إلى اختلاق حديث بيننا كي تنصرف من باله كل الاحتمالات المرتبطة بحتمية أن ينالنا شيء من تلك السيارات والحاويات والأشجار التي راحت تتجوّل رفقة الطوفان في أزقة حارتنا:

- أنا كمان مريت باللي قاعد تمر فيه الآن.

قلتُ مقاطعًا، فسألني دون أن يفهم:

- إيش تقصد؟

- أقصد إني ساعدت رجال كبير في السن كان يمر بمشكلة كبيرة، وانفرجتْ أموره.

- طيب كويس.

قالها بتبلّد لأنه على الأرجح لم يفهم المغزى، فعُدتُ لأوضّح له:

- الدنيا دوارة يا ولدي، زي ما حتساعدني دحين، فيه بكرة أحد رح يساعدك.

- لا تشيل هم يا عم.. رح أدبرك.

ما زال يحاول التقاط أنفاسه. يسند ظهره إلى الجدار. أرى صدره يرتفع ويهبط بشكل متتابع وسريع. توجد مساحة غائرة

أسفل قفصه الصدري. لربما كان عيبًا خلقيًّا، لستُ أدري، لكن تفاصيله في سائر الأحوال كانت تدل على عدم قدرته على مجاراة موقف كهذا. لا أتوجس رغم قلقي، بل أفطن إلى حاجتي لمتابعة الحديث معه إلى أن يستجمع قواه. أميل إلى إخباره عن الطريقة التي اعتنيتُ فيها بـ (الشيخ إسماعيل) أثناء سفرنا من (المدينة) وإبان وصولنا إلى (مكّة). لا أمنحه الكثير من التفاصيل حول طبيعة كوننا من جماعة الأغوات، إذ إنيّ لا أجد في هذا الأمر ما يستدعي المشاركة، لكنني بالتأكيد أخبره أنني قد خرجتُ رفقة رجلٍ طاعن في السن كي أساعده على إيجاد طفله الوليد وزوجته التي سافرتْ إلى وجهة غير معلومة.

يعيدني الحديث مع الشاب البدوي إلى الطريق الترابية المسافرة صوب (مكّة) وإلى سيارة (البيجو) التي تشاركناها مع ثلاثة أغراب و(كدَّاد) يمتهن نقل المسافرين بين (مكّة) و(المدينة)، فأتذكرنا ونحن نكابد مشقة السفر بصبر وسِعة بال.

كان (الكدَّاد) وقتها يوجّه سيارة البوكس البطيئة نسبيًّا -إذا ما قمنا بمقارنتها بسيارات اليوم الحديثة- بينما أقوم أنا و(الشيخ) بإيجاد طريقة ملائمة لمشاركة المساحة الضيقة مع بضعة غرباء لا تربطهم أيّة صلة بنا.

لم تشكل المساحة أيّة معضلة بالنسبة إلى (الشيخ) الذي جلس منفردًا في المقعد الأمامي إلى جوار (الكدَّاد). لقد نال هذا الامتياز بحكم تحدّب قامته ولكونه طاعنًا في السن، أما أنا، فقد تناوبتُ على

الجلوس بين الغرباء، إما في الصف الخلفي وإما في صندوق السيارة البوكس. كنت أفعل هذا في كل مرة يتوقف فيها (الكدَّاد) للراحة، فأتبادل معهم الأمكنة على مضض، لأن هذا ما يفعله الركاب المسافرون عادة، وأبذل جهدًا كبيرًا لأقاوم شعوري المتواصل بالرغبة في دفعهم كي يزدحموا جميعًا في الصندوق ويفسحوا المجال لأنفرد بصف المقاعد الخلفية إلى أن نبلغ وجهتنا، لكنني أتجرّع هذه الرغبة على مضض.

توقفنا لبرهة كي نتناول الطعام في استراحة على جانب الطريق. كانت تعليمات (الشيخ) تقتضي أن أقوم بتنظيف حمام الاستراحة العام قبل أن يدخله لقضاء حاجته، فهرعتُ لتلبية مطلبه دون أن يتبادر إلى ذهني أنَّ هروبي من (المدينة) يعني خروجي من جماعة الأغوات، ويعني كذلك أنني قد أُعفيت كليًّا من المهام المسندة إليَّ، ولم يكن من المستغرب وقتذاك أن تصيب أحد المسافرين نوبة من الضحك حين يعرج على منطقة الخلاء المرتبطة بالاستراحة، فيجدني أدلق الماء على جدران أحد الحمامات وأغسل أرضياته وأحرص على تنظيف المنطقة المحيطة بالمرحاض الذي لا يعدو مجرد فتحة عميقة في منتصف الأرض.

لقد سرتُ بالشيخ بعد أن قضى حاجته إلى غرفة استأجرها (الكداد) كي نتناول فيها وجبة الغداء، فدلفنا لنجد أنفسنا في مواجهة رفقاء سفرنا الذي التفّوا حول صينية أرز كبيرة يعلوها سمك الناجل. ولعل الشيخ كان قد تناول القليل من الطعام وقتها

بحكم حاجته إلى ما قد يسد جوعه، لكنّه لم يشعر بالراحة في الحجرة التي كانت تتعارض كليًّا مع معايير النظافة الخاصة به. جلس بتقزز بليغ على فرشة حصير مهترئة كي يدفع بالقليل من الطعام إلى جوفه من دون أن يجرؤ على الاقتراب من مشروب (كندا دراي) الذي جاد به (الكداد) على الرُّكاب.

كان (الشيخ) واحدًا من أهالي الحارة الكثيرين الذين يمقتون المشروبات الغازية. تعود هذه الكراهية إلى اللحظة التي غزا فيها مشروب (البيبسي كولا) حارة الأغوات دون إنذار مسبق، ولعليّ أقصد اللحظة التي دخل فيها (موسى شابورة) على أهالي الحارة وهو يحتسي (البيبسي كولا) ويقهقه برعونة غير مألوفة. كان (موسى) صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره، حين تجمهر أصدقاؤه حوله كي يلقوا عليه النكات مقابل أن يقاسمهم بعضًا من مشروبه الغازي، لكنّ البالغين من أهالي الحارة أساءوا فهم الموقف، وظنّوه ثملاً، فانهالوا عليه ضربًا وشتماً، ثم عمدوا إلى تحريم المياه الغازية على أهاليهم، وعلى أنفسهم أيضًا، دون أن يدركوا أن مشروبًا كهذا لا يمكن أن يكون مُسكِرًا.

لقد ظلّ (الشيخ) بعد تلك الحادثة مقتنعًا بأن جميع المياه الغازية لا تصلح للشرب، حتى وإن لم تكن مُسكِرة، لهذا آثر شرب اللبن مع طعامه رغم تحذير (الكدَّاد) له بأن تناول اللبن مع السمك يسبب (البرَص)، ولم يشعر (الشيخ) بأنه كان مضطرًّا إلى تبرير طريقته في تناول الطعام، أو حتى لنقد تصرفات رفقاء سفرنا، والتي من المؤكد

أنه كان يراها سافرةً جدًّا، إذ إنهم لن يفقهوا يومًا ما معنى أن يكون شيخًا للأغوات، أو ما مدى أهمية الدور الذي لعبه طول عمره.

لقد أنهى تناول طعامه على عجل ثم أوعز إليَّ كي أصحبه خارجًا، فمنحته كتفي يتوكأ عليها وسرنا معًا صوب دكّة بالخارج وهو يحوقل ويستغفر. رحتُ أختبر نزقه بالنهوض من موقعي بين الفينة والأخرى كي أقصد البرّاد المجاور للحجرة وأصب لنفسي بعضًا من الماء في كوب الـ (توتوا) المعدني، أو المغراف كما كنا نسمّيه، فأرى عين (الشيخ) وهي تتبعني كما لو كان يعتقد أنني سأقصد كراسي الحبال التي بالخلف حيث جلسَ بقية المسافرين لتدخين (الشيشة). أشرب الماء من الكوب المربوط بسلسلة حديدية في قائم حديدي يلتصق بالبرّاد، ولعلي أطعم ما تبقى من السمك لقطط تتسكع في الجوار، ثم أعود لأجلس بجواره، فيعمد (الشيخ) إلى توبيخي لأنني أشرب الماء من كوب الـ (توتوا) القذر، يفعل ذلك على الأرجح لأنه يفشل في القبض عليَّ بتهمة شرب المسكرات أو تدخين (الشيشة).

- إنتَ كلب؟ تشرب من أي شي؟ يعني إيش عرفك مين شرب قبلك من دا المغراف؟

أخبره بأني قد قمت بغسل الكوب بالماء مِرارًا قبل استخدامه، فيجيب هازئًا:

- إنتا كلب.. واللي يشرب من دا المغراف كلب زيك.. المغراف يبغاله يتغسل بالتراب عشان ينشرب فيه.

يُسهِب في تقريعي كما لو كنتُ الشخص الذي أثار حفيظته أصلاً، ثم يعود ليقول لي وهو يراقب رفقاء سفرنا الذين جاءوا تباعًا بعد أن فرغوا من التدخين:

- محد يسوي الحركات دي إلا الدشير.

- صادق يا شيخ.

أقول مؤيدًا فيلتفتُ نحوي كي يقول حانقًا:

- إيش عرفك إنتَ؟ أقول.. تدري إن العيد بعد كم يوم؟

ينتقل إلى موضوع آخر، فأجيبه:

- أيوه يا شيخ.

- والله إنك ما تدري عن شي.. عايش حياتك زي البهيمة.

يتأوه مطولاً، من المرجح حتى يعبرّ عن حسرته لقاء الصدفة التي جعلتني أنا تحديدًا رفيقًا له في محنتهِ تلك. من المحتمل أنه لم يكن يخالني واسع الحيلة، وأنّ فشله في العثور على عائلته يرتبط قطعًا بكوني أنا من يقوم بمساعدته، كما لم أستبعد أن يكون قد استحضر في باله خيالات شبابٍ آخرين من الأغوات يراهم أكثر جدارة منّي، فيهرعون لإيجاد أسرته المشردة في غضون ساعات قليلة دون الحاجة إلى «الشحططة والمرمطة والنطنطة من مكان لمكان زي القرود»، على حد تعبيره.

يتأوه للمرّة الثانية ثم يذهب لاستذكار طقوس العيد في (المدينة) حتى يزجي الوقت ريثما يفرغ رفاقنا من اتخّاذ مواضعهم في سيارة الـ

(بيجو). في الحقيقة، أنا لم تتسنَّ لي، ورغم السنوات التي عشتها في (المدينة)، فرصة اختبار التجارب التي خاضها (الشيخ) في مواسم الأعياد، تلك التجارب التي لا تنحصر في حارة الأغوات فقط، بل تمتد لتبلغ (العوالي) و(زقاق الطيار) و(باب المجيدي) و(باب التمّار). ندرة وجودي خارج حدود حارتنا، ومن قبل ذلك عدم إقامتي برفقة عائلة، أسهم في إبعادي عن طقوس التأهب للعيد، والتي تبدأ عادة من داخل بيت الأسرة ثم تتسرّب إلى الشارع. لم أختبر شيئًا من استعدادات الأمهات لتحضير (معمول العيد) و(الغريبة) و(مربى الدبيازة)، ولم أشهد خروج الفتيات البالغات للتجول بجوار محلات (الخنبشي) و(مُرشِد) للملابس النسائية، والواقعة قرب نُزل (بهاء الدين)، كي يستلهمن أفكارًا راقية لفساتين العيد، فهنّ لا يملكن القدرة على التبضع في هذه المتاجر المخصصة للمُترفين، وجُل ما يمكنهن فعله هو اللجوء إلى أية خياطة يعرفنها حتى تساعدهنَّ على تحويل مزيج من الأفكار المختلطة إلى فساتين مصنوعة من أقمشة متوسطة الجودة.

لم تكن لديَّ أسرة أعيش معها، ولهذا، كل ما بدا لي مألوفًا من حديث (الشيخ) عن استعدادات العيد هو مشاهد طلاء المنازل بالنورة البيضاء، وأهازيج الأطفال التي تنمو، وحشود الخارجين من بيوتهم فجرًا لتأدية صلاة المشهد، وجموع المتسولين على الطرقات المؤدية إلى ساحات المسجد النبوي، وزيارات الأغوات المتتابعة لأعيان المدينة بعد انقضاء الصلاة، ووجبة الإفطار أو ربما هو الغداء

الجماعي الذي يقيمه الأغوات لأنفسهم في نهاية النهار الأول، واللعب بـ (سيوف الراح) على ظهور الخيل، وأهازيج المزمار التي يتقاذفها شباب الحارة في الأمسيات كجزءٍ من جلسات السَمَر.

لقد تأوَّه الشيخ طويلاً، ولم يجرؤ أحد على مقاطعته أو حثه على ركوب سيارة (البوكس)، حتى حين شعر (الكداد) البليد بأن وقت رحيلنا قد حان، تركناه يسرح خلف خيالاته إلى أن شعر هو نفسه بأنَّ الوقت مناسب لإيقاف تدفق تلك الذكريات وإعادتها إلى موضعها الأصلي، داخل رأسه الصلبة العنيدة، فأقفل الباب خلف خيالاته ثم استند إليَّ حتى يجابه الواقع المرير.

ركبنا السيارة الكسولة لساعات طويلة قبل أن نصل إلى (جدّة)، والتي كانت الوجهة الأخيرة لرفقاء سفرنا، فنزل جميع الركاب بينما لزمتُ مقعدي خلف (الشيخ) حتى نسمح لـ(الكداد) بأن يصحبنا إلى (مكّة).

وقوفنا للاستراحة والصلاة مرات كثيرة زاد من بُعد المسافة بين (المدينة) و(مكّة)، كما أنّ إصرار الشيخ على تنظيف جميع الحمامات التي صادفتنا في الطريق كان سببًا آخر في تأخرنا، فوصلنا بعد يومٍ كامل إلى بيت شعبي من طابق واحد في إحدى حارات (مكّة) التي يستوطنها المهاجرون الأفارقة. كان (البُعبُع) قد تدبر أمر إقامتنا عند (العم عباس) قبل خروجنا في هذا السفر، وبالتالي، وجدنا أنفسنا، ووفق ترتيب مسبق، أمام رجلٍ في عقده الخامس تقريبًا وهو يقول لنا:

- اتفضلوا.. اتفضلوا.

لا شيء مثير حول قصة (العم عباس) أو حول أسباب قدومه إلى (مكّة)، إذ إنه، ومثل أغلب أفارقة الحجاز، كان قد خرج في مقتبل العمر مع عائلته لأداء فريضة الحج، لكن الفاقة وتزايد تكاليف السفر حالتْ دون مقدرة عائلته على الرجوع إلى بلادهم البعيدة، فلم يجد (العم عباس)، ولا أفراد عائلته، أيَّ خيار آخر سوى البقاء في (مكّة).

إن افتقار (العم عباس) إلى المهارات اليدوية، بالإضافة إلى كونه أُميًّا، جعل ظروف إقامته صعبةً جدًّا، كما جعل عودته إلى بلاده أمرًا مستحيلاً. كان الرجل بالكاد قادرًا على القيام بمهامٍ موسمية تفي بسداد أجرة إقامته في هذا الحي المتهالك وتأمين كفايته من الطعام والشراب، ناهيكَ عن ادخار ما يكفي لتأمين أجرة السفر. قال إنه شغل بعض الأعمال البسيطة من وقت إلى آخر، فعمل حفارًا للقبور، ثم انتقل إلى العمل في توزيع مياه زمزم داخل الحَرَم أثناء مواسم الحج، ولما تقدم به العمر، وخارت قواه، تحوَّل إلى تنظيف مجاري التصريف البدائية التي تميزت بها أحياء (مكّة). لكن بعد أن شاخ، صار يعيش على الصدقات التي ترده بالاسم من أهالي (مكّة) ميسوري الحال أو الأثرياء الأفارقة الذين يأتون للحج والعمرة.

لقد استسلم الرجل منذ صباه لواقعه المرير وهو يجزم بأن الحظ لم يقف بجانبه يومًا، لا سيما حين اكتشف عدم أهليته للحصول على الجنسية السعودية مثل أقرانه الذين اكتسبوا مهاراتٍ تؤهلهم

ليصبحوا جزءًا حقيقيًّا من هذه المدينة، وأن ينجحوا في تدبير أمورهم وتكوين أُسرهم بعيدًا عن العوز والفاقة، فأقفل الرجل باب منزله على نفسه بمجرد أن توفي والداه، وعاش وحيدًا داخل بيته بانتظار اللحظة التي يموت فيها ويرحل بشكل نهائي ومجاني عن (مكّة).

لا بد أن وصولنا إلى (العم عباس) قد بث في قلب الرجل قليلاً من السعادة، أو ربما كانت توصية (البُعبُع) هي ما دفعتْه إلى استضافتنا في بيته المتواضع بحفاوة بالغة. لقد فعل الرجل جُل ما في وسعه كي يجعلنا نشعر بالراحة في «خرابة لم تعرف أبدًا معنى النظافة»، هكذا وصف (الشيخ) المكان، ومنحنا سلطة تشكيل منزله حسبما يلائم (الشيخ)، وحسب معايير الأغوات الصارمة، فوقف أمامنا دون أن يعترض على هيئة البيت ولا المواعيد الجديدة للنوم، والصلاة، والأكل، والشرب.

وجدَ (العم عباس) نفسه تحت وطأة قوانين (الشيخ) الصارمة التي اقتضتْ الخروج لصلاة الجماعة قبل وقتها بساعة كاملة، وتناول وجبات الإفطار والغداء والعَشاء في مواعيد ثابتة، والتأهب للنوم قبل العاشرة من كل مساء، ولم يُبدِ، ولو لمرّة، أيَّ تأفف حيال تعنتْ (الشيخ) ومناكفته وتقريعه. بدا لي أنه كان مشتاقًا إلى العيش في ظل أسرة ترغمه على قوانينها الصارمة.

عكفتُ منذ وصولنا على غسل البيت وتنظيفه بأكمله، هكذا أراد (الشيخ)، ثم قمتُ بغسل الحجرات والحمام و(المُركب) الذي

بالكاد يرقى إلى أن يكون مَطبخًا، وأعدتُ بعد ذلكَ تهيئة (القَاعة)، وهي غرفة كبيرة في أقصى البيت، يساوي عرضها عرض البيت كاملاً، حتى تغدو حجرة ملائمةٍ لإقامة (الشيخ). لقد فعلتُ كل ذلك على مرأى ومسمع من صاحب البيت الذي، انضم إليَّ في أوقات متفرقة حتى أحول بيته إلى ما قد يشبه مقرًّا للأغوات.

كان المال الذي بحوزتنا بالكاد يكفي لتدبير أمور سفرنا، إذ لم يعد أيّ واحدٍ منّا يتقاضى الأجر الذي خصصته الحكومة للأغوات، لكن (العم عباس) رجّح أن يقوم بتأمين احتياجاتنا من الطعام والشراب والكساء دون أن يطلب منّا أيّ مقابل. ربما فعل ذلك بالاستناد إلى حفنة مالٍ دسَّها (البُعبُع) في يده، أو ربما لأنَّه متدين وخيرّ، لستُ أدري، لكن الرجل لم يُشعرنا مرةً بأننا نشكل عبئًا عليه، حتى عندما جاءت تدخلات (الشيخ)، ولأكثر من مرة، بطريقة فجّة.

مكثنا في ضيافة (العم عباس) ثلاثة أسابيع كاملة قبل أن يدبر لنا الرجل موعدًا للقاء شيخ الأغوات في (مكّة)، والذي كان منشغلاً باستضافة وفود رسمية مهمة. كانت تلك الفترة المليئة بالترقب كفيلة بأن تنال من عزيمة (الشيخ)، لا سيما حين سقط يومًا والتوى كاحله فصار طريح الفراش لا يغادره أبدًا، وصار مائلاً إلى تقريعي وصب اللوم عليَّ بسبب تقاعسي عن إيجاد عائلته. بدتْ تلك الفترة أشبه بثلاث سنوات، وليس ثلاثة أسابيع. أمضيتها في خدمة (الشيخ) وأنا أنال نصيبًا وافرًا من السباب والشتائم، ولما

كان الرجل يشعر بأنه قد نال كفايته منيّ، راح يشتم (النقيب) و(الأمين) ويتكهَّن بأنهما لا يقدران على إدارة جماعة الأغوات والقيام بالأعمال المنوطة بهم.

- عيال الكلب.. والله ما يعرفوا يسووا شي بدوني.

يميل (الشيخ) إلى الاعتقاد بأن الإهمال قد أصاب الجماعة فعلاً، كبارًا وصغارًا، وهذا يعني التمرد على القوانين الصارمة التي وضعها قبل رحيله، كأن يسمح (النقيب) للأغوات بالدخول من (باب جبريل) بدلاً من الباب المجاور والمخصص لمراقبة أوقات حضور وانصراف أفراد جماعتنا، أو أن يسمح (الأمين) للطلاب المتملصين من (مدرسة دار العلوم الشرعية) القريبة بالتطوع لحمل دوارق الخزف بطريقة عشوائية من السبيل إلى المسجد النبوي دون الاكتراث لحوادث تحطم الدوارق وافتقارهم إلى الانضباط.

رحتُ أراقب الشيخ وهو يتحول بالتدريج إلى شبح إنسان لا يشبه شيئًا من ذلك الرجل الذي التقيته أول مرة حين جئتُ إلى (المدينة). رأيتُ جسده يصبح هزيلاً، ضامرًا، ومتلفعًا بالهزيمة التي اخترقتْ جلده لتضرب في روحه عميقًا. تحولتْ رغباته من مجرد الحاجة إلى الاستناد إلى كتفي إلى ضرورة أن أقوم بغسل جسده حين يفرغ من قضاء حاجته. عجزه عن الحركة جعلني أشعر بالتعاطف معه، حتى عندما يقسو بكلماته عليَّ، فيخبو بداخلي ذلك الفضول الذي كان من المفترض له أن يتَّقد حين ألامس عضوه الذكري، وأجد نفسي متأزمًا في حضرة انهزاميته تلك، لا سيما حين يستغلُّ

فرصة سقوط المطر ذات ظهيرة عابرة، وهو أمرٌ يندر حدوثه جداً في مدينة جافة مثل (مكّة)، حتى يردد الأدعية في وقت استجابة، فأتخيل الله يجيب دعاءه، وأتخيّل كل شيء يعود إلى أصله، قطرات الماء تدفعها الأرض نحو السماء، خيوط الشيب في رأس (الشيخ) تصبح على الفور سوداء، تخيلّوا معي فقط، أن تفتح زوجة (الشيخ) باب البيت الذي قد غسلتُ عتبتهُ قبل أيام كي تعبر الممر رفقة طفلها ثم تجلس بجوارنا!

١٣

بعد ثلاثة أسابيع من وصولنا إلى مكة، حصلتُ أنا و(العم عباس) على فرصة لقاء شيخ أغوات (مكّة)، والذي يقطن في حي (الهجلة) بمنطقة (الشبيكة). كان أغوات (مكّة) منفصلين تمامًا عن أغوات (المدينة)، لا تربطهم أيّ صفات اعتبارية بنا، ولا حتى أيّ زيارات عابرة في المناسبات ومواسم الأعياد. كّنا وجهين مختلفين لعملة واحدة، جماعتان مختلفتان في الظاهر لكن متطابقتان في الجوهر. هطلنا على شيخهم، فلزمهُ بعض الوقت كي يتفرغ للقائنا. كان الرجل قد انتهى للتو من عقاب أحد رجالاته لما جاء لمقابلتنا في حوش يلتصق بمقر إقامته، فتهادى صوبنا بهيئة تختلف كليًّا عن الصورة المتوقعة لشيوخ الأغوات الذين عرفتهم في حياتي. لا أعلم لماذا كنتُ إخال نفسي على وشك مقابلة نفس الشيخ الذي رأيتهُ حين وصلتُ من (اليمن) إلى (مكّة)، ذلك المُسنّ الذي قام بتعريتي أمام (محسون) قبل أن يفرق شملنا، خاب ظنّي كثيرًا لما وجدتُ نفسي أمام رجلٍ ممشوق القامة وفي أواخر الثلاثينات تقريبًا.

لقد بدا شيخ أغوات (مكّة) يافعًا وأصغر من أقرانه بشكل ملحوظ، لكنّه في سائر الأحوال كان قادرًا على ضبطهم، تشي بذلك طريقته في الوقوف وطريقته في الإمساك بالخيزرانة التي راح يقلّبها بين يديه.

أعاد الرجل ترتيب الشال على كتفه عندما دنا منّي أنا و(العم عباس)، ثم أخذ يشرح لنا، كما لو أننا مهتمان أصلاً، بأنّه لا يَقبَل بالهمجيّة مطلقًا، وأنه كان على وشك إعفاء أحد رجالاته من الخدمة لأنّه قام بالتهجم على أحد العامَّة، ولولا وساطة مندوب الحكومة، لكان قد ألقى به إلى الشارع عوضًا عن الاكتفاء بعقوبة (الفلكة):

- لو طردناه فين حيروح؟ كيف حيعيش؟ مين رح يشغله؟

راح يسأل نفسه وينتظر في نفس الوقت إجابةً منّا، لكن عجزنا عن إفادته جعله يتابع متبرمًا:

- إنتو إيش يعرفكم أصلًا..

لماذا يبدو هذا التقريع مألوفًا؟ استدرك الرجل متأخرًا بأنه لا يعرفنا، فسألنا وهو يعيد ضبط شال القصب الذي لفَّ به طربوشه:

- مين إنتو؟

أجابه (العم عباس) بأننا جئنا من (المدينة) بحثًا عن امرأة حبشية، وأننا نريد مساعدته بحكم معرفته الشاملة بحبوش مدينته وأخبارهم. قال لا علم له بالأمر، ثم سألنا باستنكار مفرط ماذا

لو أنها قد أقدمتْ على عمل فاضح، أو ماذا لو كنا نعتقد بأنه مهتم بإيواء النساء المشرَّدات، أو (الحجَّات) كما شاعتْ تسميتهنّ، أجبناه بأنها زوجة أحد الأغوات في (المدينة)، وأنها خرجت دون علمه إلى (مكّة)، هذا جل ما في الموضوع، فأبدى تململه من حديثنا ثم التفتَ صوب بعض أفراد جماعته الواقفين خلفه ليسألهم عن المرأة. أجابه أفراد جماعته بالنفي، فعاد ليرمقنا بما بدا أنه تبرم ممزوج بالازدراء وقال:

- زي ما انتو شايفين.. محد يعرف شي عنها.

شعرتُ بأنَّ الرجل لم يكن يملك أيَّ ولاء تجاه جماعة الأغوات، وأقصد هنا جماعة الأغوات بمفهومها الأعمّ والأشمل. إنّ أغوات (المدينة) ما كانوا ليتعاملوا بالمثل لو جاء أحد رجالاته إليهم بطلب كهذا، فهم، وحتى (النقيب) نفسه، كانوا سيشرّعون الأبواب من أجله، ثم يتركونه في ضيافتهم ريثما يخرجون بالنيابة عنه للبحث عن ضالته.

لعل شيخ الأغوات المكّي كان يتصرف على هذا النحو لأنه لا يريد تحمل مسؤوليات إضافية؛ فقد بدا مشغولاً بالكثير من المهام التي تتحدى صبره وشبابه، لا سيما حين اقترب منه معاونه كي يخبره بأنه يجب عليهم الخروج إلى الحرم للتأهب لاستقبال وفد مهم.

تركَنا شيخ الأغوات المكي رفقة نظرة تململ أخيرة، فاكتشفنا حاجتنا إلى مغادرة حوشه بعد أن سبقنا إلى الخروج أولاً، لكننا لم ننطلق صوب الدرب الذي جاء بنا، إلا بعد أن أطلتُ التأمل في

ثمّة أغا كان يشبه (الشيخ إسماعيل) إلى حد كبير. لقد وقف هذا الأغا مع رفاقه الأغوات خلف شيخهم، فلم أتنبه له في بداية الأمر، لكنني فطنتُ لوجوده لما تفرَّق الشمل وصارت الرؤية ممكنة. رحتُ أتبعه ببصري وهو يقصد الباب المؤدي إلى خارج الحوش، أصابتني الدهشة، ولولا يقيني بأننا كنّا قد تركنا (الشيخ إسماعيل) للتو طريح الفراش، وبكاحلٍ ملتوٍ، لأقسمتُ بأن هذا الأغا الذي عبر من أمامي هو (الشيخ إسماعيل) فعلاً.

وكزتُ (العم عباس) كي يتنبه إلى الأغا الذي يشبه شيخنا، لكنّه لم يفهم السبب من تصرفي هذا؛ لذلك أخذتُ بيده ورحنا نتقفى أثر الأغا. هبطنا أول رابية، وقبل أن نقبل على رابية أخرى، شعر الأغا بخيالاتٍ تلاحقه. لربما آثر في البداية عدم الاستدارة بشكل كامل ناحية الخلف، وألا يبدي اهتمامًا بنا لأننا مجرّد أطفالٍ أشقياء يتبعونه، هكذا خلته يفكّر، إذ إنه منحنا نصف استدارة ثم تراجع عنها، لكنّه وجد نفسه مضطرًّا إلى مواجهتنا عندما واصلنا متابعته بعد أن تخطّى حدود (الهجلة).

تسمَّر الأغا في موضعه واستدار بشكل كامل صوبنا، فلحقنا به، وكم كانت الدهشة غامرةً حين أصبحتْ المسافة بيننا وبينه بضعة أشبار قليلة:

- (شيخ إسماعيل)؟

سألته مستغربًا، «ما الذي جاء بك هنا؟»، لم يجُب، فرحتُ أتفرَّس في وجهه قبل أن أكتشف أنه لم يكن (الشيخ إسماعيل) وإنما

هو رجلٌ آخر يشبهه. لقد كان أكثر حيوية وقبولاً من (الشيخ)، عيناه ليستا لئيمتين ولا شديدتي الاصفرار، أسنانه بيضاء براقة، ويضع شالاً على كتفه، وهو ما يدل على أنه لم يكن شيخاً ولكنه يتقلَّد منصبًا رفيعًا بين جماعة الأغوات في (مكّة)؛ إذ لا أحد من صغار الأغوات يُسمح له بوضع الشال على كتفه.

انتشلني من أفكاري بسؤال جاء عرضيًّا:

- إيشبكم بتتسحبوا ورايا؟

أجبته:

- ولا شي؟

فتدخل (العم عباس) مبرراً:

- لا، بس تراك تشبه واحد نعرفه.

طأطأ رأسه كما لو كان يتفهّم تصرفنا ذاك ثم قال:

- تراني ما أعرف مكان الحرمة إللي بتدوروا عنها.

طريقتي الغبية في تأمله كانت أكبر دليل على أنني لم أكن أصغي إليه مطلقاً. صمتٌ مطول دار بيننا قبل أن يقول الأغا:

- خلوني أشوف الرجال اللي يشبهني.

حاول (العم عباس) التملص من طلبه قائلاً له إن الرجل الذي نعرفه مريض ولا يقوى على استقبال الضيوف، لكنّ الأغا أصر على موقفه، وقال إنّه سيساعدنا على إيجاد المرأة في حال إن

أخذناه لزيارة (الشيخ إسماعيل)؛ فوافقنا على طلبه، ولكن شريطة أن تكون زيارته مقتضبة. أبدى الرجل تفهمه فوجدنا أنفسنا نمضي برفقته عبر أزقة (مكّة). كان المشوار طويلاً، طويلاً جدًّا، أو ربما الصمت الذي بيننا هو ما جعلني أشعرُ بأننا كنا نمشي أيامًا طويلة. قطعنا المسافة الممتدة بين (الهجلة) وبيت (العم عباس) دون أن يهمس أيٌّ منّا ببنت شفة، ولا أدري هل فعلنا ذلك لأننا لم نكن نملك ما نقوله أو لأننا لم نكن نثق بنوايانا.

مشيتُ بجوار (العم عباس)، ومشى الأغا خلفنا، لكن طريقة تموضعنا تلك لم تمنعني، أو تمنع (العم عباس)، من الالتفات نحو الخلف من وقت إلى آخر، وتأمّل تفاصيل الرجل الذي لولا قدرته على المشي، وإن كان ببطء، لأقسمتُ بأنه كان (الشيخ إسماعيل) بشحمه ولحمه. للرجل نفس سحنة (الشيخ إسماعيل) التي لا يمكن أن أخطئها، نفس الأنف القائم، نفس الشفاه الداكنة الرقيقة، نفس السُّمرة الفاتحة التي تليق بالشرق الإفريقي، ونفس الحاجبين اللذين يرتفع أحدهما حين يتفاجأ (الشيخ)، أو حين يجد نفسه في موقفٍ لا يلائمه. هل يمكن أن يكون هذا الرجل واحدًا من أبناء عمومة (الشيخ) مثلاً؟

طال التفكير، طال المشوار، لكننا وصلنا بيت (العم عباس) أخيرًا، فدلفنا عبر الباب الأزرق، ومن خلال الممر الضيق؛ لنصل إلى القَاعة في أقصى البيت، والتي يرقد فيها (الشيخ).

راح الأغا يتصرّف بنفس الطريقة التي قد يتصرف بها (الشيخ

إسماعيل) حين يبلغ مكانًا لا يلائمه. أبدى تقززًا من البيت قبل أن يدخله، ثم قام بنفض يديه بعد أن اتكأ دون قصد على جدران الممر المفضي إلى القَاعة، ولم ينسَ الامتعاض بصوتٍ عالٍ من رائحة المكان، رغم أنيّ قمت بتعطير البيت قبل أن نخرج. «لعل الفظاظة سلوكٌ مشترك بين كبار الأغوات»، رحت أفكر، ثم مشيت خلف (العم عباس) الذي قادنا إلى فراش (الشيخ إسماعيل).

كان (الشيخ) مستلقيًا على جنبه لما دخلنا عليه، جلستُ جواره، وجلس الأغا بجوار قدمه، بينما ظلّ (العم عباس) واقفًا. ناديتُ على (الشيخ إسماعيل) بصوتٍ خفيض كي يفيق من نومه، لكنه ما كان نائماً، ولأنه لم يألف أن أقوم بإيقاظه، مهما كانت الأسباب، استدار نحوي بتثاقل ممزوج بالحنق ثم قال متضجرًا:

- إيش تبغى يا وجه النكد.

- فيه واحد هنا يا شيخ يبغ يشوفك.

نهض الشيخ من مرقده بتثاقل، أسند ظهره إلى الجدار الذي وراءه، ولمَّا وقعتْ أنظاره على الأغا، رفع أحد حاجبيه مستنكرًا. استدرتُ صوب الأغا، فوجدتُ حاجبه هو الآخر مرتفعًا، لماذا لم يدفعني هذا المشهد الفكاهي إلى الضحك؟ يلوذ كلا الرجلين بالصمت، لكأنَّ كل واحدٍ منهما كان ينظر إلى نفسه في مرآة أمامه، نفعل أنا و(العم عباس) الشيء نفسه، نحتمي بالصمت، ونكتفي، أو ربما أنا وحدي من اكتفيتُ بالمقارنة بينهما، إنهما متشابهان تمامًا، لا فرق بينهما سوى تجاعيد الوجه التي غزتْ وجه (الشيخ إسماعيل)

بشكل أكبر، أوه، وكذلك البَياض في فم الأغا، إذ كان الأراك الذي يستاك به قد منح أسنانه المتراصة بريقًا ملحوظًا، وجعلها تبزغ بإتقان:

- إيش جابك؟

سأل (الشيخ) متبرمًا، ولما تعذَّر على الأغا الإجابة، عاد ليستلقي على جنبه وهو يقول:

- أندر إنتَ وهوا.. ما أبغى أشوف أحد.

رحنا ننتظر (الشيخ) دقيقة أو أكثر حتى يعدل عن رأيه، وحتى ينهض من مرقده ليتحدث إلى الأغا بطريقة ملائمة، لكنه لم يفعل، فكان علينا مغادرة الغرفة حتى لا نؤجج غضبه، خصوصًا بعد أن مدَّ يده ليلتقط البطانية التي تلحف بها ثم خبّأ رأسه تحتها. قادنا (العم عباس) إلى مجلس الضيوف الصغير، وهناك شرح الأغا كل شيء.

«إنه أخي التوءم»، هكذا استفتح الأغا الحوار، لكن دون أن يشرح ماذا يقصد بتوءم. كنت أجهل معنى الكلمة في ذلك الوقت، إذ لم أصادف في قريتي الصغيرة، ولا حتى طوال إقامتي في (اليمن) و(المدينة)، أيّ شقيقين يحملان الملامح والمواصفات الجسدية نفسها، ولم يخبرني أي شخص عن إمكانية حدوث ذلك. جلستُ بجوار (العم عباس) كي يقص لنا الأغا، والذي تبين لاحقًا أنَّ اسمه (يونس)، حكاية هجرته من (الحبشة) إلى (مكّة) رفقة أخيه، وكيف

قامت والدتهما بإخصاء واحدٍ منهما فقط، ثم أركبتهما السنبوك معًا وهي تعقد في آذانهم وصيتها بأن يخضع الشقيق المخصي للكشف الجسدي مرتين حين يصل إلى شيخ الأغوات في (مكّة).

- هذا اللي صار والله..

قال لنا، كما لو أنه كان يتذكّر موقفًا طريفًا، بأنه دخل على شيخ الأغوات مرّتين حين وصلا إلى (مكّة)، حدث هذا الأمر منذ زمن بعيد، فدخل مرّة أصالةً عن نفسه، ومرّة أخرى نيابةً عن شقيقه، ليتحوَّل هو وشقيقه إلى العمل في جماعة الأغوات دون أن ينكشف أمرهما؛ ولأن شيخ الأغوات المكي لم يشأ الخلط بينهما، قام بالتفرقة بينهما وأرسل واحدًا منهما للعمل في (المدينة).

- والله إني دَخَلتْ عليه مرتين.. وفَسَّختْ مرّتين.. وما دري الشيبة..

يتباهى بانتصاره، يضحك هازئًا؛ ربما لأنَّ شر البلية ما يضحك، هكذا خِلته يقول لنفسه، لكنه يعود إلى جدّيته السابقة حين يخبرنا بأنه مذ أن وصل إلى (مكّة) رفقة أخيه، لم يره سوى مرتين أو ثلاث، إذ أراد كل واحدٍ منهما، أو لعله (الشيخ إسماعيل) فقط، أن يسلك دربًا مختلفًا في الحياة، يجب أن يحتفظا بمسافة كافية بينهما حتى لا يفتضح أمرهما. «لقد عاش حياته بأكملها وهو يتقمّص دورًا لا يليق به»، قالها (الأغا يونس) حانقًا، فسألتهُ بغباء عن السبب الذي لم يجعلَ والدتهما تقوم بإخصائهما معًا:

- وليش ما خصته هو كمان؟ ما خافت ينكشف؟

جاء سؤالي فجًّا، لكنّ الأغا لم يستنكره، بل أوضح لنا أنَّ والدته، وفي بداية حمَلها بهما، نذرتْ لله أن ترسل إليه ما في بطنها لخدمة بيته الحرام والعمل لدى جماعة الأغوات مقابل أن يكتب لوالدتها الشفاء من مرض عضال، فعلتْ ذلك دون أن تعلم بأنها سوف تضع توءمين، فوجب عليها الوفاء بنذرها لما تماثلتْ والدتها للشفاء، وأضاف بأنَّ والدته قررتْ تخصيص طقوس الختان التي جاءت بعد أسبوع أو أكثر من ولادتهما كي تقوم بإخصائه وحده تأهبًا لإرساله إلى (مكّة) عندما يبلغ، وآثرتْ أن تبقي ابنها (إسماعيل) سليماً كي يعيش بجوارها، لكنها وجدتْ نفسها، وعندما بلغا سِن السفر، مضطرة إلى إرسالهما معًا بسبب رغبتها في إخلاص التضحية أولاً، وبسبب الضغط الاجتماعي الذي وُضِع عليها ثانياً. لقد ألزمها أهالي قريتها بإرسال كلا الصبيين لأنها نذرتْ «البطن الأولى (بأكملها) لله»، وخصصتْ البطون الثانية للحياة.

وجه الشبه بينه وبين (الشيخ إسماعيل) هو سببٌ وجيه للاعتقاد بأن اختيارهُ للإخصاء كان أمرًا عشوائيًّا، إذ إنّ والدتهما لم تملك أثناء صغرهما أيَّ سببٍ أو علامة بارزة تجعلها تنتخب واحدًا منهما على وجه التحديد كي يفقد ذكوريته، لكن (الأغا يونس) رجّحَ أن يكون فشله في كسب سباق القدوم إلى الحياة سببًا لاختياره. «لقد قذفتْ به أمي إلى الحياة أولاً، إنه يكبرني بدقائق قليلة»، هكذا قال وهو يدينها بالتواطؤ عليه، وينسب إليها سبب اشتعال فتيل الكراهية

بينه وبين شقيقه منذ الصِغر، يضحك ساخرًا ثم يعود كي يشرح لنا كيف قد أثبتَ له القدر أنّ والدتهما كانت محقةً في اختيارها فعلاً، إذ ها هي الأيام تؤكد له قدرة أخيه على أن يصبح شيخًا للأغوات في (المدينة)، رغم عدم كونه مخصيًّا، فيما سيتوجب عليه أن يمضي ما تبقى من عمره في فصل الرجال عن النساء أثناء الطواف، وغسل (شخاخين) الأطفال الأشقياء.

بدوري أخبرتُ (الأغا يونس) عن (الشيخ إسماعيل)، وعن تفاصيل حياته، بما في ذلك حادثة تهجير زوجته وابنه. قلتُ له كل شيء حتى أسلّم الأمانات إلى أهلها، هو شقيق (الشيخ)، إنّه أولى منّي برعايته. كنتُ أظنّ أنّ (الأغا يونس) سوف يبدي تفهمه لقاء ما حصل، ثم سيطلب منّا أن نأذن له باصطحاب أخيه كي يقيم معه ويشرف على رعايته بنفسه، لكن هذا لم يحصل قطعًا، إذ فضّل الرجل مغادرتنا بعد أن وعدنا بالخروج للبحث عن زوجة (الشيخ) عندما تُتاح له الفرصة. قال إنه سيبحث عنها في (أعشاش التكارنة) في (جبل الفلق) ناحية (المسفلة)، ثم نبهنا إلى ألا نعود لرؤيته أو لرؤية شيخ الأغوات المكّي مهما حصل، إذ إنه شديد التخوف من احتمالية أن يفتضح أمره وأمر أخيه. قال إنه سوف ينكر صلته بنا لو سأله شخصٌ غريبٌ عنّا، وقال إن إحضار زوجة (الشيخ) سوف يستغرق بعض الوقت، لكنه سيعود حتماً لزيارتنا، ثم رحل بعد أن ترك باب البيت الأزرق مواربًا، ولم يكلف نفسه عناء إغلاقه.

في مجلس الضيوف، بقيتُ أنا و(العم عباس) الذي بدا غارقًا

في بحرٍ من الحيرة. كان الرجل يفكّر في العواقب التي قد يلقاها في حال استدلَّ أحدٌ على مكان (الشيخ)، وراح يهذي بكلامٍ كثيرٍ عن قدرة الأغوات على إلحاق الأذى به وبكل من يتعرض لهم، إذ إنهم جماعة بالغة النفوذ وتتمتع بعلاقات اجتماعية كثيرة، وهذا لا يخفى على أحد من أهالي (مكّة) الذين تصلهم كل قصص الأغوات بتفاصيلها المملة:

- ما في فرق بين أغوات (مكّة) وأغوات (المدينة).. هدول (الحبوش) إزا اتجمعوا عليك والله محد يفكك منهم.

قالها كما لو أنني ما كنتُ حبشيًّا مثلهم، أو ربما ظنّ أنّ في تملصي من جماعة الأغوات تملصٌ من هويتي الحبشية، وما الفارق أصلاً، رحت أفكر، ثم قررتُ تجاهله، وتجاهل كلامه الذي يدور حول بطش شيخ الأغوات المكي، ذلك الرجل المشهور بتجبره حتى على أفراد جماعته. كل أهالي مكة يعرفون قصة مطاردته أحد الأغوات بعد أن ظهرتْ عليه بعض علامات الرجولة، لقد قام بإقصائه والتشهير به ولم يشعر بالراحة إلا بعد ترحيله بصفة نهائية إلى (الحبشة).

تركتُ (العم عباس) يهذي ثم سارعتُ إلى تقفّي أثر (الأغا يونس) شقيق (الشيخ). كان الرجل على وشك بلوغ رأس الحارة عندما استوقفته، وعندما قال لي معاتبًا:

- أنا ما قلتلكم لا تجوني ولا تكلموني؟ إنتَ ما تفهم؟

استمهلته كي أخبره بأن (الشيخ إسماعيل) حاد الطباع لكنه

طيب القلب فعلاً، وأن (الشيخ) سيعدل عن نزقه في حال لو عدنا على الفور وجلسنا معه مرَّة ثانية، لكنه قال لي بأنّه لا يكترث لهذا الأمر مطلقًا، هو قد جاء في الأصل حتى يتأكد من أنّ أخاه لا يزال حيًّا، والآن ينبغي عليه الرجوع إلى (الهجلة) لمواصلة حياته. ألححتُ عليه بالسؤال، إن كان قادرًا على العودة إلى بيت (العم عباس) ولو في وقت لاحق، أخوه بحاجة إليه، فسألني عن السبب الذي يجعلني أهتم بأمر (الشيخ)، أو ما الذي يجعلني راغبًا في «وجع الدماغ». قلت له بسذاجة إنيّ أشفق على (الشيخ)، وأني أثق بقدرتي على مساعدته في بلوغ غايته، فأنا واسع الحيلة وأجيد تدبر أموري. قصصتُ له، وبشكل مقتضب، حكاية سفري سيرًا على القدم من (اليمن) إلى (مكّة)، وأخبرته عن الأهوال التي تعرضتُ لها، بما في ذلك مأزق الوقوع في قبضة قطاع الطرق، ولعليّ بالغتُ في وصف الأهوال حتى أدفعه إلى التصديق بأنني كنتُ قادرًا على رعاية شقيقه أثناء السفر، لا سيما وأنني لم أخرج إلى الحجاز رفقة أغواتٍ آخرين، وهو ما كان أمرًا نادر الحدوث، إذ جَرتْ العادة على أن يتم استقدام الأغوات وفق مكتوب تبعثه الحكومة السعودية إلى مندوبيها في (السودان) أو (اليمن)، فيأتون بشكل جماعي ضمن قوافل يتم تزويدها بوسائل مريحة للسفر. أنهيتُ كلامي عن نفسي، فرفع الأغا أحد حاجبيه دهشًا ثم سأل:

- لا يكون إنتَ الأغا اللي جا من (الحبشة) لحاله؟ ترى أمك هنا في (مكّة).. جات أكتر من مرة عند الشيخ تدورك!

١٤

على عتبة باب (رباط المغربي)، وقفتُ بانتظار قدوم الناظر أو إحدى النزيلات كي أسأل عن أمّي. كان (الأغا يونس) قد أرشدني إلى الرباط عندما غادر بيت (العم عباس)، فوجدتُ نفسي أمام حوشٍ شعبي يقوم على تبرعات رجل ثري من مدينة (فاس) وصاحب طريقة صوفية. لقد كان ناظر الرباط صوفيًّا أيضًا، في نهاية عقده الخامس حسبما يبدو، وصاحب صوتٍ هادئ لا يتماشى مع الصورة المعروفة لرجال (مكّة) الذين طبختهم حرارة الشمس وحوّلتهم إلى كائنات غليظة فجّة، تلك الكائنات التي ما إن تخاطبكَ حتى تلحظ بأنها مشحونة، وكأنها دائمة الغليان. جاء (الناظر) بعد انتظار يستعلم عن سبب وجودي أمام الرباط، ففهمتُ منه أنّ صاحب الرباط كان قد أسند إليه مهمة إيواء المطلقات والأرامل وأطفالهن، شريطة أن تنحدر النسوة من أصول إفريقية، فوافق على تولي المهمة التي ما كان يتقاضى منها إلا قدرًا يسيرًا من المال يسهل له تأمين ضروراته وضرورات أسرته الحياتية.

قلتُ (للناظر) إنني أبحث عن أمّي، وقمتُ بوصفها له، لكنه أخبرني بأن الكثير من النساء الحبشيات النحيلات يقمن لديه، ويتعين عليَّ أن أكون دقيقًا في وصفي. أخبرته بأنّ اسمها (حبيبة)، ولربما رقَّقتُ الحاء ونطقتهُ (هبيبة)، حسبما تلفظه أمّي، فأجابني على الفور بأنّه لا تقيم لديهم أيّ امرأة بهذا الاسم. لم يرجع إلى أيّة سجلات كي يتيقن من إجابته، فالرباط صغيرٌ جدًّا، ورجل مثله يعرف جيدًا من هنّ النزيلات اللاتي يؤويهنّ. قال متيقنًا:

- ما عندنا وحدة من (الحبشة) اسمها (خالة حبيبة).

لم يتردد. أضفتُ بأن من المحتمل أن تكون قد وصلتْ إلى (مكّة) أخيرًا. راح يفكر، أو ربما تظاهر بذلك كي لا يبدو فظًّا. هذا اللطف ليس مألوفًا بين رجالات (مكّة). سأل مستوضحًا:

- لا يكون قصدك (خالة أمونة) وأختها.

لم أكن متأهبًا لتلقي هذه الصاعقة. هل يمكن أن تكون (مونا) هي من جاءت تسأل عني؟ هذا محتملٌ جدًّا، لا سيما وأن والدتي لم تركب السنبوك معي، ولم تكن تعرف أبدًا عن الطريقة التي سافرتُ بها إلى (مكّة). «لماذا تجيء بعد كل هذا الوقت لتبحث عنّي؟» سألتُ نفسي ببله قبل أن أتحوّل إلى الناظر وأستوضح:

- (مونا) عندكم؟

أجاب مصححًا:

- (خالة أمونة)؟ إيوه!

قال إنّ (مونا) أو (خالة أمونة) قد خرجت في مشوار معتاد، ستعود على الأرجح بعد ساعات قليلة، ثم اقترح عليَّ أن أدلف معه لانتظارها في غرفة صغيرة تلتصق بالرباط لكنها لا تفضي إليه. «يمنع على الرجال دخول الرباط»، هكذا أوضح لي ونحن نتهادى صوب الغرفة التي يمكن الوصول إليها خلال باب يؤدي إلى الشارع. دعاني إلى الجلوس فأخذتُ مكانًا على طرَّاحة عتيقة لكنها نظيفة جدًّا. في حقيقة الأمر، كل شيء في غرفة (الناظر) كان نظيفًا وفي مكانه الصحيح، الناحية الداخلية من رواشن الشباك المفتوح مثلاً، أباريق الشاي المرصوفة بعناية أيضًا، حتى سجاد الأرض الذي يمكن تعقّب آثار الجَريد عليه، كان يشير إلى أنه قد تم كَنسه مؤخراً. فكَّرتُ في أنّ مكانًا كهذا كان سينال رضا (الشيخ إسماعيل) لو جاء للزيارة، ودون الحاجة إلى إجراء أيّة تعديلات عليه، وهو ما يُعد أمرًا نادرًا جدًّا. مرّة أخرى، ها هو (الناظر) يفاجئني بطريقته في أن يكون مختلفًا عن كل ما هو سائد ونمطي في (مكّة).

راح (الناظر) يزجي تلك الظهيرة الكسولة بسؤالي عن حالي، أخبرته بأنني قدمتُ مؤخراً للعيش في (مكّة)، وأن امرأة تقرب لي جاءت تسأل عنّي، فتمنى لي حظًّا طيبًا وهو يأمل في أن تكون (خالة أمونة) التي تقيم لديه هي نفسها (مونا) التي أعرفها. مِلتُ لأسأله عن حاله، أجل، لقد كنتُ فضوليًّا، فشرع يخبرني عن دوره الذي يتمحور بشكل رئيس حول توفير المسكن للنساء الأفارقة اللواتي لا أهل ولا ملجأ لهنّ، وهذا قبل أن يتحوّل إلى الحديث عن أحوال

الأفارقة في (مكّة) بشكل عام وعن الطريقة التي تعرَّف بها على صاحب الرباط الذي لا يزور (الحجاز) إلا مرّة كل عامين.

كان صاحب الرباط يهب (الناظر) المال ويأتمنه على رعاية أمور النزيلات، فيقوم هذا الأخير بتدوين كل المصروفات في سجل ورقي عتيق يحتفظ به في مكان ما في هذه الغرفة، حتى إذا ما جاء صاحب الرباط في زيارة لاحقة، قام (الناظر) بعرض السجل عليه كي يبرء ذمته، وربما كي يحصل على مكافأة مجزية لقاء نزاهته. «إنّ مَهَمَّة كهذه تتطلب أن يكون المرء متعلماً»، هكذا أوضح (الناظر) وهو يعرّج على مرحلة اليفاع من حياته، والتي أمضاها وهو يتعلَّم القراءة والكتابة والشريعة في كُتّاب الفقيه (أحمد سناري). قال لي إنّه كان شغوفًا بالعِلم، وأنّه كان يُطعّم الدروس التي يتلقاها في (الكُتّاب) ببعض التعاليم الصوفية التي عرفها عن والديه، فكبر ليصبح واسع الاطلاع ومحبًّا للمعرفة.

وعلى الرغم من كون (الناظر) صوفيًّا، فإنّه بدا عارفًا بكافة مسائل الخلاف الدينية المنتشرة في (مكّة) والتي تتنوع بحكم تنوع الأعراق والمذاهب، فكان يعرف مثلاً لماذا يميل أتباع المذهب المالكي إلى إسبال اليدين ووضعهما جانبًا أثناء الصلاة، ولماذا يرى الشافعيون جَواز كشف الوجه، أو لماذا يرى الحنفيون وجوب الزكاة على الذهب الملبوس. كل هذه الأمور كان يعرفها رغم أنها ما كانت تتصل بطريقته الصوفية في فهم الدين، وأقصد هنا تلك الطريقة التي اختبرتها بأم عينيَّ، ووجدتُ فيها سلوكًا مغايرًا، أو

ربما مناقضًا، لكل ما تعلمته من (الشيخ قاسم) في اليمن، ومن شيوخ الأغوات في (المدينة).

أذكر أن (الناظر) قد صحبني بعد جلستنا في تلك الغرفة بشهرين أو يزيد إلى أحد المَوَالد التي يشتهر بها الصوفيون، أو (الحَضرَة) كما أسماها (الناظر)، فوصلنا إلى محفلٍ خاص يقام بشكل دوري ويحضره أتباع الطريقة الصوفية. ورغم أنّ أغلب المتصوفين كانوا يعيشون في (المدينة)، أو هكذا كنت أظن؛ بحكم حاجتهم إلى مجاورة الحجرة الشريفة، وبحكم أن القُرب من النبي هو ركيزة أساسية في معتقداتهم، فإنّ طقوس المولد الذي أخذني (الناظر) إليه كانت تسير كما لو أنه كان يُقام في أحد البيوت التي تجاور مسجد (سلمان الفارسي) بالـ (المدينة).

دخلتُ رفقة (الناظر) إلى حوش بيت فسيح كي ننضم إلى مجموعة رجال ذوي عمائم خضراء قال عنهم (الناظر) إنهم (المُريدون). كان الرجال جالسين في بادئ الأمر لترديد الذكر والصلاة على النبي، ثم تحوّلوا إلى تلاوة سورة (الواقعة) جماعةً وهذا قبل أن يتداولوا أذكارًا متفرقة عن السيرة النبوية، فصار الوقت ملائماً بعد ذلك لدخول شيخٍ صوفي وقورٍ تبين لي لاحقًا أنّه تدرّج في المراتب الصوفية حتى وصل إلى أعلاها. نهضنا إثر دخول الشيخ، الذي كان يرتدي شالاً أخضر دون غيره، ثم انقسمنا إلى صفين متواجهين، فمشى الشيخ حتى وقف في المنتصف بيننا، وما إن أتمَّ تموضعهُ حتى أوعز إلينا، فصنعنا دائرةً حوله وأغلقنا عليه

بيننا. وضعنا أيدينا بعضنا في أيدي بعض، أغمضنا أعيننا ثم بدأ الشيخ بالتمايل والهتاف، «حي.. حي.. الله حي».

زاد تواتر الهتافات التي انفردَ بها الشيخ، فتحتُ عينيَّ مرتين أو ثلاث مرات كي أسترق النظر إلى المُريدين من حولي، فرأيتُ أجسادهم وهي تهتز من الأعلى والأسفل دون أن ترتفع أقدامهم. كانت أعينهم مغمضة، ووجوههم متهللة، وتعابيرهم توحي بمزيج لم أعرفه من الألم والفرح. لم أجفل، بل رحتُ أقلدهم.

لقد رقصنا طويلاً على ترانيم المدائح النبوية والأناشيد الدينية، وكنتُ سعيدًا وقتها لأنني لم أتوقع، ولا حتى في أكثر خيالاتي جموحًا، أنّ من الممكن تضمين الرقص والاحتفاء داخل طقوس العبادة؛ إذ لا شيء مما تعلمتُه عن الإسلام كان يجيز التغني والضرب بالدفوف، ناهيك عن اعتبار الغناء والرقص صورةً من صور الشعائر الدينية. لقد شعرتُ بالزهو وأنا أقبض على يد (الناظر) الواقف بجواري، ويد رجلٍ آخر غريب؛ كي أعود بالذاكرة إلى الوراء، وصوب سواحل (اللُّحيَة)، حيث صورة الأحباش المسيحيين الذين استقبلونا عندما تكسرّ سنبوكنا على شواطئ (اليمن)، وسمحوا لنا بأن نحتفل معهم بالسنة الجديدة.

وبعد ما بدا أنّه عُمرٌ كاملٌ من الاهتزاز والحشرجات الجماعية، توقف المُريدون عن الحركة، لاذوا بالصمت، ثم راحوا يراقبون فيض الرعشات الذي أصاب شيخهم المنتشي كليًّا. «حَضرْ.. حَضرْ»، همس (الناظر) كي يشرح لي بأنّ الشيخ كان يستشعر في

تلك اللحظة تحديدًا حضور روح النبي. رحتُ أراقب انتفاضته ثم نظراته التي كانت تنزل تدريجيًّا من الأعلى إلى الأسفل كما لو أنَّه يراقب شيئًا يهبط من السماء:

- أشوفه.. أهو أشوفه.

هتف الشيخ وهو يحرّك يديه كي يحث جماعته الصامتة أصلاً على مواصلة السكوت، لعلّه بذلك يريد التمعّن فيما كان أمامه. تسمَّرتْ أنظاره صوب فراغ بعيد، فضضنا اشتباك الأيدي، صنعنا له فراغًا في الدائرة، فراح يجول في أرجاء الحوش؛ ربما حتى يتبع الروح التي راحت تتجول هي الأخرى بين الحضور كي تبارك لهم وجودهم. أخذ الشيخ يتتبعها بعينيه، وبرأسه، وكذلك خطا خطوات واسعة كي يلحق بها، لكنه عاد إلينا أخيرًا بعد أن بدا لنا، أو ربما بدا لي وحدي، أن الروح قد غادرتْ من باب الحوش صوب وجهتها:

- حي.. حي..

هتف الشيخ الصوفي وهو يخرج من حالة الهذيان تلك، فتحوّل الرجال إلى التهليل والتكبير حتى ينغمسوا في انتشائهم أكثر. عاد الشيخ ليقف بيننا، عدنا إلى التمايل والغناء حتى طقس متأخرٍ من الليل، ولما خبت شعائر الاحتفاء تلك بشكل تدريجي، وخارتْ قوى الرجال، توزع البعض منّا لتجهيز مائدة الطعام المُعد سابقًا. كانت المائدة تضم أصنافًا متنوعة من الأرز ولحم الخرفان. أكلنا بعضه، وقمنا بتوزيع البعض على الجيران الذين شعروا، دون

شك، بكل تفاصيل ذاك الاحتفاء كأنهم حضروه معنا، فانتهتْ تجربتي الفريدة تلك مع المَوَالد الصوفية، وأكاد أجزم بأن (الناظر) كان متيقنًا من أنني سوف أعود إليه بعد ذلك المُولد كي أسأله عن طريقة الانضمام إلى جماعته، وكيف أغدو صوفيًا أصليًّا، إذ إنه لم يتفاجأ على الإطلاق لما جئت إليه في يوم لاحق كي أحدثه عن مدى السعادة التي غمرتني بعد ذلك المحفل الديني.

قلتُ له إنيّ أجد في طريقته تلك كثيرًا من الروحانية، فأخبرني بأنّه يتوجب عليَّ الاختلاء بنفسي لمدة أربعين يومًا خارج العمران، وفي مكان لا يدخله بشرٌ ولا ضوء شمس، فأجلس بمفردي في الظلام حتى أفرّ إلى الله، وحتى أتفرّغ للذكر والدعاء والأوراد، «يجب أن تسد على نفسك طرق الحواس الظاهرة حتى تتفتَّح حواس قلبك»، قال (الناظر) موضحًا، ولربما سألته في بادئ الأمر أسئلة تافهة على غرار، «كيف أتوضأ.. كيف أعثر على الطعام والشراب.. كيف أشخ وأخري»، فقال لي مستنكرًا، «قل كيف أقضي حاجتي، ولا تقل كيف أشخ وكيف أخري، كما أنّ خروجك للوضوء أو لقضاء الحاجة جائز شريطة أن يكون الخروج محدودًا وأن تطرِق خلاله رأسك إلى الأرض»، ثم شرح لي أنّ الخلوة تعتمد على تخفيف الأكل والنوم والملذات والتفرغ للذكر.

«إن التصوف الخالص يصرف عنك الحاجة إلى أي شيء سوى الذكر والاستغفار»، أذكر (الناظر) وهو يُصر على ضرورة الإخلاص، فيدفعني بكلامه إلى تذكر السنوات التي أمضيتها

معتكفًا في المسجد النبوي. أتذكر الأيام التي أمضيتها عند وصولي إلى (المدينة)، وكيف أرغمني (الشيخ إسماعيل) ورجاله على التعبد والاستذكار كشرط رئيس للانضمام إلى جماعتهم، وعندما تخطر ببالي فصول العناء الذي كابدتهُ خلال تلك الفترة، أقول (للناظر) إنني قد قدّمتُ كل ما أمكنني من التضحيات مسبقًا، وأنني لا أملك مزيدًا من الصبر حتى أقدمه قربانًا إلى أيّ معتقد كان، فيشير إلى صدري بسبابته وهو يقول، «احرص على تهذيب نفسك وتطهير لسانك وتحليك بالفضائل، وحينها سوف تستطيع رؤية كل شيء بقلبك».

لقد لزمني كثير من الوقت كي أكتشف أن مخزون (الناظر) المعرفي كان يتجاوز العلوم الشرعية، إذ، ومن خلال معرفتي به خلال لقاءاتنا التالية، كان يحدثني كثيرًا عن الفلسفة والشعر. أذكره لما اعتاد محادثتي عن فكر (الغزالي) و(السنوسي) وأشخاص آخرين لم أكن أعرفهم، ويغني لي شعر الرعيل الصوفي الأول، يفعل هذا بلا تكلف، ودون أن يشعرني بأنه يتباهى أمامي بالعلوم التي يعرفها.

لطالما كان (الناظر) لبقًا، وقورًا، يختار كلماته بعناية، ويستخدم التعابير المجازية في أغلب حواراته لوصف أبسط الأشياء من حوله. هكذا هو حال أغلب المتصوفين الذين عرفتهم في (مكّة)، تكاد ألا تخلو كل عبارة يقولونها من الرمزيات التي تجعل اللغة المحكيّة، وبطريقة سحرية، أكثر جمالاً.

يخبرني (الناظر) مثلاً، وعندما أتبرم من قيظ (مكّة) وشمسها الحارقة، بأنّ الغاية من الشمس هو أن تبعث بالنور كي يتسلل إلى

القلب ويضيئه. أجل إنه يستخدم كلمة «تبعث» وكلمة «يتسلل» مع فتى حبشي لا يقرأ ولا يكتب، ويُصر على استخدام كلمات مشابهة في كل عباراته، فهو متيمٌ بالعثور على الجمال وتوظيفه في أقواله قبل أفعاله، وعندما أشكي إليه ضيق أحوالي يقول لي بهدوء إنّه بعد العاصفة يأتي قوس قزح، مع أننا لم نعرف في (مكّة) لا العواصف ولا أقواس قزح. أوه، كم كان الرجل عذب الكلام، وكم حاول مِرارًا أن ينقل هذه الخصلة النادرة إليَّ. كان ينصحني دومًا، ومن باب الإرشاد ليس إلا، أنْ أتخلى عن (العربجة) في كلامي، فهي، وعلى حد وصفه، لا تجعلني أرتقي بألفاظي وأخلاقي وروحي، فلم أعارض رغباته تلك بأن يحوّلني إلى صورة أكثر رقيًّا من الصورة التي أعرفها عن نفسي. كنت أتردد عليه بشكل يومي كي يقرأ عليَّ اللغة والشعر، وكي يعلمني كيفية استخدام الصور والرمزيات للتعبير والوصف، فأحببتُ وقتي معه، الذي امتدَّ لشهور طويلة.

دأبتُ وقتها على الخروج من بيت (العم عباس) بعد أن أتيقن من اكتفاء وسلامة (الشيخ إسماعيل)، فأسير إلى الرباط للقاء (الناظر) بعد أن أتحجج بأنني قد عثرتُ على عملٍ في موسم العمرة، وهو ما حصل فعلاً، إذ قام (الناظر) بتأمين وظيفة لي في مساعدة سائقي أوتوبيسات نقل المعتمرين والحجاج داخل (مكّة)، فكنتُ أجد في خروجي فرصةً حقيقية لمجالسة (الناظر) وللتحول من مجرد آغا أمّي وبسيط إلى شابٍّ مستنير ومتعلم.

والحق يقال، إنني لم أكن أمضي كافة وقتي رفقة (الناظر)، لقد خصصتُ بعضه للعمل في نقل الركاب، وكذلك كنتُ أخرج في كثير من الأحيان للبحث عن زوجة (الشيخ)، مع أنّ (الأغا يونس)، شقيق (الشيخ)، كان قد تولى هذه المهمة نيابة عنّي.

تركتُ (الأغا يونس) يغيب شهورًا طويلة ظنًّا بأنه كان منهمكًا في البحث عن زوجة (الشيخ إسماعيل) وطفلها، لكنني عرفتُ لاحقًا أن لقائي به كان الأول والأخير. لقد آثر الرجل ألاّ يعود إلينا، ربما لأنه لم يجدهما فعلاً، أو ربما لأنه تأكد أخيرًا بأن حياته أفضل من حياة شقيقه الذي كان يتفوق عليه دائماً في كل شيء، فآثر ترك الأمور على حالها كي يثبت لنفسه، أو حتى لروح والدتهما التي ماتتْ منذ زمن بعيد، بأنّ الحياة قد قدرتْ له الأفضل رغم سوء المعاملة والتفرقة التي تعرض لها، ولم أغامر بالعودة إلى شيخ الأغوات المكي كي أسأل عنه، أو أخبر (الشيخ إسماعيل) بما حدث لأنّ ذلك لم يكن ليجدي نفعًا. لقد اكتفيتُ بتجرّع المرار ثم أعدتُ البحث عن زوجة الشيخ وابنه بمفردي.

أما بالنسبة إلى (مونا)، والتي خرجتُ لمقابلتها بناءً على كلام (الأغا يونس)، فقد عادتْ في ذلك اليوم إلى الرباط. رأيتها قبل هبوط الليل وهي تهم بدخول الرباط، فهرعتُ رفقة (الناظر) لنستوقفها، وكم أصابتها الدهشة لما رأتني أقف أمامها دون موعدٍ مسبقٍ، ودون فرصة تهيئها للتزيّن والتطيب.

أرختْ (مونا) سطل اللَّبن الذي كانت تحمله. وضعته على عتبة باب الرباط، فسقط المغراف الذي تستخدمه كي تكيل اللَّبن لزبائنها، ثم قامتْ باحتضاني لما قدّمني إليها (الناظر) وهو يقول:

- (خالة أمونة) ... (آدم) جاي يسلم عليكِ.

لطالما كنتُ أخاف من أن تنتهي الحياة بمفردي، وحيدًا، وخاليًا من شخص آخر يشاركني فصولها. لقد مرّت سنوات كثيرة، قطعتُ مسافات طويلة، وخرجتُ مع مسافرين كثيرين، لكن كل الذين مشوا معي قد سلكوا طريقًا آخر في نهاية المطاف، من المُرجح أنهم قد اكتشفوا فجأةً، أو ربما بعد تفكير مطوّل، أنّ الحياة لا يمكن تقاسمها مع شخصٍ مخصي لا يملك ما يقدمه، ولم يذق طعم السعادة يومًا؛ لهذا لم أتأهب يومًا للحظة التي قد يعود فيها أحدهم كي يقول لي، ولو من باب المجاملة، أين كنتُ طوال هذه الفترة؟

وكما كنتُ أخاف من أموت وحيداً، كنتُ أخاف من اللحظة التي قد ألقى فيها أمّي، أو ألقى فيها (مونا) التي تقمَّصتْ دور أمّي خلال سفرنا إلى (اليمن)، فتكتشف إحداهما أنني قد فشلتُ في المحافظة على ممتلكاتي كما أوصتاني كثيرًا. لقد انكسر قلبي، آذاني الناس كثيرًا، أنا مُتعب، ويجب عليَّ الآن أن أعود إلى أي واحدة منهما مثلما كنتُ أعود إلى عشتنا حينما يتعدى عليَّ أطفال القرية في طفولتي، فتخرج أمي لتقتص لي منهم، ثم تعثر لي على أصدقاء آخرين أنسى برفقتهم تفاصيل حياتي التعيسة.

لقد التقيتُ (مونا) على عتبة باب الرباط، فأخذتني إليها دون أن تتصنّع الرغبة في التحقق من هويتي، ودون أن تقارن صورة الطفل التي تحفظها في رأسها بهيئة الشاب الواقف أمامها، ودون أن تسألني كيف قد أصبحتُ بهذه السرعة في نهاية العشرينيات من العمر. ضمّتني، فاستيقظتْ في بالي صورة البحر، والربان، والسنبوك، واحتمالية الغرق، وفرحة الوصول إلى سواحل (اللُّحيَة). ناديتها أمّي، فعلتُ هذا لا شعوريًّا، فلم تستنكر هي ندائي، ولم أحاول تدارك الأمر بدوري؛ ذلك لأنّ في وسع حضور (مونا) أن يفعل بك أيَّ شيء، إنها شهقة الحياة الأولى لغريق قد نجا للتو.

١٥

على فخذ (مونا) وضعتُ رأسي، وتعبي، وتجارب مريرة حملتها معي طوال السنوات الماضية، فراحتْ تمسح رأسي بكفها الحانية وهي تهمس مطمئنة، «أوششش.. أوشششش»، تعيدني بنعومة راحتها إلى ساحل (عَصَب)، ورائحة البحر، ووجع الإخصاء، ورحيل أمّي المفاجئ، واللحظة التي سبقت ركوبنا السنبوك، حين كان من الممكن لنا، أنا وهي على حدّ سواء، أن نكون ابنًا وأمًّا لا تربطهما صلة دم، فنتخلف عن ركوب البحر، ونمضي ما تبقى من عمرينا معًا لأننا، وبكل بساطة، نجد في بعضنا ضرورةً ماسة لمواجهة الحياة.

سألتها، «لماذا رحلتي عنّي؟» فجاء السؤال سكينًا تضرب داخلها عميقًا. أجهشتْ بالبكاء، فتحتُ عينيَّ في موضعي ذاك، ورأيتها تفشل في كبح جماح الدمع الذي غدر بها. رباه، إنني لم أتصوَّر، ولا في أقصى خيالاتي جموحًا، أن أرى (مونا) التي أعرفها وهي تَهُزم هكذا. تلتقط (مسفعها) الأسود، تشيح بوجهها صوب البعيد، ثم تسارع بتجفيف دموعها، فأكتشف أنها كانت حبّة

الفستق التي خسرتْ فورًا قِشرتها.

ربما كان من الواجب على كلينا أن نمر بتجربة الفراق هذه كي نلتقي مرّة أخرى، في مكان آخر، وزمن آخر، فيصبح ارتباطنا أبديًّا، هذا ما شعرتُ به، لا سيما حين أخبرتني بأنها تزوجتْ رجلاً حبشيًّا أثناء إقامتها في (اليمن)، من المرجَّح بعد أن تركتني في رعاية (الشيخ قاسم) بشهور قليلة، فأثبتَ زوجها لها، ومن خلال محاولاتٍ جنسية كثيرة، أنها عاقر. قالتْ لي إنها حسمتْ أمرها تجاهه عندما أنجب طفلةً من امرأة أخرى، فكان عليها، وكما هي عادتها، أن تحزم متاعها ثم تخرج في سفر جديد رفقة شقيقتها. مجددًا، تصنَّعتْ رغبتها في السفر حتى تتقرَّب إلى الله، لكنَّ غايتها، دون شك، كانت تنحصر في العثور عليَّ حتى أمنحها فرصة اختبار مشاعر الأمومة التي لطالما حلمتْ بها.

أذكرها لما امتدحتْ قدرتي على الوصول إلى (مكّة) بسلام، دون أن أفقد صوابي أو حتى حياتي، فهي، وعلى حدّ وصفها، رأتْ الكثير من الأهوال لما انضمتْ إلى جماعة كبيرة قد خرجتْ لأداء فريضة الحج. قالتْ إنها وقعتْ في فخاخ قطاع الطرق أكثر من مرّة، لا سيما قبل عبور الشريط الحدودي إلى (السعودية)، وخسرتْ كذلك امرأةً صادقتها أثناء السفر بسبب المرض، وقالتْ أيضًا إنها فقدتْ كل الفِضة التي بحوزتها، مثلما هو حال شقيقتها، كي تفيا بتكاليف السفر الذي امتد طويلاً، فوصلتْ (مكّة) خالية الوفاض وبروحٍ متعبة جدًّا:

- كيف خلاك (اليماني) تسافر لحالك؟

استنكرتْ (مونا) تفضيل (الشيخ قاسم) لإرسالي إلى (مكّة) منفردًا دون أن يقرنني، وكما وعدها في البدء، بإحدى قوافل السفر التي كانت تُخصَّص مرّة كل عام أو عامين لنقل الأغوات المستجدين إلى (الحجاز)، وامتدحتْ قدرتي على الخروج في سفر طويل، وأنا في مقتبل العمر، رفقة غرباء لا أعرفهم، كي أسلك طريقًا محفوفة بالمخاطر، فهي لم يكتب لها النجاة، وحسب تقديرها، إلا لأنَّ شقيقتها كانت تؤازرها، فآثرتُ ألا أخبرها عن (محسون) حتى تظل صورتي البطولية حاضرةً في رأسها، وفسحتُ لها المجال كي تتابع مسح جبيني براحة كفها وأنا أقنع نفسي بأنَّ (محسون) كان يعاملني بجفاء طوال سفرنا إلى (الحجاز)، وأنَّ سفرهُ معي لم يكن إلا صورةً مماثلةً لغيابه.

- الحمد لله إنك سافرتْ لحالك.

قالتْ لي (مونا) وهي تشير إلى أنَّ هذه المغامرة الجريئة هي وحدها ما ساعدتها على إيجادي بين عشرات الأغوات الذين قدموا إلى الحجاز. لقد مر وقتٌ طويلٌ جدًّا مذ أن وقف أحد الصبيان المخصيين منفردًا على أعتاب باب الأغوات ليسمحوا له بالعمل معهم، وهذه علامة فارقة سوف تلازمني إلى الأبد.

مرَّرتْ راحتها على إحدى وجنتيَّ وهي تردد أهازيجًا في حب النبي كانت قد تعلمتها أثناء إقامتها في (رباط المغربي)، وصارتْ تلازمها طوال إقامتها في (مكّة):

«شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي

شوقي للحبيب النبي... طه يا طبيبَ النبي

ببدايا صحيب النبي... مادِحُ النجيب النبي

صاحبُ القضيب النبي... كاسُرُ الصليب النبي

شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي»

يأخذني نشيدها إلى بحر (عَصَب)، حيث محاولاتها الجادة لتخفيف وجع إخصائي، ولمساتها الحانية لتطبيب جراحي، وأتذكَّر اللحظة التي جلستْ فيها كي تنظفني، وتغسل ملابسي، وتهيئني للسفر، وقبل أن أنغمس في استرجاع ذكريات السفر، تتوقف (مونا) عن الإنشاد حتى تحدّثني عن أمّي، بصفتها أمرًا لا مفر من الحديث عنه، وتقول لي، بيقين تامٍ، إنَّ أمّي كانتْ ملزمة بالعودة إلى قريتنا لأنها لم تملك أجرة ركوب البحر. «لقد كانت تنوي اللحاق بك بمجرد أن تتيسر أمورها»، هكذا أوضحتْ (مونا) لي وهي تبرئ أمّي من وزر التخلي عنّي بصفة أبدية، ثم قالتْ لي إن آخر ما عرفته عنها هو بعض القصص التي جلبها لها مسافرون كانوا قد خرجوا من قريتنا بعد شهور طويلة من استقرار (مونا) في (اليمن). قالوا لها إنّ أمّي لم تقوَ على الحياة بمفردها في قريتنا، خصوصًا وأنّ أبي قد هجرها بشكل نهائي بعد أن تزوج امرأة أخرى، فحزمتْ أغراضها وغادرتْ عشتها كي تلحق بي، لكنّ أخبارها انقطعتْ

بصفة نهائية، ولم يعرف أحدٌ إن كانت قصدتْ (السودان) شمالاً، أو ركبتْ البحر صوب (اليمن).

إنَّ ميل أمّي إلى مناكفة الجميع، ومن قبل ذلك عدم امتلاكها أيّة صداقات حقيقية أو علاقات طيّبة هو ما جعلها تختفي إلى الأبد، إذ لم يكلف أيّ أحدٍ نفسه مهمة السؤال عنها، وتركوها تنسحب من ذكرياتهم بشكل تدريجي لأنّ هذا -ولا أستنكر قطعًا- هو الأفضل بالنسبة إليهم.

لم تُثرِ حادثة تغيّب أو ربما وفاة أمّي أيَّ شيء بداخلي، بخلاف ما توقعته (مونا) التي كانت تجهّز نفسها للتعامل مع أيّة حالة حزن قد تصيبني. أذكرنا لما جلسنا في غرفة (الناظر)، وهو المكان الوحيد الذي كّنا نلتقي فيه، حتى أقول لها إنني لم أفهم أمّي يومًا، ولم أفهم قسوتها التي كانتْ تبديها لي حتى في أسعد أوقاتنا. ربما كنتُ في ذلك الوقت أقل فِهماً وعمرًا من أن أوضِّح لـ(مونا) أنَّ قسوة أمّي تلك، وحنقها المستمر، وحزمها الدائم، هي جُلّ ما تعرفه عن الحُب، لكنني أدركتُ، وبعد أن تخطيتُ العشرينيات من عمري، أنني كنتُ قد تنازلتُ لحظة وصولي إلى (اليمن) عن رغبتي في أن تظَّل أمّي هي نفسها أمّي، واستبدلت بها (مونا) التي دأبت تُوضّح لي، ومذ أن وصلتُ (عَصَب)، أنها راغبةٌ حقًّا في أنّ تكون أمًّا لي.

تعود (مونا) لترديد أهازيجها:

«ريقُ لي شِفاء النبي... واهب الصفا النبي

مُذهِبُ الجفاء النبي... سيِّدُ الوَفاء النبي

نائر الخدود النبي... مُكرَمُ الجدود النبي

حافظُ الحدود النبي... وافي العهود النبي

شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي»

ربما أكون قد فكرتُ في مرحلة لاحقة من حياتي بأن أخرج إلى (الحبشة) كي أبحث عن أمّي، لكنني تراجعتُ عن ارتكاب حماقة كهذه لأنَّني حتى وإن عثرتُ عليها في قريتنا، أو في إحدى البلدان القريبة، لم أكن أعرف ماذا سوف أقول لها وكيف سوف أصبح جزءًا حقيقيًّا من حياتها. هي لن تمنحني فخذها كي أضع رأسي عليها، هذا ليس طبعها، ولن تغامر بإخباري عن السبب الذي جعلها تتقاعس، ولسنواتٍ طويلة، عن إيجادي، بل سوف تركن فقط إلى إيجاد طريقةٍ ملائمة لصبّ اللوم عليَّ بسبب توقفي عن العمل لدى جماعة الأغوات، من دون أن تسأل عن الأسباب التي دفعتني إلى مغادرة (المدينة).

أحكي لـ(مونا) قصّة (الشيخ إسماعيل)، وأطلعها على الأحداث التي دفعتنا إلى القدوم إلى (مكّة)، فتقول لي إنَّ كل شيء يحدث حسبما هو مقدرٌ له، وأن مساعدة (الشيخ) في إيجاد عائلته هي جزء من خدمة الله. إنها لا تبدي توجسًا مما قد تأتي به الأيام، ولا تفترض جدلاً أن ما أفعله سوف يعود عليَّ بالضرر، بخلاف

(الشيخ) الذي كان يعرف جماعته جيدًا، ويعرف مدى قدرتهم على البطش به. تمُرّر رؤوس أصابعها على حاجبيَّ وأنفي، تختبر ملامحي كمن تداعب طفلاً قد أنجبتهُ فورًا ثم تعود لتدندن:

«وجهُك البدر النبي... نورُ من ظهر النبي
فيضُ من بدر النبي... سرُّ مستتر النبي
طَرفُكَ الكحيل النبي... خَدُّك الأسيل النبي
قَدُّكَ العديل النبي... باعُكَ الطويل النبي
شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي»

صوتها الشجي ينهمر على روحي ويحرك شيئًا ما بداخلي. إنني لم أتخيلها يومًا قادرةً على الغناء، ليس لأنَّ صوتها ما كان عذبًا، وإنما لأنَّ تحفظها وحرصها على التحليّ بالوقار كان يمنعها. تشدو بصوتٍ خفيض، كما لو أنها لا تريد لأحدٍ أن يسمعنا، تتمايل برأسها، وتبتسم لي حين تقع عيناي على عينيها. إلهي، هل يمكن لهذه اللحظة أن تمتد عمرًا كاملاً؟

«أكرم الأنام النبي... صاحب الأحكام النبي
كلَّم العَلّام النبي... قام الليلَ صامَ النبي
شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي»

لقد أمضينا أيامًا كثيرة ونحن نلتقي في غرفة الناظر تلك. كنتُ أنعطف لزيارتها عندما تعود من عملها في بيع اللبن، فأجدها جالسةً بانتظاري. أضع رأسي على فخذها حتى أخبرها عن تفاصيل يومي وآخر المستجدات بشأن رحلة البحث عن زوجة (الشيخ)، ثم أسألها عن حالها وحال شقيقتها وما فعلتاه في يومهما، فتنقضي الساعات الطويلة من دون أن يصاب أيّ واحدٍ منّا بالملل، وقد تذهب في أحيان كثيرة لتقص لي عن أيامها في (اليمن)، أو لتسألني عن قصص نشأتي والمواقف التي اختبرتها أثناء عملي في الحرم النبوي، فأجدُ في لقائي إياها فرصةً حقيقية لنيل كفايتي من عاطفة الأم، وتجد هي في لقائها بي فرصةً للتوقف عن تربية الهزيمة التي كانتْ تعاملها كما لو أنها ابنتها الصغرى، تبدّل ملابسها، تمشط شعرها، تقلِّم أظفارها، ثم تدفعها إلى الحياة كما لو كانت تتباهى بها أمام الناس.

«شوقي للحبيب النبي... شوقي للحبيب النبي

شوقي للحبيب النبي... طه يا طبيبَ النبي»

من أسفل ركام الحائط المنهار أردّد أهزوجة (مونا). لا أنجح في الشدو بها بنفس العذوبة التي أذكر، ولا يفهم الولد البدوي نصف كلامي، فيسألني عمّا أقول. لا أجيبه؛ في الأغلب لأنَّ الألم يجعل قدرتي على النطق عسيرةً جدًّا، لكنني أتشبّث بالأهزوجة على

أيّة حال، ربما كي أتصبرّ بها على شِدَّة الوجع، وكم أشتهي لو أن يُمرر الولد البدوي يده على رأسي، مثلما فعلتْ (مونا) في السابق، كي يخفف من أوجاعي، إلا أنّه لا يفعل، ولمَ قد يفعل هذا أصلاً، منذ متى كان محتملاً أن يلتفتْ إليَّ شخصٍ ما غريب كي يسبغني بعطفه؟ أعود بالذكرى إلى الوراء، وأستحضر أكبر قدرٍ ممكنٍ من الغرباء الذين عرفتهم منذ أن حملتني أمّي على ظهرها المحدودب، وحتى لحظة سقوط جدار الحمام، فأستنتج أنّه قد كان سهلاً عليَّ أن أمنح الآخرين الحب، لكنني لم أعرف يومًا أن الجزء الأصعب هو الحصول عليه.

١٦

بصبر وبال طويل لا يتمتع بهما إلا حبشي قد ركب البحر، وقفتُ أنتظر (مريم) أمام (رباط المغربي) الذي تقيم فيه (مونا). كانت (مريم) فتاة جاوية تتردد على الرباط كي تخرج رفقة بعض نزيلاته للقيام بأمور كثيرة من شأنها أن تدر عليها، وعلى أسرتها، القليل من المال، فتشارك تارة في تنظيف بيوت الباشاوات والكبارية، وتساعد تارةً أخرى في بيع اللبن. تفعل هذا بمرح وحيوية لا تتناسب مع طبيعة الأعمال الشاقة التي تقوم بها، ودون أن يطرأ على بالها، ولو من قبيل الصدفة، أنّها قادرة على الانفراد بالعمل دون الحاجة إلى مصادقة النساء الإفريقيات.

أعتقد أنّها كانت تسعد بملازمتهنّ كثيرًا، وربما كانت تستأنس أيضًا بقصصهنَّ وبالذكريات التي يتبادلنها، حتى لو جاء بعضها بلغات لا تعرفها، فأراها تهطل على الرباط في كل يوم بحماس يفوق حماس اليوم الذي يسبقه، تدلف على النساء السوداوات، توقظهنّ من النوم، ثم تخرج معهن في مشاوير كثيرة لا تنتهي إلا حين تغرب الشمس.

وقفتُ أنتظرها عند الرباط وأنا أتخيلها تحاول ضبط الوشاح المزركش الذي بالكاد يفلح في تغطية مقدمة رأسها، بينما شعرها الفاحم الطويل ينساب بنعومة حتى يتأرجح بغنج على ظهرها.

اعتدتُ رؤية (مريم) بجوار الرباط بحكم ترددي المتواصل على (مونا) التي قويت علاقتي بها وصرتُ أساعدها في مختلف أمورها، فأنتهز فرصة وجودي كي أجول ببصري بحثًا عنها، ولعلي أفلح في العثور عليها بعض الأحيان، وأفشل في أحيانٍ أخرى، لكنّ المؤكد هو أن قلبي كان يرقص كثيرًا كلما وقعتْ عيناي عليها.

في بادئ الأمر، لم تُعرني (مريم) أيّ اهتمام يُذكر، لا سيما وأنّ معرفتها بي كانت تقتصر على القدر اليسير من المعلومات التي قدّمتها إليها (مونا) ذات مرّة حين اقترحتُ عليهنَّ أن أساعدهنَّ في حمل سطول اللبن. قالتْ لها (مونا) إنّ اسمي (آدم)، وأنني ابن عمومة يقرب إليها من جَدّ بعيد، فتوقف اهتمام (مريم) بي عند هذا الحد، ولم تجد أيّ سببٍ يدفعها إلى الاكتراث بي إلا بعد أن قررتُ إلقاء التحية عليها ذات صباح وهي تهم بدخول الرباط.

أذكرني لما اعترضتُ طريقها كي ألقي عليها التحية، فعلتُ هذا وأنا أدرك تأنيب الضمير الذي قد يلازمني بعدها، وكذلك التقريع الذي قد تصبّه (مونا) فوق رأسي لو هرعتْ (مريم) بكل جزع نحو الداخل كي تشكو إليها، فمالتْ (مريم) نحوي، بخلاف توقعاتي، ثم ردّت التحية ودلفتْ عبر الباب. أوه، كم شعرتُ حينها بأنني أوفر البشر حظًّا، خصوصًا عندما ابتسمتْ خجلاً.

عاودتُ اعتراض طريقها في صباح آخر، عند باب الرباط، ولم أكترث في الحقيقة لما قد تؤول إليه هذه المخاطرة غير المدروسة، إذ كلما خطرتْ ببالي صورة (مونا) وهي تصفني بـ (قليل الأدب) و(الخربان)، زادتْ رغبتي في ارتكاب الحماقات أكثر، فبادلتني (مريم) التحية هذه المرّة وأضافتْ فوق ذلك سؤالاً بريئًا عن حالي. تكرر الأمر عينه بعد ذلك مرات كثيرة، وكنا نتوقف دائماً عند أسئلة اعتيادية لا تتجاوز «كيف حالكَ؟» و«هل أنتِ بخير؟»

إن أكثر ما كان يشعل البهجة داخل قلبي، ويجعلني أزداد ولعًا بها، هي الطريقة التي تبتسم بها على نحو لم أعهده من قبل. كنتُ ألقي عليها تحية الصباح، فأراها تحاول مواراة خجلها بذلك الوشاح المزركش. يضيع الكلام في حلقها، تجيب على التحية بكثير من التخبط، ثم تدخل الرباط بعد أن تفشل في التمسّك بالرصانة التي جاءت بها، وبعد أن أفشل أنا في ابتكار جملةٍ واحدةٍ من شأنها أن تُشعل حديثًا مطولاً يلزمها بالبقاء إلى جواري لمزيد من الوقت.

معرفتي بأن ما عايشته مع (مريم) هو إعجاب مشترك، قد دفعني إلى افتراض أنها كانت راغبةً في التودد إليَّ منذ البدء، بل وأنها هي من خططتْ لكل شيء، وهي التي أوقعتني في شِباك حبها. تلك الابتسامة كانت بذرة آمالي التي جعلتُ أسقيها ثلاثة أسابيع كاملة حتى أينعتْ الجُرأة بداخلي وقررتُ أخيرًا مصارحتها بما أشعر به.

رأيتها مصادفةً في حارة (المَسفلَة) بينما كنتُ أبحث عن شخصٍ قيل لي إنه يعرف مكان زوجة (الشيخ إسماعيل). قالتْ إنهّا جاءت

لزيارة والدها في دكانه الصغير القابع آخر الحارة، وأردتُ أن أعقّب على كلامها بجملة اعتيادية تأتي على غرار، «ومنذ متى يملك والدكِ الدكان» أو «ما طبيعة المنتجات التي يبيعها»، لكنني عوضًا عن ذلك قلتُ لها إنيّ أحبها، دون أن أعرف ما الذي قد يعنيه الحب أصلاً، فمنحتني نفس الابتسامة الساحرة التي أعرفها ثم استدارتْ لتهرول صوب دكان والدها.

لم أجد في رأسي أيّ تفسير وقتها سوى أنها أرادتْ قول الشيء عينه لي، لكنّ الخجل، وكما هو متوقع، حال بيني وبينها. لذا، جئتُ لألتقيها عند الرباط في يوم لاحق، وأردتُ أن أتبينَّ رأيها، أو ربما لأتراجع عن اعترافي في حال إن لم تقبل بالأمر.

في لحظة حاسمة رأيتها تدنو من بعيد، وهي تعيد ضبط وشاحها كأنها فَرَس مُسرَّج، فدنوتُ منها وأنا أفتعل المصادفة. ألقيتُ عليها تحية الصباح، أجابت بخجل وهي تتابع المشي، فعرفتُ أنها لا تريد أن تبدي اهتمامًا مبالغًا بي حتى لا تثير انتباه أي شخصٍ فضولي يقف جانبًا لمراقبتنا. كان حياؤها الأنثوي ذكيًّا، وسببًا آخر يدفعني إلى الجزم بأنها كانت تعرف ما يفعلهُ تمنعها بي، أوه، لا بد وأنها كانت تدرك جيدًا قَدر ولعي بها.

تبادلنا أحاديث اعتيادية عن حالها وحال والدها وعماّ تنوي القيام به رفقة نساء الرباط، فقالتْ لي إنها تود مواصلة الحديث معي بعيدًا عن الرباط، واقترحتْ أن نلتقي بعد العصر في (المَسفَلَة) حيث يمكننا الانصهار مع زحام المارة الذي يمنع أعين المتطفلين

من التربص بنا. أبديتُ موافقتي فورًا، وهل من الممكن أن يبدر مني غير ذلك؟ ثم انطلقتُ عائدًا إلى منزل (العم عباس) وأنا أثبّت قدميَّ بقوة على الأرض كي أقاوم شعورًا طارئًا بالرغبة في التحليق صوب السماء.

وصلتُ البيت فَرِحًا، قمتُ بتنظيف الجدران وغسل الأرض وكنس المفارش وتهوية الممرات، ثم أعددتُ الأطعمة التي يحبها (الشيخ) و(العم عباس)، تلك الأطعمة التي تتطلب جهدًا مضنيًا منّي كي أحضرها، والتي تعيد كلا الرجلين إلى لحظات جميلة وحاسمة في حياتهما.

صنعتُ المرق بأوصال من لحم الماعز، ومزجته باللوز المُحتمِ بقشوره وكذلك اللوز المطحون، ثم أحضرتُ قدرًا كبيرًا من البامية المجففة مسبقًا، وصنعتُ (الويكة) التي سيتناولها الرجلان مع قطعٍ من العجين الحار يسميها الأفارقة بـ (العصيدة)، ولم أنسَ أيضًا خلط الماء الساخن واللَّبن الحامض والسكر مع الدخن لصنع (المَدِيدة) ولإضفاء مزيد من التنوع على المائدة التي لم تكتمل إلا بعد أن أضفتُ لها مشروب الـ(فرو فرو) البارد بعد أن زينته باللَّبن وأذبتُ به حباتٍ من السكر الأحمر.

- ليش كل دا الأكل؟ هوا العيد جا؟

سأل (الشيخ) باستخفافه المعهود، ومن تحت وطأة الكثير من الأنين؛ كي يستنكر أصناف الطعام المتعددة، فقلتُ له إنني استيقظتُ على شعور طارئ بالسعادة، لا توجد أسباب معينة لهذه

المأدبة، كل ما في الأمر هو أنيّ أردتُ اقتسام السعادة معه ومع (العم عباس)، فضحكَ (الشيخ) بخبث بعد أن قاوم نوبة سعال مفاجئة ثم مد يده نحو (العصيدة) وهو يقول:

- والله مني مرتاح لك يا كلب..

على خلاف (الشيخ)، كان (العم عباس) سعيدًا بهذه المبادرة. راح يقول لي إن والدته كانت تطهو له أصنافًا مشابهة فيما مضى، وأن رائحة الطعام الزكية ومذاقه قد أعادته إلى أيام صباه، وإلى لحظاتٍ ظنَّ أنه قد فقدها إلى الأبد. أخرجتُ من جيبي بضع حبات من نبات (القورو)، وضعتها أمام الرجلين بعد أن فرغا من تناول وجبة الغداء، رغم أن ظروفِ الشيخ الصحية ما كانت تشي بقدرته على مضغها، ثم قمتُ برفع المائدة وتخزين الطعام لوقت لاحق. ولما تأكدتُ من أن الرجلين قد استسلما لقيلولتهما المعتادة، سارعتُ بتبديل ثيابي والخروج لملاقاة (مريم) في (المَسفَلَة).

وصلتُ أخيرًا، ولم أكن مضطرًّا إلى الانتظار طويلاً حتى لمحتُ (مريم) التي، ويطيب لي وأنا أستعيد تلك الذكرى أن أضيف إليها جناحين أبيضين، جاءتْ من البعيد وهي تجر معها خجلها المعتاد. كنتُ قد قررتُ استغلال الفرصة على وجهها الأكمل، فحضرّتُ كلامًا عاطفيًّا كثيرًا أقوله لها، واستعنتُ أيضًا ببعض أشعار الغزل الصوفية والصور المجازية التي عرفتها من (الناظر) حتى أقدمها إليها. خوفي الوحيد وقتها كان من احتمالية أن تكتشف مبالغتي فيما أقول فتتململ منّي ثم تقفل عائدة من حيث جاءت، لكن هذا

لم يحصل قطعًا، إذ راحتْ تصغي إلى كلامي وهي تطرق برأسها وترخي عينيها صوب الأرض.

كنتُ أنتهز خجلها ذاك كي أتأملها عن كثب، وكي أختزن في رأسي أكبر عدد ممكن من صورها. خزَّنتُ في رأسي صورةً لها وهي تحشر سبابتها بين شفتيها وتخفض عينها نحو الأرض. خزَّنتُ أيضًا صورة لها وهي تُعرِض بعيدًا كي تواري خجلها، وصورة أخرى تحاول بها تثبيت أحد أطراف وشاحها على كتفها، وصورة أخيرة آخذ فيها بيدها فتستعيدها بلطفٍ ثم تعيد ضبط وشاحها.

كان ذلك هو اليوم الذي بدأنا من بعده ممارسة عِشقنا البدائي العُذري في الخفاء، فصرنا نلتقي بشكل دوري في أحياء (مكّة) البعيدة عن الرباط كي نتسكع بمنأى عن عينيِ أيّ شخصٍ قد يتعرّف علينا. نفعل ذلك بنظراتٍ خاطفة وقصائد صوفية عابرة وأحاديث مطولة قد يبدو في ظاهرها أنها اعتيادية لكنها تضمر بداخلها شوقًا وحنينًا. كنتُ أجلس إلى جوارها وأنا أقاوم رغبتي الملحة في أن أشدها إليَّ ثم أقبلها بقوّة. أتمنّع عن المخاطرة، لا سيما حين تدنو مني، وحين تتهادى إليَّ رائحة الياسمين التي تتطيب بها، فأنا أعرفها جيدًا، أيّ تجاوز سوف يدفعها إلى توشّح الحياء والتعجيل بالمغادرة. ومن كان يدري، لعلي لن أراها بعد أية حماقة مثل تلك، فتنتهي قصة الحب التي كانت وحدها تطبطب عليَّ وتجعلني أتقوى على قسوة الحياة في (مكّة).

لقد اكتفيتُ مدة معرفتي بـ(مريم) بالإنصات إليها وهي تحكي لي عن طريقة لقائنا التي كانت تتمرَّس عليها منذ الصغر، وعلى المواعيد التي سنخرج فيها، وعلى لحظات الغروب التي ستجمعني بها؛ فتخبرني بأنها أكثر وفاءً من الشمس، وأن لا شيء سيدفعها إلى الرحيل عنّي مهما ساء الأمر بيننا. لكنها في نهاية كل يوم كانت ترحل، مثلما تغيب الشمس، هذا أمرٌ متوقّعٌ جدًّا، ولم يكن يجرحني ذهابها بقدر ما يؤلمني إصرارها على أن تعود إليَّ في الموعد التالي كي تعاقبني بطريقة الغروب نفسها.

خرجتُ برفقتها كثيرًا في أحياء (مكّة) العديدة. ذرعنا طوال الأسابيع التالية أزقّة (الشبيكية) و(حارة الباب) و(الدَّحلة) و(شعب عامر)، وشاركنا الأطفال الذين تعثرنا بهم ألعابهم الشعبية. لا بد وأنّني كنتُ في منتصف العشرينيات وقتها، وكانت (مريم) تصغرني بخمسة أعوام أو يزيد، لكننا رغم ذلك لعبنا مع الأطفال (الغميضة) و(الحجلة)، ودأبنا نتحدث عن رغبتنا في الزواج يومًا ما وإنجاب الأطفال، فانصرفتْ بدورها إلى تحديد الحي الذي سنسكنه، وشكل البيت الذي سنختاره، وعدد الأبناء الذين سننجبهم. لقد قالت كلامًا كثيرًا عن أسماء الذكور والإناث التي تحبها، والصفات التي ترغب في أن يتوارثها أبناؤنا عنَّا، شعرها الأسود مثلاً، أنفي الممشوق أيضًا، وذلك الخليط السحري الذي يمزج بين سُمرتي وبياض بشرتها، فصار من اللازم عليَّ أن أعترف لها بطبيعتي الجسمانية كي أضعها أمام الأمر

الواقع، وكي لا أسمح لخيالها بالذهاب إلى ما هو أبعد من حدود الحقيقة الصرفة.

قلتُ لنفسي ذات مشوارٍ، إنَّني أتمتع بالجُبن الشديد، وأنَّ القَدَر هو وحده من سيساعدني على اختيار اللحظة المناسبة التي أقول لها فيها أنني مجبوب، وأنني لا أصلح لأن أكون فارس أحلامها. لذا، وضعتُ قَرشًا معدنيًّا في كفّي، ثم أخفيتُ كلتا كفيَّ خلف ظهري ورحتُ أنقِّل القَرش بينهما. طلبتُ منها أن تختار كفًّا، وقلتُ لها إنني سأخبرها بسرٍ عظيم في حال وقع اختيارها على الكف التي أُمسك بها القَرش، فراحتْ تستفتي نفسها ببراءتها المعهودة كي تتأهب لاتخاذ قرارها. كانت تعتقد أنهّا توشك على اكتشاف أمرٍ جميل:

«حادي بادي

سيدي محمد البغدادي

شالو حطه

كله في هادي»

اختارتْ (مريم) كفي الفارغة، فوجب عليَّ تأجيل السرِ حتى موعدٍ لاحق، ولا أدري هل كان الأمر من تدبير القدر أم أنَّ حظ (مريم) الوافر هو ما جعلها تخفق في اختيار الكف الصحيحة لمدة أسبوعين إضافيين. إذ واصلنا تسكعنا في الحواري وقضاء أوقاتٍ

ممتعة حتى حانت اللحظة التي اختارتْ فيها (مريم) كفّي الممسكة بالقَرش، وكم كانت صدمتها عظيمة حين راحتْ تستمع إليَّ وأنا أقص لها حكاية سفري من (الحبشة) إلى (اليمن)، وتفاصيل عملي لدى جماعة الأغوات.

أنا بالطبع لم أخبرها عن حقيقة (الشيخ إسماعيل) وعما حصل لعائلته أو عن السبب الذي دفعنا إلى القدوم إلى (مكّة)، ليس من باب الحرص الشديد وإنما لأنها لم تفسح لي المجال حتى أكمل تلاوة السرِ الذي جعلها تحسم موقفها تجاهي بشكل نهائي. لقد سارعتْ (مريم) بضبط وتيرة وشاحها، ثم قالتْ إنّ الوقت قد تأخر ويتوجب عليها أن تقفل عائدة إلى دكان والدها، ولعلها شعرتْ بأن ردّة فعلها كانت جارحة، فحاولتْ استرضائي بالحديث عن خجلها البتولي، وبأنها غير معتادة على سماع قصص من هذا النوع، لكنها وعدتني بأن نلتقي في وقت لاحق كي نُتم حديثنا، ثم سارعتْ بالرحيل دون أن تمنحني فرصة التعقيب على كلامها. أوه، كم كانتْ جميلةً ومخادعة مثل تلك اللحظة الحاسمة التي نراها في نهاية الأحلام، والتي تنقطع عندها الأحداث بشكل مفاجئ.

غابتْ (مريم) بعدها، ولم أعد ألقاها عند الرباط ولا في الأماكن التي جمعتْ بيننا. خوفي من افتعال المشكلات كان يمنعني من الذهاب إلى والدها والسؤال عنها، لكنني عطفتُ على دكانهِ في سائر الأحوال ولم أفلح في ايجادها بالنظر من مسافة بعيدة. رحيلها المفاجئ، أو المتوقّع ربما، جعلني أكتشف افتقاري إلى أيّ شيء

أفعله سوى الوقوف بصمت أمام البرِك التي تصنعها مياه البيوت المغسولة بعد أن تنزلق من نزلة (المَسفَلَة). لقد كنتُ جميلاً فيما مضى، حين اعتدتُ الوقوف مع (مريم) أمام انعكاسنا، وحين كنتُ أقول لها إننا قصيدتان حزينتان، يجمعنا الشِّعر، وتعرفنا بركة الماء لأننا معًا. لم أعرف يومها أن غيابها سوف يثبت لي أنني مرئي لأنها وحدها من وضعتْ يدها أمانة بين يديَّ، وأنّ لا أحد من الغرباء العابرين سوف يراني لأنني صرتُ خالياً ومجرداً منها.

حسنًا، سوف أنكسر الآن كما لو أنَّ التخلي يحدث للمرّة الأولى، لكن من قال إنني خُلقتُ لأتحمّل كل هذه الأوجاع؟ لقد تصالحتُ منذ البداية مع كوني مهزومًا، ودرّبتُ نفسي بإتقان على خسارة الآخرين، لا سيما بعد رحيل أمي و(محسون) و(الشيخ قاسم). لم يصدف أن التقيتُ شخصًا إلا وقد رسمتُ لأجله خُطةً محُكمة يغادرني بها، فأتخيّل طريقة قدومه إليَّ أولاً، ثم أتنبأ بالعبارات التي سيقولها لي لحظة وداعه، والعبارات التي سأقولها لنفسي أيضًا كي لا أبدو على حافة الانهيار، وتلويحة اليد التي ستنتهي بها علاقتنا.

لطالما كنتُ أقنع نفسي بأنني سأكون في خير، وأن السعادة لا يمكنها أن تأتي إلا بعد أن نعرف المعنى الحقيقي لمعاناتنا، لكن أعذاري باتتْ قليلة جدًّا، لقد أوشكتُ على الإفلاس، أنا محُطمٌ فعلاً، ولا أعرف إن كان واجبًا عليّ تدريب نفسي على الانتصار عوضًا عن ذلك، أو إن كان من الأفضل لي أن أغدو الشخص الذي

يبادر دومًا بالرحيل. من المؤكد أنني كنتُ سأصبح أفضل حالاً لو أنني حطمتُ قلوب الآخرين، لو أنني كنتُ الشخص الذي يرسم خطوط النهاية دون أسباب. تبًّا، أريد، ولو لمرّة واحدة فقط، أن أعجّل بالمغادرة كي أترك لشخص آخر غيري مهمة أن يحترق من بعدي دون أن ألتفت إلى الوراء وأقول جملة اعتذار واحدة!

إن التجربة التي عشتها مع (مريم) قد جاءت كي تؤكّد لي، ولو بشكل جزئي، أن الأغوات غير مؤهلين لاختبار قصص العشق، وأنّ الغاية، كل الغاية من خلقهم، لا تتجاوز التفرغ لخدمة الأماكن المقدسة. في الحقيقة، أنا لم أكن أصدق الحديث الدارج بين الأغوات، والذي يقتضي كوننا غير قادرين على تبادل المشاعر العاطفية مع أي شخص آخر لأنّ هذه المهارة تبددتْ مع زوال الخُصىَ وأعضائنا الذكورية؛ فأنا كنتُ شاهدًا على بعض المغامرات العاطفية التي خاضها صغار الأغوات في (المدينة) قبل رحيلي منها، لكن رحيل (مريم) جعلني أتيقن من أنني، وكذلك أشباهي من الأغوات، لا نصلح لأن نكون طرفًا في أي اشتباك عاطفي ما دام هذا الاشتباك سوف يتطلب، بشكل أو آخر، علاقةً حميميةً وأعضاءً تناسلية.

وحتى أصدقكم القول، سوف أقول إنني قد عرفتُ منذ البداية أن (مريم) كانت سوف تحطم قلبي، أجل، عرفتُ هذا مثلما تعرف الدمعة اليتيمة مصيرها حين تنحدر من العين صوب الخَدّ. لكن إصراري على التعلق بها كان ينبع من اعتقادي بأنَّ فتاة بريئة

مثلها لن تلتفتْ إلى الجنس بصفته ضرورة حياتية، أو ربما أنها سوف تتخلى عن ولعها بإنجاب الأطفال وتكوين أسرة صغيرة ما دام أنني سأظل بجوارها إلى الأبد. يا لسذاجتي!

هل يمكن أن تكون (مريم) قد غابتْ لأنها ظنّتْ أنني كنتُ أعبث بمشاعرها، وأستخدمها وسيلة لتزجية الوقت أو ربما للوصول إلى مآرب أخرى؟ لا أستبعد ذلك، ولكنّي لم أكن أملك حينها أيَّة طريقة ألقاها بها كي أصحح هذا الانطباع الخاطئ، وكي أشرح لها، وبكل صدق، أنني لم أكن أريدها سنبوك عبورٍ، ولا رُبّاناً ينقلني من مرحلة عمرية إلى أخرى، كنتُ أريدها الوِجهة، وكذلك الوصول، كنتُ أريدها لي وطنًا لأنيّ لا أعرف في (مكّة) سوى المنفى.

مضحكٌ أن أتحوّل إلى رجلٍ شاعري بهذه الطريقة. تبًّا (للناظر) ولقصائده الصوفية وصوره المجازية التي جعلتني أكثر إلمامًا بالوجع وأكثر قدرةً على التعبير عنه. ولعل من المضحك أيضًا أن تكون (مونا) قد لاحظت غياب (مريم) المفاجئ، وأن تقرنه بحالة الحزن الشديد التي أصابتني، لكن من دون أن تقول لي شيئًا. لقد رأيتُ في صمت (مونا) مواساةً حقيقية، إنها لم تعاتبني، ولم تصفني بـ (قليل الأدب) أو (الخربان) فهي كانت تعلم، وبحدس أنثوي مبهر، أنَّ (مريم) فتاة متّزنة، لا يمكنها أن تُقدم على أيّ أمر مشين، وأن كل ما في الأمر هو أننا قد تعاهدنا أن نحب بعضنا إلى (الأبد)، لكن يبدو أنّ (الأبد) قد جاء مبكرًا.

رحلتْ (مريم) بشكل نهائي، لم ألتقِها بعد ذلك اليوم، ولم أحاول تكرار التجربة أو التورط عاطفيًّا مع أيّة فتاة أخرى غيرها. كنتُ أراها في كل النساء العابرات حولي، يعبرن من خلالي، ليس من أمامي، فأنشطر بطريقة متوقعة إلى نصفين، ثم أتساءل، ومن أنا حتى أعاتب (مريم) على غيابها؟ لقد أغمضتُ عينيّ حتى ألعب معها الغُمّيضة. لم أعرف أبدًا أنيّ سأمضي بقيّةَ حياتي أبحثُ عنها.

١٧

أمَّن (الناظر) لي وظيفة في نقل المعتمرين والحجاج بين المسجد الحرام والمرافق المقدسة المجاورة، فصببتُ جل اهتمامي على ما اقتضته هذه الوظيفة من مهام، ولم أخرج للبحث عن زوجة (الشيخ) إلا في النادر، وهذا قبل أن أوكل المهمة بمجملها إلى (مونا). قلتُ لها إنها قادرةٌ على التسلل بين نساء (مكّة) الإفريقيات ونبش الأسرار الدفينة التي يخبئنها، فكان تبريري مقنعًا بالنسبة إليها، أو ربما رغبتها في التكفير عن ذنب التخلي عنّي في صغري هي ما جعلتها ترضخ لمطلبي دون جدال، وهذا ما منحني القدرة على الخروج للعمل منذ طلوع الفجر وحتى وقتٍ متأخرٍ من المساء.

كنتُ ألتزم بساعات عملي، بل وأبالغ في الالتزام أحيانًا حد تأخري في العودة إلى قرب منتصف الليل. أفعل هذا ليس لأني شخصٌ مخلص، ولا لأنني متفانٍ في كل ما أقوم به، بل رغبةً في الهرب من أيّة لحظة فراغ قد تقودني إلى التفكير في (مريم). أما تدهور حالة (الشيخ) الصحية، ومن قبل ذلك اختفاء صوته داخل

حنجرته، فقد جعلاني قادرًا على التملص من بيت (العم عباس) لفترات طويلة دون التخوف من احتمالية أن يصب أحدٌ تقريعه فوق رأسي أو يدينني بـ (التسكع) و(السربتة).

طبيعة عملي، التي كانت تتمحور حول تحصيل أجرة الأوتوبيس من الركاب وحثّهم على المسارعة بالصعود أو النزول، جعلتني مضطرًّا إلى مصادقة (راجح)، وهو شاب بدوي نزح مع أسرته إلى (مكّة) منذ زمن بعيد واستقر في أحد حواريها. التقيته أول مرّة عند (موقف القشّاشية)، حيث يتجمهر الكدّادون وسائقو الأوتوبيسات، فتهادى نحوي لأنني، وحسبما فهمتُ لاحقًا، كنتُ أطابق المواصفات التي أخبره (الناظر) عنها، شاب أسمرٌ نحيل أمرد في منتصف العشرينيات لكنّه يبدو في التاسعة عشرة، ليس من الصعب التعرف عليَّ أبدًا.

أما بالنسبة إليه، أقصد (راجح) طبعًا، فقد جاءت مواصفاته مخالفة لكل التوقعات التي رسمتها في رأسي بالاستناد إلى قصصه البطولية ومغامراته مع الحجيج التي أخبرني (الناظر) عنها. لسبب لا أعرفه، لم أعتقد أن جسده الهزيل، ولا سواعده الناحلة، ولا عظامه البارزة، كانت تليق بسائق ماهرٍ يوجّه المركبات الثقيلة ويقطع المسافات الطويلة ويعاون الحجاج على مجابهة هضاب (مكّة) بل ويحمل الكبار منهم لصعود جبل (عرفة).

لـ(راجح) ملامح حادة، لكنّ حسه الفكاهي وميلهُ إلى المزاح وإلقاء النكات كان يجعله ودودًا جدًّا. لم أكن في حاجة إلى الكثير من

الوقت حتى أجد فيه صديقًا وفيًّا رغم أن ظروف عملنا وطريقة تواتر مهامنا ما كانت تحث على تكوين الصداقات أو إحياء أي روابط اجتماعية. لربما كان (راجح) يرغب في أن يكون رجلاً وقورًا، أو أحد وجهاء (مكّة) المتخشبين، والذين تمنحهم (المشالح) الملونة هيبةً تجعل الكلام معهم مستحيلاً، لكنّه استقرَّ، ومنذ صباه، على أن يكون فكاهيًّا وذا ظلٍ خفيف. إنه سلس، مرح، ودود، لطيف، يعرف الجميع، ولكن الجميع لا يعرفه. خِفّة ظله تلك هي ما منحته ربما القدرة على تحمل العمل في نقل الركاب، حيث يتحوّل أغلب الرجال إلى كائنات انفعالية مشحونة بالغضب؛ إذ إنّ تقاعس الحجاج في الالتزام بالتعليمات، وكذلك عدم مقدرة كبار السنِ منهم على مجاراة الإيقاع السريع لحركة التنقل، كان من شأنه أن يحوّل أي إنسان ودود إلى قنبلة ذاتية الانفجار.

أعتقد أنَّ خفة ظل (راجح) هي أيضًا ما جعلته قادرًا على مجابهة الحياة دون الشعور بالقلق إزاء المستقبل، ودون الحاجة إلى التفكير فيما قد تخبئه له الأيام. هذا التخفّف من الأعباء، والذي فسرّه أهله على حد قوله بالتبلّد، هو ما جعل الجميع غير مكترثٍ بشأنه، لا أحد كان ينتظر الكثير منه، حتى والده كان يردد أمام الجميع، وبمرارة، أنّ ابنه قد خُلق لكي يكون (كدَّادًا) فحسب.

لم يخيّب (راجح) ظنّ والده، وأخلصَ العمل في مجال قيادة الأوتوبيسات كما لو أنَّ الأمر بأسره لا يعدو كونه مجرد طُرفة كبيرة. لقد تمسّك بالعمل في نقل الحجاج مثلما تمسك أبوه وكذلك أقرباؤه

باعتقادهم الدائم بأنَّ أغلب الكدادين سيئو الخلق وأنه لا شاغل لهم سوى تدخين السجائر وتعقب أجساد الحاجات. «بدال ما تقعد تنقل الناس لمنى ومزدلفة، شيل نفسك وروح حج». أخبرني بأن والده كان يستقبله دومًا بعبارته تلك، أو بنسخ تختلف قليلاً عنها؛ وذلك كي يقلل من أهمية العمل الذي يقوم به، أو ربما كي ينتقص من عقيدته، أو حتى يعظِّم من صورة شقيقيهِ اللذين درسا في الكتاتيب وأصبحا رجلي عِلمٍ يقومان بالتدريس في المسجد الحرام، ثم ينهي كلامه بعبارات تجيء على غرار، «استغفر الله منك بس» و«ناس تحج عن نفسها وعن أهلها كل سنة، وناس تجري ورى الحريم الإيرانيات كل سنة».

وحتى أصدقكم القول، لم يحدث أن شاهدتُ أيّة حادثة تؤكد مزاعم والد (راجح) أو تبرر ميل الكثير من أهالي (مكّة) إلى التشكيك في أخلاقيات الكدادين، مع العلم بأنني لازمتُ (راجح) مدة تربو على الشهرين، وكنتُ شاهدًا على مواقف كثيرة كان في وسعهِ أن يستغلها لإشباع شهواته. أذكر أنيّ سألته إن كان مهتماً بمراقبة أجساد النساء الكثيرات اللواتي يركبن أوتوبيسه، أو إن كانت لديه أية نزوات عابرة، فقال لي إن هذا الأمر لا يعنيه حقًا، وأنّه في حقيقة الأمر ينال كفايته من أرملة أربعينية يعرفها.

- وحدة لبوة مربربة تحب الشباب النحاف.

قالها بطريقته الفكاهية التي أعرفها، فلم يبدُ الأمر مستهجنًا وقتها، ضحكنا معًا، وضحكنا أيضًا لما قال إنّه إعتاد أن ينال

كفايته قبل ذلك من أحد الباشاوات الرجال. لسبب لا يعرفه كان الآخرون يجدون فيه طريقةً للوصول إلى خيالاتٍ آثمة لا يمكنها أن تتحقق في الواقع، فالمرأة التي يعاشرها كانت تحثه دومًا على التصرف معه بهمجية، والحديث معها بلهجته البدوية التي تُشعرها بالفوقية ربما، أو بأنها كانت تعبث مع مخلوق غريب من خارج واقعها. حتى الباشا الذي سبقها، كان يشترط عليه أن يكون فظًّا، وأن يشتمه بألفاظ بذيئة إلى أن ينتهي الشوط الحميمي بينهما، بل وفي بعض الأحيان، كان يأمره بعدم الاغتسال قبل المجيء إليه، فتصبح رائحة عرقه النفاذة وأسلوب حياته البدوية جزءًا ضرورياً من علاقتهما الجنسية.

كنتُ أصيخ إلى قصص (راجح) ثم أشكك فيها، فشخصيته الفكاهية، وبنيته الجسمانية، ما كانتا تشيان بقدرته على المشاركة في مغامرات من هذا النوع. إلا أنَّ ميله الدائم إلى الصدق كان يغذي بداخلي شعورًا بالرغبة في عدم تكذيبه.

أذكرنا لما هبطنا ذات يومٍ أسفل شجرة يتيمة في الطريق الذي يربط (مكّة) بـ(جدّة). كنا قد خرجنا بمفردنا، في مشوار نادر لا يتكرر أبدًا؛ وذلك لاستقبال حجيجٍ من الميناء، فاستقر الأوتوبيس بمحاذاة الطريق حتى ننال بعض الراحة. فرشنا بساطًا من الحصير قبل أن يلفّ (راجح) عمامته حول رأسه ثم يسبقني للاستلقاء على البساط وهو يقول، «لا يكون تحسبني داشر؟» لم أجب. وضعتُ يدًا أسفل رأسي وأقفلتُ عينيَّ فقط كما لو كنت راغبًا في أخذ قسطٍ

من الراحة. قال لي إنّ ميله إلى أخذ الأمور بأقل قدر من الجِديّة هو جزء من طبيعته، وأنّه لم يقصد يومًا إثارة حفيظة والده أو أي شخصٍ آخر. إنه إنسان صالح، أَقسَم لي بذلك، ثم قال لي إنَّ ولعه بالغرائز لا يتجاوز وَلع أيّ شابٍ أعزب في العشرينيات من عمره.

- ترى تقدر تقول عنّي إنّي صوفي زيك.

هتف بذلك كي ينفي عن رأسي أيَّة صورة تجعله يبدو ماجنًا. هو بطبيعة الحال لم يكن يقصد التصوف الديني حين قارن نفسه بي، وإنما كان يوظف تعبيرًا حجازيًّا دارجًا يميل إلى وصف الشاب المُعرض عن الشهوات والملذات بالصوفي، فضحكتُ بصوتٍ عالٍ قبل أن أفتح عينيَّ وأقول له بأنني لا أشبهه على الإطلاق. سألني، «لماذا»، بنبرة أكثر جدية مما هو متوقع، وأقل هزلاً مما هو معهود، فأجبتهُ على الفور بأنني مجبوب.

لعل (راجح) لم يفهم مقصدي في البداية؛ لهذا عمدتُ إلى إخباره بقصة إخصائي وعن سفري إلى (اليمن) ومن ثم إلى (الحجاز) للعمل مع جماعة الأغوات. لم أخبره عن تفاصيل عملي في (المدينة المنورة)، أو عمّا حدث لي خلال إقامتي بها، واكتفيتُ فقط باختلاق قصة مُقنعة عن مغادرتي جماعة الأغوات في (المدينة) بعدما أصابني الملل، فعادتْ إليه نفس الروح الفكاهية، التي لا تتناسب مع الموقف الحالي، كي يسألني بشقاوة:

- يعني ما عمرك جربت؟

نفضتُ رأسي نافيًا، وأذكر أنه قال معقبًا حين أسندتُ كلا مرفقيّ إلى الأرض ودفعتُ بجسدي المستلقي على الأرض كي أرتفع قليلاً:

- فاتك كتير.

من المرجح أن يكون الصمت قد امتد بيننا بعض الوقت قبل أن أسأله بصدقٍ:

- يعني بإيش تحس وقتها؟

أذكى سؤالي بداخله تلك الرغبة في أن يستذكر تفاصيل معاشرته للمرأة التي كان ينقضّ عليها، فراح يصف لي طريقته في اعتلائها أكثر من مرّة خلال اللقاء الواحد، ولعله كان يفضل أن تتم لقاءاتهما ضمن أجواء حميمية هادئة تتصف بالوداعة، لكنه ما كان يمانع اشتراطات المرأة وميلها إلى القسوة والسباب ما دام يشعر معها بالقدرة على بلوغ نشوته. سألته، «وريني كيف»، فانقلب في موضعه وصارتْ بطنه على الأرض. كانت قدرته على التموج والتأرجح والنهوض والانبطاح تشي بصدق أقواله، وكان توقي إلى اختبار هذا الشعور يفوق رغبتي في استعادة أعضائي الذكورية المنهوبة أثناء الصِغر.

يقول متباهيًا:

- حتى هي تنبسط معايا.

فأسأله معقبًا:

- كيف؟

ثم يجيب بأن الإيلاج المقترن بأدائه البهلواني كان يبعث بداخلها شعورًا مكافئًا باللذة، ولا بد لكل شيء أن يبدأ بالملامسة، الملامسة الصحيحة. يضع يده على كتفي، ويشرح لي الفرق بين الملامسة المثيرة والاحتكاك لمجرد الاحتكاك، مجددًا، بأسلوب فكاهي لا يتماشى مع طبيعة الموقف، ثم يمد يده كي يلمس صدري. مناورة كهذه تتطلب منه أن يقلّص المسافة بيننا. يدفع جسده بحركة بهلوانية يشوبها الكثير من المزاح، فيختفي الفراغ بيننا، ويصبح قادرًا على إدخال يده، وعبر فراغ القميص العلوي، كي يتحسس صدري.

أتذكَّر أنه امتدح صدري البضّ لأنّه لم يكن معشوشبًا، بخلاف ما قد يتوقعه المرء من أيّ شابٍ تجاوز حاجز البلوغ بجدارة، وكذلك قال شيئًا عن تفوقي على المرأة التي يعرفها، وكذلك الباشا الذي ضاجعه، في منحهِ شعورًا بالزهو إزاء مقدرته على تجربة المعنى الحقيقي للأنوثة، ثم تحول إلى الوقوف على ركبتيه، ضحك قليلاً، وأشهر بعدها ذكوريتهُ في وجهي.

حسنًا، دعوني أخبركم بأنني لم أكن متأهبًا لأيّ شيء مما جرى، رغم أني، وأعترف لكم، قد تعمدتُ استدراجه إلى هذه المنطقة الشائكة، وطرحتُ عليه أسئلةً كنتُ أعرف سابقًا أنها سوف تستفز ذكوريته، لكنني كنتُ أعتقد وقتها أنّ أقصى ما قد يبلغه الأمر هو أن ينكفئ (راجح) على جنبه ثم يمنحني، مثلما كان يفعل (محسون) في الصبا، ظهره كي يستمني على عجل قبل أن يعود إليَّ ويشتمني مازحًا لأنيّ ذكرتهُ بالمرأة التي اعتاد مطارحتها الغرام. لقد تمادينا

كثيرًا، الآن أدرك هذا، ومن الأكيد أنني أدركتُ الشيء عينه آنذاك، لكنني فضلتُ الوقوف أمام الانتصاب القمحي كي أقنع نفسي بأنّ لا شيء من الذكورية التي أمامي يشبه تفاصيل (الشيخ إسماعيل) المترهلة، تلك التفاصيل التي كنتُ أراها كل يوم بحكم حاجتي إلى غسل (الشيخ) وتحميمه.

لقد أتاح ذلك الفيء النادر على طريق (مكّة) و(جدّة) القديم الفرصة لـ(راجح) كي يعتليني بعد أن انكفأتُ على بطني، وكي يغرس ذكوريته بداخلي. شعورٌ غير مألوفٍ بالألم توزَّع حينها في النصف السفلي من جسدي، لكن الطريقة التي راح يضمنّي بها قالتْ لي إنّه، ورغم الوجع الذي يسببه لي، كان يهتم لأمري. لقد ظلّ (راجح) يشدّني إليه بقوة، حتى بعد أن فرغ من حركاته البهلوانية وخر صريعًا، ثم راح يقول لي، وبحسٍ فكاهي عالٍ، إنّ الغاية من اللحظات الحميمية تكمن في لحظات الاحتضان الأخيرة.

إن ذلك الشعور النادر بالاحتواء هو وحده ما جعلني أكرر التجربة معه أكثر من مرّة، في أوقات متباعدة طبعًا، فهو لم يكن شبقًا بطبيعة الحال. طريقته الفكاهية في استدراجي هي ما كانت تشعل فتيل لقاءاتنا الحميمية في أماكن غير مخصصة للتلاحم قطعًا، وهي نفسها ما كانت تكسر حاجز الحياء بيننا، وتجعلني أصرف النظر عمّا قد يقوله الآخرون في حال لو علموا أنيّ أشارك طوعًا في هذا الطقس.

لأسابيع متتالية كنتُ أجد في ذلك الاحتضان الخارج عن المألوف شعورًا نادرًا بالألفة، وسعادةً غامرةً لأنّ شخصًا آخر

جعلني أدرك ما معنى أن يكون المرء مرغوبًا، إنني لم أعِ يومًا ما معنى أن يشدّك أحدٌ إليه، ثم يقول لك إنّه سعيدٌ بهذا القرب فعلاً. ورغم أني لم أكن سعيدًا بفِعل الإيلاج نفسه، ولا الآلام المصاحبة له، إلا أنّ مقدرة (راجح) على إشعاري بأهمّية نفسي، وبمدى تأثيري فيه، كانت وحدها ما تجعلني موافقًا على الرضوخ لرغباته كلما دعتْ الحاجة.

ولعل المفارقة العجيبة هي عدم تبدّل الطريقة التي كنّا نزاول بها أعمالنا اليومية أو تأثرها بالتحول الكبير الذي طرأ على علاقتنا، إذ نجح (راجح) في صبّ تركيزه على قيادة الأوتوبيس ومعاونة الركاب بنفس التفاني والمَرح الذي عرفته عنه. يلقاني كل صباحٍ عند (موقف القشّاشية)، كما لو أنّ الشجرة التي في طريق السفر لم تعرفنا، وكما لو أنّ أجسادنا لم تتلاحم بعد ذلك مرات عديدة، فنبدأ اليوم بصفّ الأوتوبيس مع المركبات التي تعجّ بها الساحة، ونحارب بعد ذلك بقية السائقين، ومتعهدي السفر، حتى نجلب أكبر عددٍ من الركاب إلى الأوتوبيس الخاص بنا.

استمر هذا الحال لفترةٍ كافية استطاعت (مونا) خلالها تحديد المكان الذي انتقلتْ إليه القابلة رفقة زوجة (الشيخ إسماعيل) وابنه، فوجبَ عليَّ وقتها أن أشيع لـ(راجح) ذلك الخبر الصادم، بأنني سوف أتخلى عن العمل كي أسافر بـ(الشيخ) إلى (جدة) حتى يلتقي أسرته. ولعلي سأمضي بقية حياتي في جدة أو أغادر مع الشيخ إلى (الحبشة)، من كان يدري، لكن المؤكد هو أنني لم أكن عائدًا إلى (مكّة).

في وسعي الآن أن أتذكّر تعابير وجه (راجح)، والطريقة التي عالج بها صدمته حين أخبرته بالأمر، إذ راح يضحك كثيرًا كما لو أنّ الخبر مجرّد طرفة عابرة، ثم تمنى لي الحظ الطيب بعدما أقسمتُ له إنني ما كنتُ أمازحه، ولا أنسى إطلاقًا يده التي طوقتْ كتفيَّ حين وقف إلى جانبي في ذلك اليوم كي يقول لي إنه سيتذكرني دومًا، وأنه سيخرج بعد رحيلي كي يبحث عن شخص آخر يعاونه في تشغيل الأوتوبيس، «وفي تشغيل الأمور الأخرى»، وحبذا لو كان هذا الشخص أغا حبشيًّا ومخصيًّا.

آلمني حس دعابته وقتها، وللمرة الأولى مذ أن عرفته، أدركتُ شيئًا من الغيظ الذي كان يعتري والده كلما رآه، «لماذا لا يتصرف بجدية في المواقف التي تستدعي الجدية؟»، لكنّي آثرتُ مواراة غيظي خلف ابتسامة مصطنعة اقتبستها على عجل، ورحلتُ عنه بصورة أبدية، ولا أعرف لماذا شعرتُ بالغَدرِ وقتها، مع أنيّ أنا من أراد الرحيل، أو لماذا لم يقترح عليَّ بدوره أن يذهب معي إلى (جدّة). لسببٍ لا أعرفه ظننتُ أن بوسعه ترك (مكّة)، فهو رحّال بطبيعة الحال، وأن يمضي الحياة معي ونحن نقوم بتشغيل الأوتوبيس الذي يخصنا.

لقد رحلتُ عن (راجح) بعد أن تركَ على جسدي أثر عَرَقه، ودفء لهاثه، وبقايا محاولاته المتفاوتة في التشبث والإفلات. رحلتُ عنه رفقة الشامة التي على كتفي اليسرى، وخدوش الطفولة القديمة، وجروح قابلة القرية المتروكة في فرجي، وثمة ذكرى لا تشبه شيئًا

من الحميمية التي حلمتُ بها. أجل، تركتهُ وعلى جسدي عشراتُ الوعود بأن نظلَّ معًا، وعبارات الشكر التي جاءت بدافع المجاملة، والكثير الكثير من النكات التي تقاسمناها لنبدد غرابة لحظاتنا الحميمية. كنتُ وحدي مَن أدرك حينها أنّ على جسدي كثيرًا من التجارب المؤسفة، وفي ذمتي ثلاث وعشرون طعنة كانت لتغدو أقل عددًا في حال لو عاد إليَّ (راجح)، من بعد طقسنا الحميمي طبعًا، ثم قال لي وهو يخبّئ انتصابه، بأنه لا يريد تكرار الأمر.

أتذكر أنني حين التقيتُ (راجح) أول مرة، أخبرني بأنه قد جرّب الحبَّ من طرفٍ واحد، وأن الأمر كان صعبًا عليه جدًّا، أن نحب أشخاصًا ونستجدي اهتمامهم بينما هم منصرفون تمامًا عنّا، لكن، وبعد أن وقعتُ في فخه، فهمتُ جيدًا أنه كان يحذرني، ولم يكن يشكو إليَّ. مدهشة تلك الطريقة التي أحببتهُ بها بينما كان هو بالكاد قادرًا على أن يلحظ وجودَي.

على أية حال، قررتُ أن أنهي علاقتي المضطربة به بعد أسابيع طويلة من الكفاح، وبعد محاولات كثيرة أردتُ أن أثبت لنفسي من خلالها ضرورة الوفاء مهما بدا الرحيل أمرًا مغريًا. لكن ها أنا الآن، وبعد كل هذا العمر، أعود لأجد نفسي خاليًا منه، ومن الجميع. إلهي، كم أنا مرعوب، لقد اكتشفتُ فورًا أنني الطفلُ الذي غفا طويلاً ففاته التقسيم ولم يمنحهُ أي أحدٍ الحلوى!

أعود إلى حوض الاستحمام، وإلى جدار بيتي المنهار، وإلى (جدّة) التي تغرق، فأرى تفاصيل (راجح) في قامة الشاب البدوي الذي

جاء لينتشلني من الغرق، الجسد النحيل نفسه، عظام الحوض البارزة نفسها، وتجويف القفص الصدري عينه. أضحك بحسٍ فكاهي لا يتناسب مع كارثية الموقف، ولعل (راجح) كان سيضحك أيضًا لو أنّه كان معنا، فيستنكر الشاب تصرفي. تصطدم مركبة أخرى بسيارة الدفع الرباعي التي تهدد بغزو بيتي، يصبح موتي وشيكًا، فأوعز إلى الشاب كي يدلف إلى حجرة نومي ويحضر قلادتي الذهبية:

- هادا مو وقتو، تراك رح تموت يا عم لو ما طلعناك من هنا.

- أدري بس اسمع كلامي.

ينصاع لأمري بعد مناكفة لا تمتد طويلاً، ربما لأنه قد سلَّم آنفًا لحقيقة كوني أرعنًا، أو لعله قد استنتج أنه لن يقوى على مساعدتي ما لم يستجب لمطلبي أولاً، لذا يغيب بالداخل، لكنّه يعود سريعًا، لا بد وأنّه بات يحفظ خريطة شقتي الصغيرة عن ظهر قلب. يمسك القلادة بيده وهو يسأل حائرًا:

- طيب وبعدين؟

- أبغى ألبسها.

يرضخ لأمري مجددًا دون تفكير، يثبّتُ القلادة حول عنقي، فأمرهُ بالخروج لطلب المساعدة، لن يقوَ على إنقاذي بمفرده، وهذا ما يحصل، يثب بخطوة واسعة صوب الفجوة التي دخل في بادئ الأمر منها، ثم يخرج إلى حيث العالم الخارجي. إنه يفعل كل ذلك دون أن يستنكر أمر القلادة، وهو العارف بمدى حرمة لبس الذهب

للرجال، ولا يسألني عن السبب الذي قد يجعلني مهتماً، وفي ذاك الوقت تحديدًا، بقلادة نال الزمن منها ولم تعد مغرية، حتى وإن كانت مصنوعة من الذهب الخالص، لكنني كنتُ سأقول له، في حال لو سألني طبعًا، بأنّني أتيمَّن بهذه القلادة في اللحظات الحرجة، فهي وحدها التي أنقذتني من الغرق قبالة سواحل (اليمن)، وهي التي جلبتْ لي فرصة النجاة من قطاع الطرق أثناء سفري إلى (مكّة)، وهي التي جعلتني أتصبرّ على مشقة العمل مع الأغوات، ومشقة الخروج من حارتهم، وهي، ومن دون شك، التي جعلتني أنجو من كل الفرص التي كان في وسع القدر أن يسخرها كي ينال منّي بسبب تخلفي عن العمل مع أغوات (المدينة). لا بد لهذه القلادة أن تجلب لي الحظ الذي يخرجني من هذا المأزق.

في الطريق إلى الفوز الكبير، والمتمثّل في خروجي من حوض الاستحمام، ثمَّة انتصاراتٌ صغيرةٌ أشعر بها، قدوم الشاب البدوي مثلاً، رحيله لإحضار المساعدة، توقف المطر، معاودة سقوطه، ثم توقفه مرّة أخرى، كل ذلك كان يبعث بداخلي شيئًا من الأمل، لكن كلّما حاولتُ متذاكيًا دفع أحد الجمادات من حولي، سقطتْ عليَّ قطعة أسمنت من الجدار، أو زاد تقدّم سيارة الدفع الرباعي التي صار أحد إطاراتها على بعد ثلاثة أصابع. جلبة تأتي من الخارج كي تزيد من حجم مخاوفي. من المؤكد أن الوضع يزداد سوءًا. تأتي من البعيد صيحات الغارقين، تتلوها هتافات متفرقة لمتطوعين يريدون انتشالهم، لكن لا أحد يقترب منّي، وإنما يرتطم جمادٌ ثالث بكلتا

السيارتين اللتين دُعيتا إلى بيتي. في هذه اللحظة، يصبح مؤكدًا أنّني سوف أموت بثلاث طرق مختلفة. أولاً، سوف ينهار الجدار عليَّ ويصيبني بجروح بالغة، ثم ستنقضّ سيارة الدفع الرباعي فوقي كي تدفعني داخل حوض الاستحمام الممتلئ بمياه الفيضان، وأخيرًا سوف يغمرني الماء وسأموت غرقًا. هذا المأزق مصممٌ بإحكام. تبًّا، لماذا يفعل بي القَدَر كل هذا؟



١٨

حين جاءتْ إلينا (مونا) بالخبر الذي انتظرناه شهورًا طويلة، كان (الشيخ) بالكاد قادرًا على النهوض من فراشه، ناهيك عن السفر إلى (جدّة)، لكنّ أمله في العثور على زوجته وابنه الوليد جعله يتحامل على مقاومة (التهاب الرئة)، أو (الجمبة) كما كنا نسميها، وجعله راغبًا كذلك في قطع المشوار الطويل صوب (جدّة)، والتي قررنا في وقت لاحق، وبشكل جماعي، أن تكون آخر مكان نرتحل إليه. جلبتُ له قبل السفر رجلاً قرويًّا فكواه بالنار ثم أوصاني بألا أعد له مرق اللحم والألبان، وأن يقتصر طعامه على خبز البرُ والعسل، ثم دسَّ في يدي (شبّة سوداء) كي تخفف البلغم من جوفه، وغادرنا دون أن يعود للاطمئنان عليه مرّة ثانية.

رافقتني في ذلك السفر (مونا) أيضًا، والتي تحولتْ بدورها من بيع اللَّبن وخدمة بيوت الباشوات إلى تمشيط شعر النساء. كانتْ تجد في حرفتها الجديدة ذريعةً لدخول بيوت الأفارقة الفقراء ورعاية أطفالهم حديثي الولادة، فتتردد على نساء (مكّة) بمختلف

أعراقهنَّ الإفريقية كي تمشط شعورهنَّ وتهتم بأبنائهنّ. طرقتْ أبواب (الهوسة)، وأبواب (البرانوة)، وأبواب (الفلاليت) وكذلك أبواب (الزبرما)، ودأبتْ تسكب آخر ما تبقى من مخزون الأمومة الذي بداخلها على رؤوس أطفالهنَّ لقاء قدر يسير من المال، أو ربما لقاء شعورها بأنها مؤهلةٌ لأن تكون أمًّا صالحة، حتى لو لم يتخيرّ لها القَدر ذلك.

عرجتُ عليها يومًا حين كانت تلاعب طفلاً في أواخر عامه الأول، حسب ظنّي، وسمعتها تلاعبه وهي تحاول تحفيزه على الحبو تجاهها:

تاتا تاتا حبة حبة

تاتا تاتا شقح العَتَبَة

أخبرتها بأنّ موعد سفرنا قد حان، فدلفتْ دون جدال نحو الداخل كي تحضر القليل من متاعها. ولم تطلب من شقيقتها مرافقتنا، ربما كي تترك خلفها ما يبرر حاجتها إلى العودة إلى (مكّة)، فهي كانت تعلم جيدًا أنها لا تريد العيش بصورة أبدية في (جدّة)، كما كانت تعلم أيضًا أنني لم أكن لأقبل بفكرة التخليّ مرّة أخرى، ولن أوافق على فراقها مجددًا ما لم تملك سببًا وجيهًا لاقتراف ذنبٍ كهذا.

إنني لا أعرف في الحقيقة كيف تطورت الحياة وصرتُ مكلفًا برعاية (الشيخ إسماعيل) و(مونا) معًا، لعلَّ عملي السابق في نقل الركاب هو ما ساعدني في تدبر أمور سفرهما معي، وهو ما ساعدني على تأمين مسكن شعبي لنا في الطرف الجنوبي لمدينة (جدّة).

- من خرابة لخرابة.

هكذا قال (الشيخ) وهو يصف تنقلاته. كان الرجل قد استعاد بعض صوته بفعل الـ (الشبّة السوداء)، فأوعز إليَّ، وبكلماتٍ بالكاد كنتُ أفهمها، أن أقوم «بتنظيف الخرابة التي جلبته إليها» ثم أخرج للبحث عن زوجته وابنه اللذين «قمنا بتهجيرهم لأننا أولاد حرام وعيال كلب».

لم أُضع أيّ وقتٍ مذ أن بلغنا المدينة الساحلية، إذ قمتُ بغسل حجرات المسكن الثلاث وتنظيف مطبخه وحمامه ثم انطلقتُ رفقة (مونا) حتى نقصد منزل القابلة الذي لا يبعد كثيرًا عنّا. أتخيل الآن ذلك المشهد بمتعة كبيرة، حين خرجنا صوب ما بدا أنه خط النهاية لسباق عذاباتنا الطويل، تلك النقطة التي ينتهي عندها مشوار الخروج من حارة الأغوات في (المدينة).

كانت (مونا) تقول لي طوال الطريق إنّ الله قد قدر لي الخروج من (الحبشة) كي أساعد (الشيخ) على إيجاد أسرته، وراحتْ تخفف من حجم الذنب الذي كنتُ أشعر به لقاء تملصي من العمل مع جماعة الأغوات حسبما كان مقدرًا لي. تربكني طريقتها في النظر إلى الأمور بتفاؤل كبير، رغم أن الأمور، ومن وجهة نظري كانت تسوء

كثيرًا، إذ كيف ستبدو حياتي بعد أن يجد (الشيخ) أسرته فينتقل إلى العيش معها ثم يقفل بابه في وجهي؟ ما الذي عليَّ فعله بعد أن نتفرق نحن الاثنين، أقصدني أنا و(الشيخ)، ولماذا أشعر بأنني على وشك خوض تجربة خذلان جديدة؟ ما أصعب أن تقضي حياتكَ معلقًا بين الأرض والسماء!

وجه (مونا) الشاحب يغيبني عن المنطق. تُعدّل غطاء رأسها الأسود وهي تدفع بمؤخرتها المكتنزة كي تصعد الدرج القصير المؤدي إلى بيت شعبي من طابقين. تطرق الباب مرّة، تطرقه مرتين، ثم يفتح الباب صبي أدهم اللون، ويطلّ علينا بمشاغبة تشي بتنويهاتٍ سابقة من أحد أقربائه بألا يتحدث مطلقًا مع الغرباء. من خلف الفراغ الصغير الذي يخلفه باب البيت الموارب، يُطل رأس الصبي كحبة دوم ناضجة. يسألنا عمّن نكون، فتعرّف (مونا) نفسها ثم تقول له إنها تبحث عن (إستيتة سعدية)، هكذا صاروا يسمون القابلة بعد أن تحولتْ إلى العيش في أبعد نقطة تعرفها عن (المدينة المنورة)، وأقرب نقطة محتملة لعبور البحر في حال إن جاء أحدٌ من جماعة الأغوات كي يسأل عنها.

يغيب الصبي قليلاً ثم تأتي من بعده فتاة تكبره كثيرًا. تطرح علينا السؤال عينه، لا تتبدل إجابتنا، ولكنّ حالنا يتبدّل سريعًا، إذ، وبعد دقائق قليلة، تأذن لنا الفتاة بالدخول، ثم تقودنا إلى غرفة صغيرة في الطابق الأرضي كي تتركنا في ضيافة (إستيتة سعدية) التي كانت تجلس أرضًا وتسند ظهرها إلى الجدار.

رغم أنه لم يمضِ الكثير من الوقت مذ أن التقينا آخر مرّة، إلا أنهّا فشلتْ في التعرف عليّ، أما أنا، فما كنتُ لأخفق أبدًا في التعرّف عليها. وقفتُ أمامها، نظرتُ عميقًا إلى عينيها، فتذكرتُ اللحظة التي كانت تلملم بها طستها والخِرق التي تخصها كي تتصنّع الانشغال، بينما رجال الأغوات يقفون فوق رأسها كي يتأملوها ويتأملوا زوجة الشيخ التي تحتضن الوليد وهي تتمدَّد إلى جوارها. أوه، كم كانت تلك اللحظة حاسمة.

صحبتُ القابلة إلى الماضي، قمتُ بالتعريف عن نفسي، وأخبرتها بأنني جئتُ رفقة (الشيخ) إلى (جدّة) كي نعثر على عائلته الصغيرة، لكن (الشيخ) تخلّف عن الحضور معنا بسبب حالته المرضية، فمالت لتقول لي بأنها سعيدة بقدومي، لكنها تفضّل الخروج بنفسها لزيارة (الشيخ) والاطمئنان عليه وتقديم المساعدة اللازمة له. يا لمقدرتها العجيبة على الغفران، ويا لسماحتها! إنني لو كنتُ مكانها لما قدّمتُ اقتراحًا كهذا. في حقيقة الأمر، لو كنتُ مكانها لما قبلتُ باستضافة أيّ فرد يمتّ إلى جماعة الأغوات بصلة، خصوصًا بعد كل المصاعب التي فُرضتْ عليها رغم أنها لم ترتكب أيّ ذنب بحق نفسها أو بحق غيرها.

في مساء اليوم التالي انعطفتْ القابلة لزيارتنا رفقة الصبي الشقي الذي فتح الباب لنا. جاءتْ تتوكأ على الصبي، فاستقبلتها (مونا) ثم قادتها إلى الحجرة التي خصصناها لرقود (الشيخ). كنتُ قد فرغتُ فورًا من تحميم (الشيخ) وتبديل ملابسه وتطييبه لما جلستْ

المرأة إلى جواره كي تتأملهُ ثم وضعتْ راحة يدها، بكل ما أوتيتْ من جرأة، على جبينه وراحتْ تقرأ عليه بعض الآيات والأدعية. في مرحلة سابقة من عمرها، ومن عمر (الشيخ) أيضًا، ما كانت لتفلح في النظر مباشرة إلى وجهه، ناهيك عن الاقتراب منه إلى هذا الحد أصلاً، لكنّ الأيام نجحتْ في تبديل أحوالنا جميعًا.

فرغتْ (إستيتة سعدية) من طقوس المواساة الخاصة بها قبل أن تتحول لتقول لنا، وهي تحاول التيقن من قدرة (الشيخ) على الاستماع إليها، بأنّ المرأة والطفل قد غادرا (الحجاز) إلى الأبد. أوضحتْ لنا بهدوء يتطلبه موقفٌ حاسمٌ كهذا أن زوجة (الشيخ) أخبرتها بأنها كانت تنوي، ومنذ البدء، العودة إلى (الحبشة) لأنها لم تجد راحتها في مجتمع الأغوات المتزمّت، وأنها كانت تتعمّد أخذ (الشيخ)، خلال لحظاتهم الحميمية، إلى ما هو أبعد من حدود المداعبة البسيطة؛ وذلك حتى تحبل منه، فيجد الرجل نفسه مضطرًّا إلى تأييد قرار سفرها. ولعل المدهش في الأمر، أن تعترف لنا القابلة بأنَّ (الشيخ) قد التقى بها قبل أن تلد زوجته بأيام قليلة، وطلب منها مساعدتهُ كي تقوم بتوليد الطفل ومن ثم تهجيره وأمه إلى منطقة بعيدة، لكنّها توجهتْ إلى (الأمين) وأخبرتهُ بالأمر، ظنًّا منها أنها كانت تقوم بالأمر الصحيح، وأنَّ إحالة هذه المشكلة إلى جماعة الأغوات سوف يخرجها من دوامة المشاكل. أوه، كم كانت خيبتها كبيرة!

لقد استنكرتْ (إستيتة سعدية) طيش (الشيخ) الذي جاء متأخرًا، وتحديدا قرَّار الزواج في نهاية عمره بعد أن حافظ على

عزوبيته لسنواتٍ طويلة، فرجلٌ حاذقٌ مثله كان ليتجنّب مكر النساء ومقدرة إحداهنَّ على ابتزازه لقاء عدم فضح السِر الذي تبجّح بصونه لسنوات طويلة. «يبدو أن شَبقَه قد أعماه حقًّا»، هكذا تقول (إستيتة سعدية)، دون أن تكترث لأيّ ردة فعل أو توبيخ قد يصدر عن (الشيخ) المتمدد بجوارها، ولعلها تختم كلامها بالتعجب من إصرار زوجة (الشيخ) على أن تنجب طفلاً يشاركهم هذه المعاناة، فتقول (مونا)، وهي العارفة بشؤون النساء وغرائز أمومتهنَّ، إنّ زوجة (الشيخ) لم تشأ أن ينتهي بها المطاف دون أبناء، أرادتْ أن تختبر الأمومة قبل أن تكتشف، وعلى حين غرّة، بأنَّ فرصتها في الزواج من بعد (الشيخ) قد باتت معدومة.

يتوزَّع كلامنا في أرجاء الحجرة قبل أن يخبو تدريجيًّا ونغرق جميعًا في بركة من الصمت القاتل. كان الوقت ملائماً حينها كي تقدّم إلينا (إستيتة سعدية) أسفها لقاء الخبر الصادم، وكي تعاود التوكؤ على الصبي الذي رافقها إلى منزلها. تركتنا أخيرًا رفقة صمت (الشيخ) الأبدي دون أن تستنبط، رغم خبرتها الشديدة بالحياة والموت، أنَّ خبرًا كهذا يمكنه أن يسلب (الشيخ) قدرته على الحركة وليس الكلام فقط، وهذا ما حصل فعلاً، لقد تخشّب (الشيخ) في فراشه بعد رحيل (إستيتة سعدية)، ربما لأنه اكتشفَ حقيقة هزيمته في معركة غير متكافئة ضد (الجمبة)، والتواء الكاحل، وسطوة (الأغوات)، ومطامع زوجته، وبطش البحر الذي لم يكن ليسمح له بالسفر يومًا.

أجل، لقد عاد (الشيخ) من الحرب؛ حتى يدرك في نهاية المطاف، وبعد شهور طويلة قضيناها في البحث والترحال، أنه لم ينتصر على الحياة، وأنّه هو الطرف المهزوم. بعد أسبوعين تقريبًا من وصولنا إلى (جدّة)، وقبل أن تشعر (مونا) بحاجتها إلى العودة إلى (مكّة)، مات (الشيخ).

كان الأمر برمته محزنًا أكثر من كونه صادمًا، إذ أذكر أنيّ دخلتُ عليه في أحد الصباحات، وبصحبتي بعض من العسل وخبز البرُ، فوجدتهُ متصلبًا في فراشه وبعض الزبد يسيل من فمه. لوهلة ظننتُ أنه كان يناكفني، وأنه سوف يفتح عينيه فجأةً حتى يقول لي، وبفظاظته المعهودة، «فين وديتوا الحرمة وولدي يا عيال الكلب»، لكنّه لم يفعل هذا، بل ظل ساكنًا في مكانه إلى أن هطلتْ عليّ (مونا)، وبعد نداءاتي المتكررة؛ كي تؤكد لي أنه لن يفيق أبدًا.

لا أعرف لماذا شعرتُ حينها بأن هذا الموت لا يليق به تحديدًا، ولا بشيوخ الأغوات أصلاً، كنتُ إخاله، وطوال معرفتي به، سوف يموت بين جماعته، بعد أن يعود إليهم طبعًا، فيستنفد لحظاته الأخيرة في تسديد النصائح إليهم وتوزيع المهام عليهم بطريقة تضمن سير أعمال الجماعة على أكمل وجه. هذا الرجل المتيّم بالترتيب، إنه ما كان ليغادر الحياة دون أن يضمن مبايعة جماعته لشيخ آخر يخلفه، ودون أن يتيقن من أنّه كان يرتدي أنظف ثيابه ويتطيب بأفضل الروائح.

لقد غادرنا الشيخ بملابس يلطخها بوله الذي لم أستطع تنظيفه، وبآثار الزبد على فمه، وبخيبة أملٍ كبيرة لقاء فشله في العثور على أسرته، ولستُ متأكدًا من السبب الذي لم يجعلني قادرًا وقتذاك على التكهن بهذه النهاية، إذ إنها كانت تشكل الاحتمال الوحيد لتسلسل الأحداث منذ أن قررنا ترك حارة الأغوات.

ها أنا ذا أجد نفسي مجددًا في مواجهة المسؤولية التي أُسندتْ إليَّ دون موافقة منّي، أخرج لتدبّر أمور نقل جثمان (الشيخ) ودفنه في (مكّة) استجابة لمطالب (مونا) التي اقترحتْ أن نعيد الوصاية على (الشيخ) إلى شقيقه (الأغا يونس)، وها أنا ذا أفعل جل ما في وسعي كي لا أنكسر مجددًا أمام حادثة فراق أخرى. أجل، لقد كان (الشيخ) شديد القسوة عليَّ دومًا، لم يشكرني، ولو لمرّة، على التضحيات التي قدمتها إليه، لم يشعرني بالامتنان يومًا، ولم يجرؤ على أن يقول لي بأنّه يحبني أبدًا، لكنني كنتُ أرى في فظاظته تلكَ صورةً معقدة من صور الحب. لقد كان يحبني، وأنا كنتُ أحب (الشيخ) أيضًا.

بعد وفاة (الشيخ إسماعيل)، انشغلتُ بالتفكير في كافة الاحتمالات التي تأتي بعد الموت، المنطقي منها وغير المنطقي، وشرعتُ أفكر في النظرة الصوفية لمسألة الروح، تلك التي لم تكن شائعةً بين كل المتصوفين، لكنّ (الناظر) كان يؤمن بها، أن في وسع الأرواح أن تعود كي تعيش بيننا. هل يمكن أن يعود (الشيخ) إلى الحياة بجسدٍ جديدٍ واسمٍ جديد؟

لازمتني هذه الأفكار فترة الحداد التي عشتها بمفردي في (جدّة) بعد أن قفلتْ (مونا) عائدة إلى (مكّة) رفقة جثمان الشيخ. لم أذرفْ دمعةً واحدة، كنتُ فقط أنتظر خبر قدوم أغا جديد من (اليمن) له نفس طباع الشيخ، ونفس الحظوظ في خسارة زوجته وابنه، فآخذهُ بقوةٍ إليَّ وأقسم له إنني سأوصله إلى أسرته التي سافرت إلى (الحبشة)، لكنّ انتظاري طال حتى نهاية العمر. ها أنا ذا في حمام منزلي، تحت الأنقاض والركام، محاصرًا بمياه السيول، وبانتظار مَلَك الموت الذي سوف يجيء إليَّ كي يقول لي، وبصفته العارف طبعًا، إن (الشيخ) كان قطعة من الجنّة فعاد إليها.

١٩

تمر أسابيع قليلة بعد وفاة (الشيخ)، أبدّل مسكني، أنتقل إلى العيش في حارة أخرى، أخرج للبحث عن عملٍ في مناطق بعيدة، لا أوفَّق، أعاود الكرّة مرة أخرى، أشاغل نفسي، لكنني لا أفلح في تجاوز صدمة رحيل (الشيخ). حتى عندما أنعطف لزيارة (مونا) في أوقات متباعدة، تفشل بدورها في أن تفصلني عن واقعي، أو في أن تبعث بداخلي شعور الطمأنينة الذي عرفتهُ عنها خلال سفرنا من (الحبشة) إلى (اليمن). أتجشم عناء السفر إلى (مكّة) لرؤيتها، وذلك بعد أن تنتقل رفقة شقيقتها للسكن في بيت مستقل بعيد عن (رباط المغربي)، فتضع يدها على رأسي التي ألقي بها في حِجرها، ثم تقول لي بشيء من خيبة الأمل، إنّ كل ما يحصل هو قضاء وقَدَر.

كنتُ أرى (الشيخ) في أحلامي. لم يتوقف عن المجيء يومًا. أراه وألمسه وأقوم بأخذه للاغتسال وتنظيف ملابسه وإعداد الطعام له والاستماع إلى سيل شتائمه الذي لا ينتهي ثم أستيقظ على شعور دائمٍ بالقلق إزاء الجزء المتبقي من عمري. تُرى هل سأعيش هكذا

حتى ينتهي أمري؟ أفكّر كثيرًا، وفي الطريق إلى الأماكن المكررة، والوعرة، أجد الرغبة المُلحة في مصادقة أشخاصٍ جدد قد يمنحوني الرغبة في النظر إلى الحياة بطريقة مغايرة، أشخاص لا يعرفون شيئًا عن الأغوات و(الشيخ) وسلسلة عذاباتي التي بدأتْ مذ أن وضعتني أمّي في خيشتها وساقتني إلى شرق (الحبشة).

لعلي صادقتُ أشخاصًا كثيرين خلال تنقلي للسكن بين أحياء (جدّة) المتنوعة، جميعهم ذكور طبعًا، ومن المحتمل أن أكون قد رأيتُ في معرفتي ببعضهم فرصةً لخلق لحظات حميمة تشبه تلكَ التي عشتها مع (راجح)، لكنّ محاولاتي جميعها كانتْ تموت في مهدها، إذ لطالما كنتُ متأكدًا من أنّ مقدرتي على الإفصاح عن مشاعري تجاه شخصٍ ما ترتبط كليًّا بمدى رغبته في اتخاذ الخطوة الأولى نحوي، فأصبحتُ طوال شبابي عالقًا هكذا، بين حتمية الرفض واحتمالية قبول الآخرين. كل أحبائي وضعوني في خانة الأصدقاء، ولا أعتقد أن أحدًا منهم قد فكَّر في كسر حاجز خجله كي يقول لي، ولو من باب الدعابة، «وأنا يا (آدم) أحبك في السر أيضًا».

في شبابي، ولا أريد التصديق بأنني كبرتُ إلى الحدّ الذي يجعلني أتحدّث عن الشباب بصفته مرحلة قد انقضتْ، كنتُ أجلس مأخوذًا، وقد امتلأ العالم فجأة بالخسارات، (مريم)، (راجح)، (الشيخ إسماعيل)، أصدقائي الأغوات، فأفيق على فشلي في الصمود أمام طريقة القَدَر في معاقبتي على ذنب خروجي من (المدينة) دون أن أطلب الإذن من نقيب الأغوات. تقودني الرغبة في الخلاص

من لعنة الخسارات التي تلاحقني إلى التردد على مساجد (جدّة) كي أتقرّب إلى الله، ولعليّ أخرج إلى (مكّة) لأداء العمرة، أفعل هذا رغم يقيني باحتمالية أن تبوء كل محاولاتي بالفشل، إذ إنيّ في السابق، وحتى خلال عملي لدى جماعات الأغوات، لم أتعوّد اللجوء إلى الله، مع أنيّ كنتُ أحافظ على الصيام وكنتُ أصليّ. أنا، ومذ أن هاجرتُ رفقة أمّي، لم أشعر يومًا بالحاجة إلى رفع رأسي نحو السماء كي أطلب شيئًا، ولم أفهم حتى طرق الناس المتفاوتة في التقرب إلى الله، لا سيما وأن تلك الطرق كانت تناقض بعضها بعضًا.

ناديتُ الله بكل أسمائه مثلما فعلتْ أمّي حين غادرنا قريتنا الصغيرة في (الحبشة)، فعلتُ هذا بعد أن تأكدتُ من صِحة أسمائه، لكنّه لم يجب، أو هكذا ظننتُ، فأمضيت العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات معتقدًا بأنه قد أغلق بابه في وجهي إلى الأبد. ولا بد أنّ أربعين عامًا كاملة كانت قادرةً على أن تُبعدني عن الخسارات المتعاقبة التي تلتْ خروجي من (المدينة)، وتبدد شيئًا فشيئًا حاجتي إلى التعلّق بالسماء كي ينصلح حالي، لكنَّ وجودي اليوم أسفل ركام الحمام، هنا، حيث مياه الفيضانات التي تشي بالغرق، هو أكبر دليلٍ على أنّ لعنة الخسارات لم تنتهِ بعد، وأنّ الوقت قد حان أخيرًا كي أُحاسب على أخطاء الصِبا التي لم تُغتفر.

إطار سيارة الدفع الرباعي يدهس جزءًا من رأسي. تغيب الصورة أمامي تمامًا، لكن صوت خرير الماء يبقى حاضرًا. صيحات الاستغاثة بالخارج تزيد من كارثية الموقف. على جسدي يسقط المزيد

من قطع الأسمنت، إحدى القطع تُفلح في تهشيم قدمي. أشعر بالألم الحارق وهو يتوزع في النصف السفلي من جسدي، النصف السفلي تحديدًا، بصفته المركز الذي تمحورتْ حوله كل التفاصيل المتعلقة بحياتي، فأصرخ، لكن الصرخة تموت في حلقي؛ ربما لأن إطار السيارة البدينة يتدحرج كي يدوس على النصف الأيسر من وجهي.

يتهادى من بعيد صوت الشاب البدوي الذي حاول انقاذي، من المحتمل أن يكون قد عاد ومعه بعض الرجال الأشداء، فيفلحوا في انتشالي من تحت الأنقاض قبل أن تتمكن سيارة الدفع الرباعي منّي. أبتسم فرحًا، بطبيعة الحال لا يتحرّك وجهي، أو ربما هو الجانب الأيمن منه فقط، وما أدراني؟ لكن صوت الشاب يعيدني، وبطريقة غير مستغربة، إلى صورة (محسون) الذي التقيته في (جدّة)، ومن قبيل المصادفة؛ فكان وحده هو الشخص القادر على إنقاذي من شعوري الدائم بالذنب لقاء مغادرتي جماعة الأغوات والأضرار التي ألحقتها بها. لقد تعثرتُ به، وبالاستناد إلى صدفة كونية لا تتكرر إلا مرّة كل ألف عام، كي يقول لي إنّ نظام الأغوات قد تمَّ حلّه، وأنّ الجهات الحكومية تقوم بإزالة الحارة وكل المناطق المحيطة بالمسجد النبوي.

لا بد وأنيّ كنتُ في أواخر الأربعينيات حين حصل كل هذا. أذكر أنيّ التقيتُ (محسون) في (الكرنتينا)، وتحديدًا بالقرب من مواقف الحافلات التي كنتُ أعمل في غسلها أسوةً بالكثير من النازحين الأفارقة، والذين لم يجدوا في الحجاز أيّة وسيلة للحياة

سوى سكب الماء والصابون على الباصات وسيارات الأجرة ومسحها بخرقٍ بالية. حدث هذا قبل أن أنتقل إلى العيش في شرق (جدّة) بدلاً من جنوبها، فتعرّف عليّ فورًا، رغم التغييرات الجذرية التي طالتْ ملامحي، ثم أخبرني بأنَّه لم يكن يتوقع من إجراءات إفراغ الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي أن تدفع بالأغوات، أو أن تدفع بي تحديدًا، إلى التهجير إلى هذا الحد. لم أفهم مقصده وقتها، ولم أشأ الخوض في مزيد من الأحاديث معه حول هذه المسألة حتى لا أجد نفسي مضطرًّا إلى إخبارهِ عن الطريقة التي خرجتُ بها من (المدينة)، وعن قصّة (الشيخ إسماعيل)، وعن فشلي في تحقيق نبوءة أمي التي تجشمتْ عبء إرسالي إلى (مكّة) كي تتباهى أمام أهالي قريتنا بقدرتي على أن أكون ابنها البار الذي يرضخ لمشيئة الرب، لذا فضّلتُ الخروج لاحقًا في سفرٍ مطوّل إلى (المدينة) حتى أتوقَّف بنفسي أمام لوحة إعلانية سوداء كُتب عليها بخط اليد:

«تعلن وزارة المالية والاقتصاد الوطني لأصحاب العقارات الواقعة بحارة الأغوات التي سبق أن جرى ترقيمها وتثمينها تمهيدًا لنزع ملكيتها لصالح مشروع الملك فهد بن عبد العزيز لتوسعة الحرم النبوي الشريف بأن عليهم سرعة التقدم بصكوك ملكياتهم لمالية المدينة المنورة مُثبتًا عليها الذرعة والمساحة لاستكمال إجراءات صرف تعويضاتهم حيث تقرر بإذن الله هدم وإزالة أنقاض هذه العقارات في مطلع جمادى الثانية والله الموفق».

كان وقتُ صلاة العصر قد حان لما وقفتُ أمام منزل (الشيخ إسماعيل) المهجور في حارة الأغوات كي أفكّر في احتمالية أن أكون أنا من تسبب في كل هذا. لسبب ما، يبدو المنزل أصغر مما أتذكر، وكذلك الساحة المقابلة له، حيث أستعيد شيئًا من ذكرياتي التي جالتْ في المكان كثيرًا، لكنني لا أجرؤ على دفع الباب أو الدخول مطلقًا. إنني لم أشأ استحضار ذكرى قدومي مع (النقيب) و(الأمين) كي نشهد على ولادة ابن (الشيخ إسماعيل)، ولم أشأ الوقوف بإذلال أمام صورة السجان الذي كنتهُ لما فُرض عليَّ إبقاء (الشيخ) في بيته تحت الإقامة الجبرية.

يتهدّج صوت المؤذن، يخفق قلبي، وأسير بلا تفكير بمحاذاة مساكن الحارة المهجورة، والبلدوزرات المركونة، فأتذكَّر الطريقة التي كنا نتأهب بها للخروج إلى المسجد حتى نهيئ مراسم رفع الأذان، خصوصًا لما نخرج في ساعات الفجر الأولى، فنجلب المفاتيح، ونفتح الأبواب، ونضيء الأتاريك، ونركز العصا التي يتوكأ عليها المؤذن، ونرمي كثيرًا من ماء الورد على سلالم المنارة. وقد أتوقف لبرهة أمام بيت (النقيب)، وأطيل النظر إلى النافذة التي طرقناها في ذلك المساء المشؤوم، لكنّي أغادر بعد أن أكتشف حاجتي إلى الابتعاد عن طيف (النقيب)، وطيف زوجته التي ربما، وأقول ربما، لو أفلحتْ ليلتها في منع زوجها من الخروج لظلّت هذه الحارة قائمةً على حالها.

وصلتُ إلى مساحة تجاور دكّة الأغوات الواقعة في أقصى المسجد بعد أن انقضتْ صلاة العصر. جلستُ على الأرض متربعًا

كمن فرغ للتو من أداء الركعات الأربع، وأبقيتُ أنظاري مثبتة إلى السجاد الفارسي النّظيف. لا شك أن القائمين على أمر الحرم يُبقونه طاهرًا على الدوام، لا سيما بعد انتقال شؤون التنظيف إليهم من جماعة الأغوات. أمرر يدي على نعومة السجاد التي أعرفها جيدًا، أختبر طريقتها في الخلو من الغبار والأتربة، وأستحضر شيئًا من طريقتي في الكنس والتنظيف، ثم أفيق على قهقهة طارئة.

أرفع رأسي إلى الأعلى قليلاً، وأمد بصري صوب البعيد، فأرى من بين قضبان النحاس التي تميز الدكّة بعض الأغوات الجالسين وهم يمنحوني ظهورهم. لا بد وأنهم قد فرغوا فورًا من أداء صلاتهم. عمائمهم تفضح هويتهم، أو لعلها هي ما تمنحهم هيبة تدفع بعض العابرين إلى الانحناء للسلام عليهم. أنهض بدوري، أتهادى من مسافة بعيدة صوب الدكّة، وقد لا أتعرّف على بعض الأغوات الجالسين، ربما بسبب انشغالهم بقراءة القرآن والاستغفار، لكنَّ أنظاري تقع على (النقيب) الذي يجلس في منتصفهم. أقترب منه، بجُرأة اكتسبتها تدريجيًّا مع تقدمي في العمر، ثم أنحني أمامه كي يصبح وجهي أمام وجهه. ألقي السلام عليه، لا تفصلنا سوى أشبار قليلة، فأراه بوضوح من خلف التجاعيد التي طمستْ وجهه.

لهذه اللحظة رونقها الخاص، وطريقتها الفريدة في أن تجعلني قادرًا على أن أغفر بنفسي لنفسي ذنب التمرد على الأغوات والخروج من حارتهم، إذ إنها منحتني القدرة على النظر إلى عينيِ النقيب عميقًا، كما لو كنتُ أنظر إلى روحه، فيزيح بصره عنّي بعد

أن يتأكد من هويتي، ثم يرد السلام عليَّ قبل أن يتابع قراءة القرآن الذي يحتضنه بين يديه. لقد تهرب منّي (النقيب) الذي عرفتهُ بشدة البطش، وبعدم مقدرة الآخرين على مجاراته في رد الصاع بصاعين، فكانتْ تلك هي اللحظة التي استعدتُ من خلالها القدرة على وضع حارة الأغوات بأكملها خلف ظهري.

عدتُ بعد سفري ذاك إلى (جدّة) كي أتحول إلى السكن في هذه الشقة التي يغمرها ماء الفيضان الآن، وآثرتُ أن أمضي الهزيع الأخير من عمري بعيدًا عن (المدينة)، وألا أعود إليها مرّة أخرى حتى لا يستيقظ بداخلي أي شوق قديم أو أي شعور بالذنب. أجل، لقد أضرمتُ النار في السنبوك، ليس من أجل أن أبقي ذكرياتي في الضفّة الأخرى، وإنما لأمنع نفسي من العودة إلى هناك.

حافظتُ على علاقتي بـ(مونا) طبعًا، وكنتُ أزورها مرّة في كل عام حين تتيسر أموري، أما (محسون) فقد عاود الاختفاء من حياتي مجددًا، ربما كي يتحينّ فرصة أخرى يأتي فيها ليتقمَّص دور البطل وينتشلني من كارثة جديدة. ترى هل في وسعه أن يأتي الآن ليساعد الشاب البدوي على انتشالي من أسفل أنقاض الحمام وسيارة الدفع الرباعي؟

يا له من زمن غريب يا أعزاءي، أن أجد نفسي، بعد كل التضحيات، وبعد كل الهزائم والانتصارات، في قلب المعارك نفسها، بنفس الجروح القديمة، ونفس الندبات التي صنعها الآخرون، أو تلكَ التي تطوعّتُ أنا كي أضعها بنفسي على جسدي. لقد قدَّمتُ

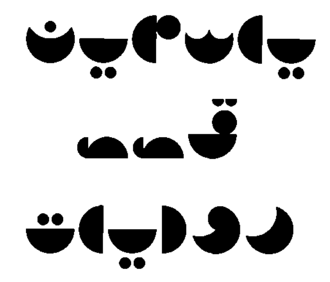
الكثير كي أصل إلى لحظة سلام أخيرة تفيض فيها روحي دون الحاجة إلى معاودة العبور في دهاليز الذكريات المظلمة نفسها، ولقد أضعتُ أشخاصًا كثيرين في مشوار حياتي بقصد، ومن دون قصد، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي سنابيك (الحبوش) المسافرة إلى (الحبشة). تبًّا، لقد هُزمتُ في نهاية المطاف، ومن بين كل الذين خسرتهم سوف أفتقد نفسي كثيرًا.

صوتُ الشاب البدوي يأتي من البعيد كي يحث أشخاصًا لا أعرفهم على المحاولة بجهد أكبر، أتبين هذا بعد التدبّر مطولاً في الهمهمات الواردة من الخارج. لا أميز الجمادات من حولي وهي تتهاوى تباعًا، بعضها يأتي من أزقّة الحارة، أخمّن، والبعض الآخر يهوي من الجدران المحيطة بي، فأتذكر الجهد الذي سيتطلبه الأمر كي أعيد ترتيب الشقة وأمنحها رونقها القديم في حال لو خرجتُ من هذا المأزق. أفكر أيضًا في السجاد التبريزي والأضرار التي أصابته، من سوف ألجأ إليه كي يساعدني على تنظيفه؟ ثم أميل أخيرًا إلى تذكَر (مونا)، هل سأنتقل للعيش معها لو نجوت؟ ومن يا ترى سيخبرها عن وفاتي في حال لم أنجُ؟

أصوات الرجال بالخارج تتعالى، إطار سيارة الدفع الرباعي يزيد الضغط على وجهي، الألم الرهيب يتوزع في جسمي بالتساوي، هتافهم يقترن بكثيرٍ من الاحتجاج الذي ينمّ عن فشلهم في إزاحة عائق ما، ثم، وبعد برهة بسيطة، يدوي صوتٌ قوي، لا بد وأنه جمادٌ آخر يصطدم بسيارة الدفع الرباعي، أو بالجدار المقابل لي، لا أدري،

إذ إنيّ أشعر بجسمٍ ثقيل ينهار فوقي بقوة، وحينها.. فقط حينها، ينتصر القَدَر، وتخيب نبوءة أمّي، وتنتهي القصة.

تمت



إن كان خــوض الحيــاة كشــخص أســود أمــرًا مؤلمًا وصعبًا جــدًّا، فإنَّ معرفة أن هذا الدور لا يليق بك هو شعورٌ أشبه بشفرة صغيرة وصدئة تجزُّ عنقك ببطء..

إنها فقط ***إهانة غير ضرورية!***

مايا أنجلو